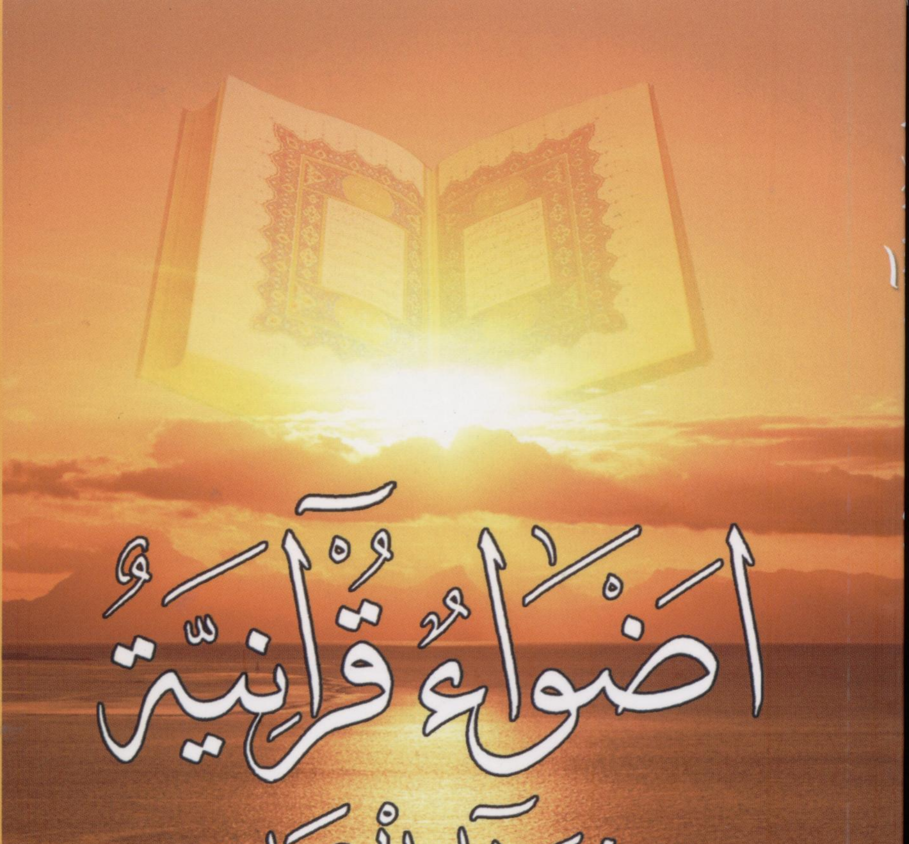

أَضْوَاءٌ قُرْآنِيَّةٌ

فِي سَمَاءِ الْوِجْدَانِ

مُحَمَّد فَتْح الله كُولَن

أضواء قرآنية

في سماء الوجدان ..

ترجمة كتاب

Kur’an’dan İdrake Yansıyanlar

عن التركية

محفوظة جميع الحقوق

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثانية

1426هـ - 2006م

DARALNİLE

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5

34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185314

Baskı yeri:

Çağlayan A.Ş.: Sarnıç yolu No: 7 Gaziemir - İzmir

Tel: +90 232 2522097/98

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: 7 ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: +2022619204

المحمول: +20123785192

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

أضواء قرآنية

في سماء الوجدان

مُحَمَّد فتح الله كُولَن

المُتَرجِم : اوُرخان مُحَمَّد علي

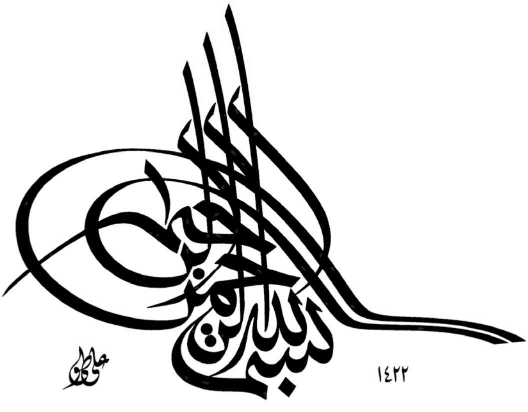
بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٢

توطئة

القرآن الكريم كتاب الله المنـــزل على قلب محمد ﷺ، ليسترشد به الجنس البشري، وليستقرَّ عليه الكون والوجود، وعليه تقوم قيامة العالم، وبه يشقى مَنْ يشقى، ويسعد مَنْ يسعد:

والقرآن يرفعنا فوق العالم إلاَّ أنه لا يطلب منَّا الانسحابَ منه، ويعلو بنا فوق الكون في الوقت الذي يريد منَّا أنْ نتنبَّه لأقلّ جزئياته بداهةً وأُلفةً، ويغوص بنا إلى أعماق موغلة في الإنسان لنصغي معاً لأَخفى أَنَّات روحه، وأوهن أوجاع قلبه.

وإلى مناطق بكر غير مكتشفة من قارَّات الروح يأخذنا "القرآن" ويرتاد بنا أبعاداً هائلة، وقِمَماً عالية جداً، ثم يحذرنا من الالتفات إلى الوراء وإلاَّ دار رأسنا وربما هوينا من شواهق ما وصلنا إليه إلى سحيق وديان ما كُنَّا فيه. وهو يسمو بوجداننا فوق العقل إلاَّ أنه يظلُّ يذكّرنا بأنه -أي العقل- معراجنا مع الوجدان في هذه الفوقية، ويخترق بنا آماد الزمان والمكان حتى لنكاد نشعر بأمواج الأبدية وهي تضرب شواطئَ أرواحنا، وتنساب إلى دواخلنا، وفي برزخٍ بين أن نكون -بشراً سوياً- أو ألاَّ نكون، يوفقنا القرآن لنرى رأينا ونحزم أمرنا.

وشتيت الروح، وانقسامات النفس، وتشعبّات الفكر، وزائغات النظر، تجد في القرآن ما يلمُّ الشتات، وَيُوْحِّدُ الشعَبَ، ويجمع المقسَّمات، ويعيد للبصر وحدة النظر ليزداد حدَّةً وقوةً فيرى "اللاَّمرئي" فينا، "واللاَّمرئي" في

الكون والوجود، وهو يعلمنا أنَّ مَنْ لم يكن واحداً في ذاته، كلاًّ في فكره، جمعاً في وجدانه، فلن يكون له نصيب من تجليات أنوار الواحدية والأحدية، لأنَّ الإيمان الحق، هو الإيمان الذي ينبعث عن الكياني الإنساني كُلِّهِ، والقرآن -بعد ذلك- ينبوع قوة يتدفق من قوىً غيبية ليستقوي به الضعفاء، ويحيا به الأموات، وهو العقل المبعوث لجنون كل الأعصار، وشعاع الروح الأزلي فوق ظلمات القلوب والنفوس، فكلماته محّملة بسحائب الحياة، وآياته تقطر أنداءَ جمالٍ وجلالٍ، وبمقدار ما يجهل الإنسان منه يكون جهله بنفسه وبالكون وبالوجود من حوله، إنه باعث غريزة التوحيد وفطرته من كوامن الإنسان، وهو عين العالم وقلبه، كم من عقلٍ غَيَّرَ، وكم من روح سما بها، ووجدان ارتفع به، إن قوانين الفطرة ونواميس الكون تتألقان في سماء كلماته وآياته، وفي ثناياه يرقد العقل كله، ومنه تُستَنْشقُ أنفاسُ الحياة، وفيه تأتلف قوى الطبيعة والفضيلة، ويغوص الكُلُّ في فيض من الحب الإلهي، وهو يعزّز قوى الحواس، ويفتح نوافذ الخيال، ويؤجج ثورة عشق في سويداء القلوب والأرواح، أما نبلاء الفكر فإنهم يجدون فيه النبل كلَّهُ، والشهامة كلَّها، والعظمة كلَّها... وكمْ من خيالٍ فَتَنَه، ومِذْواقٍ سحره، وبلاغةٍ ركعتْ لبلاغته.

لقد مَزَّقَ القرآنُ أكفانَ الصمت عن النبُّوات السابقة، وأقام الأنبياء السابقين من مراقدهم، واستنطقهم ليقولوا كلمة الحق في محمد ﷺ، وليأنس بأنفاسهم، ويتأسَّى بسيرهم وبما لاقَوْه من عَنَتِ أقوامهم، وما صبّوه عليهم من نُكْرٍ وعذاب.

لقد هَزَّ محمد ﷺ بنداءاَته قلب السماء فانتفضتْ حتى غدت جعبة سهام نارية تنطلق لتصميَ أفئدة الشياطين وأتباعهم من المشركين، أينما وجدوا وحيثما كانوا.

وبين قلب محمد ﷺ وقلب الكعبة عشقٌ متبادلٌ عميقٌ موغلٌ في القدم،

فهو توأمها في الوجود الغيبي، وهي شطر ذاته، وبعض أجزاءِ جوهر حقيقته في مرايا عالَمِ المثال، ويومَ وَضَعتْ مكةُ وديعتها الغالية بين يدي العالَمَ غَطَّت الكعبةَ سحائبُ أسَىً لما ستأتي به الأيام القابلة من فرقة وافتراق قدري لا مناص من وقوعه قبل أن يسمح القَدَرُ وبعد سنين من الكفاح المتواصل بالوصال من جديد.

* * *

هـــذه -أخي القارئ- بعضٌ من أفكار ومشاعر ومعانٍ جاءت على صفحات هذا الكتاب، وأُريد أن أُنبِّه إلى أَنَّ مؤلف الكتابً العالم الكبير الأستاذ فتح الله كولن لم يزعم أنه في معرض التفسير لما تناوله من آيات قرآنية، على الرغم من امتلاكه لكل شروط المعرفة التفسيرية و أدواتها. وكُلُّ الذي فعله أنه سَجَّلَ في هذا الكتاب ما تلقاه من وَمَضاتٍ والتماعات وإشارات من بعض مَا تَألّقَ في سماء وجدانه المرهف من نجوم القرآن، ومع ذلك فإنه لم يغفل تماماً آراء المفسرين في الآيات التي عرض لها، غير أنه توسع بعض الشيء فيها، وانقدحت في خاطره أفكارٌ وَمَعَان جديدة مضافة، تحتملها الآية من حيث تركيبها اللغوي والبلاغي، ولا تشتطُّ أبداً في الابتعاد عن أصول التفسير وقواعده المعروفة. ولا شك أنَّ هذه الخطرات أملتها ظروف العصر، وظروف الدعوة الإسلامية المعاصرة، وأوحت بها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية، ورحم الله النورسي الذي قال: "إنَّ الزمان أكبر مفسّر للقرآن". وأنا على ثقة من أن هذه الخطرات حول بعضٍ من آي القرآن الكريم سوف تجد لها صدىً واسعاً في فكر القارئ العربي ووجدانه، فترجمة هذه الأعمال الدعوية والفكرية للأستاذ "فتح الله" إلى العربية عملية تنشيطية للأفكار، وهي تبادل معرفي جيد بين عقول المعنيين بشؤون الإيمان وقضايا الإسلام هنا في تركيا وهناك في العالم العربي.

جزى الله عنا الأستاذ الفاضل فتح الله كولن خير الجزاء، وآمل من رحمة

الله القدير أن يجعل ذلك في صحائف عمله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ مَنْ أتى الله بقلب سليم.

هذا والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أديب إبراهيم الدباغ

فهم خاص للقرآن الكريم

"عن أبي جحيفة قال: قلت لعليٍّ ﷺ: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلاّ كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر".[١]

الحمد لله والصلاة والسلام على من أنـــزل عليه القرآن وعلى آل وصحبه أجمعين.

من النادر القيام بالتوحيد بين العلم المجرد والنظري وبين الحركة الدعوية، بل يرى بعضهم استحالة هذا. لا شك أن وجهة النظر هذه تحمل نصيبا من الحقيقة. ولكن يجب ألا ننسى الاستثناءات. وهنا يضيف الشيخ فتح الله كولن -الذي يعد من رجال الدعوة والحركة الإسلامية- كتابا جديدا إلى كتبه السابقة التي تزيد على عشرين كتابا.

هذا الكتاب الذي أعطى له عنوان "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" هو حول تفسير القرآن. وهو يتناول بعض الآيات -حسب تسلسلها في القرآن- ويشير إلى النكات والدقائق الموجودة فيها. ويتبين من النظرة الأولى أن المؤلف ملم إلماما جيدا بالتفاسير القديمة والتقليدية. ولكننا نرى أنه يفتح

---

(١) البخاري، العلم ٣٩، الديات ٣١؛ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ١٧٩/٢.

مجالات أخرى، ويقدح شرارات ويومض ومضات تفسيرية دون المساس بأي مقياس من مقاييس علم التفسير أو الإخلال به. وهذا هو ما قصده المؤلف عندما جعل اسم كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان".

وبينما ازدادت وتيرة التخصص في عصرنا هذا، فإن المختصين يشعرون بالحاجة إلى إيصال نتائج بحوثهم إلى قطاعات واسعة من الجماهير. وهذا الطراز من النشريات يدعى في الغرب (Vulgarization) أي أسلوب تبسيط المواضيع الاختصاصية وجعلها في متناول الجماهير، وهو سمة من سمات عصرنا. وتكون هذه الحاجة اشد في موضوع العلوم الدينية التي تهم جماعات واسعة من الجماهير بشكل مباشر. ولو قام حاليا أي عالم ليضع تفسيرا على غرار تفسير الزمخشري أو الرازي أو البيضاوي أو النسفي أو أبي السعود لما حظي كتابه بالسعة المطلوبة بين القراء. لذا كان عليه أن يتنـــزل إلى مستوى مخاطبيه ويختصر المصطلحات العلمية إلى الحد الأدنى.

والكتاب الموجود بين أيديكم الآن هو من هذا النوع من الكتب، لأن المؤلف الكريم تناول هذا الموضوع في كتابه هذا بحيث يستطيع الشخص المتوسط الثقافة فهمه. ولكن تظهر الحاجة في بعض الأحيان لاستخدام بعض المصطلحات الفنية، مما يكون حافزا للقارئ غير المختص لهذه المصطلحات إلى توسيع أفقه وثقافته بعض الشيء. فمثلا على الرغم أن مثل هذا القارئ قد لا يفهم ما جاء من دقائق في تفسير الآية الثانية من سورة البقرة من ناحية المصطلحات النحوية والبلاغية، ولكنه سيفهم أن مفهوم الهداية الواردة في الآية الثانية والخامسة من سورة البقرة هو جواب لطلب الهداية الواردة في سورة الفاتحة. وقد يتساءل: مع أن القرآن مرسل إلى الناس جميعا فلماذا تقول هذه الآية أنه مرسل للمهتدين فقط؟ لذا نرى المؤلف يقول: نعلم بأن هذا الكتاب -الذي لا توجد فيه ذرة من الشك والريبة- هو مصدر الهداية للمتقين... للمتقين فقط لأن نفوسهم خلت من الشبه والريب، وتوجهت

قلوبهم وأرواحهم لتقبل الحق ورعاية أوامر الله وشريعته الغراء. والنتيجة التي يخلص إليها هي: بما أن هؤلاء المتقين هم الذين يستفيدون من القرآن حق الاستفادة إذن يبدو وكأن القرآن قد أرسل إليهم وحدهم.

ومن المفيد هنا نقل تحليل جميل من الكتاب لنفسية الكافر والمنافق: "نظراً لكون المنافقين يعيشون بين المسلمين ويختلطون بهم، لذا تتيسر لهم أحيانا لمحة من نور الإيمان. ولكن النفاق المتغلغل في قلوبهم ورؤوسهم يمنعهم من الاستفادة من هذا النور. أجل!... إن هؤلاء المنافقين قد انقلبوا إلى وضع لا يبصرون فيه، مع أن عيونهم مفتوحة، إما بسبب عدم الاهتمام بنور المشعلة التي يحملها الرسول الأكرم ﷺ في يده، أو الاستهانة به، أو بسبب قيامهم بافساد استعداداتهم الفطرية. ولكنهم مع هذا يواجهون نور المشعلة الذي يأخذ بالابصار، وبدلا من النظر إليه بعين الإيمان نراهم يقومون – بشكوكهم وترددهم- بتحييد القوة النابعة في أرواحهم وبازالة تأثيرها. حتى إن كلمة "استوقد" تشير إلى أنهم كانوا يخططون لكيفية قلب هذا النور إلى نار محرقة.

أما الكفار فلم يتعرفوا على الإيمان وعلى النور المنبعث منه أبدا... لم يروه أبدا، ولم يدخلوا في جوه القدسي. لذا عندما أحس الكافرون –لهذا السبب أو ذاك- بهذا النور في وجدانهم "باستثناء المعاندين منهم" حاولوا التمسك به وقضاء بقية حياتهم كمؤمنين مخلصين. ولا شك أن للفرق بين النور والظلام وبين الإيمان والكفر دورا كبيرا في هذا. فالذين كانوا مهتمين من قبل بأشياء أخرى عندما رأوا هذا النور دخلوا إلى عالم جديد... عالم يحف به جمال الإسلام وجاذبيته. لهذا عندما نقارن بين الذين يسمعون عن الإسلام ويتعرفون عليه للمرة الأولى ويؤمنون به ويعيشونه، وبين المسلمين المولودين في البلدان الإسلامية "إلا القلة منهم" يفهم بشكل واضح صحة ما قلناه أعلاه.

وإضافة إلى قيام المؤلف بالإشارة إلى الناحية اللغوية والبلاغية، إلا أنه اهتم أكثر بمعاني الآيات وبغاياتها، فلنقرأ مثلا ما أورده عند تفسيره أحد أسماء الله ال الحسنى وهو "بديع السماوات والأرض":

"يأتي فعل "بدع" في اللغة العربية بمعنى الإيجاد والخلق دون وجود مثال أو أنموذج سابق. وتعرض الأرض والسماوات التي لا حد لسعتهما أنموذجا للجمال الفريد الذي لا يمكن أن يشبع الإنسان منه. أي هي من الكائنات والمخلوقات العجيبة التي لم يسبق وجود أنموذج لهما من قبل. فهي مذهلة ومدهشة، ولا يمكن أن يكون هناك أكثر منهما جمالا وجاذبية لعدم وجود مثال سابق لهما من جهة، ولطبيعة مادتهما الأصليتين وهيئتهما الحاليتين وهما يشيران ويومئان بمليارات من الإشارات النورانية إلى خالقهما ومبدعهما.

أجل!... خلقت الأرض والسماوات جميعا بكل ما فيهما وبكل جمالهما وجلالهما الأخاذ، وبكل اسرارهما، بدرجة الكمال الذي لا كمال فوقه، ودون أي نقص أو قصور بكلمة "كن" من قبل خالقهما. وهما ليستا أجزاء جاءت وانفصلت منه، وليست ظهورا له. لأن العلاقة بين الكون وبين مبدعه تبارك وتعالى هي علاقة الخالق بالمخلوق. أي أن هذه العلاقة ليست ولادة منه أو صدورا عنه أو ظهورا حتميا وغير إرادي له. وعلى فرض المستحيل لو كانت هذه هي العلاقة لما كان كل هذا الصدور والظهور معرضا للتفتت والتجزؤ والنفاد مثل نفاد وقود الشمس في يوم من الأيام. بينما يخلق كل شيء ثم ينمو ويتطور ثم ينمحي ويذهب ويفنى، ثم يعقب هذا الفناء وجود آخر بنفس الجمال والجاذبية... أجل!...كل شيء يأتي واحدا إثر آخر، ثم يرحل واحدا إثر آخر. ولكن يبقى بديع السماوات والأرض وحده دون زوال أو تحول أو فناء.

وعندما يتكرم الله تعالى ويهب نور الحياة للقادمين، فهو يعبر لأولي الألباب عن معنى الوجود. وعندما يأتي القادمون الجدد بنفس النعم المهداة

إليهم "بعد ذهاب ما قبلهم من الزائلين"، فهو إشارة إلى أبديته وأزليته.

على المسلم -لكي يستفيد الإستفادة القصوى من القرآن- أن يفكر كيف يقرأ القرآن. هناك القليل من يفعل هذا والقليل ممن يطبق ما يقال وينصح في هذا الخصوص. وتناول الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" والعلامة سعيد النورسي في كتابه "المكتوبات" هذا الأمر بعمق. وقد أحس المؤلف الكريم "الشيخ محمد فتح الله كولن" بالحاجة إلى تأكيد هذا الأمر، لذا نراه يقدم طريقة معينة في كيفية قراءة القرآن وفهمه فيقول:

"... ونستطرد هنا فنقول بأنه مهما بدا أن دعاء نوح عليه السلام على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦) يناقض ظاهريا ما قلناه آنفا، إلا أنه ليس كذلك. لأنه من المحتمل أن نوحًا عليه السلام قال هذا على "اعتبار ما سيكون"، وأنه كان يعرف طبيعة ذلك المجتمع الذي قضى فيه كنبي أعواما طويلة. ويحتمل أنه حدس الرغبة الإلهية، أو أنه أوحي إليه هذه الرغبة والمراد الإلهي فدعا بذلك الدعاء. لأن هذا هو الخلق العام للأنبياء العظام في الغالب.

ثم يجب الوقوف حول عما إذا كنا نحمل هذه القصص محمل الحقيقة أم لا. لأننا نعتقد أن هذه القصص ليست قصصا رمزية، بل هي حوادث وقعت حقيقة، ونقلها القرآن لنا.

ثانيا إن الله تعالى بقصه علينا هذه القصص يشير إلى بعض الحقائق الكونية الجارية حتى قيام الساعة. أي هي جارية منذ وجود آدم عليه السلام حتى آخر رجل في هذه الدنيا. لأننا عندما ننظر إلى العناصر التي يستعملها القرآن نراها غير مختصة بزمن معلوم أو مكان معلوم. وهذا هو المنتظر أصلا من كتاب كوني. ولكن لكي نستطيع النظر إلى القرآن هذه النظرة يجب متابعة آياته ضمن إطار خاص. بل يمكننا القول أن هذا هو الشرط الوحيد للاستفادة الحقيقية من القرآن. والشيء الآخر إن الآيات سواء أكانت في

حق الكافر أم المنافق أم اليهود أو النصارى، وكانت أسباب النـــزول تشير إلى هذا الأمر أو ذاك، فإن كل فرد -وهو يقيم علاقات عقلية ومنطقية وشعورية ووجدانية مع نفسه ومحيطه في زمان أو في مكان معين- يستطيع تلقي رسائل غضة وجديدة من القرآن ويحسها في أعماق نفسه. وبتعبير آخر فعلى الفرد أن يقول لنفسه: "صحيح أنني لست بنبي، ولكني أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف كأنها قد نـــزلت عليّ". وفي نهاية المطاف أليس هذا هو روح القضية وأساسها؟ وهل يمكن حصر الله تعالى -حاشا لله- في زمن أو مكان معينين؟ إذن فالقرآن الكريم الذي هو تجلي صفة الكلام عنده تعالى كما خاطب الرسول ﷺ فكأنه يخاطبك ويخاطبني كذلك، ويخاطب كل من يأتي من بعدنا. أي هو يخاطب الإنسانية جمعاء. وهذا الأمر مهم من ناحية شمولية القرآن وكونه فوق الزمان والمكان. وإلا فإن الإنسان ينظر إلى هذه الحوادث الواردة في القرآن وكأنها قصص ماضية. ومثل هذه النظرة في قراءة القرآن يقلل نسبة الاستفادة منه كثيرا."

والقارئ المدقق سيلاحظ دون شك كيف أن المؤلف قام بمزج بارع لعلم البلاغة والفكر وتقييم أسباب النـــزول مع زاوية نظره إلى القصص القرآنية، مع التأكيد على شمولية القرآن، أي على كونه صالحا لجميع الأجيال القادمة. أي أن كلا من المتخصص في علم التفسير والقارئ العادي يســـتطيع الاستفادة من هذا الكتاب.

كما يقوم المؤلف في صدد فهم القرآن بمراجعة رسائل النور والإشارة إليها إما ضمنا أو صراحة.

نستطيع اعطاء مثال على كيفية قيامه بتفسيرات جديدة وتقديم نظرات جديدة إضافة إلى استفادته من التفاسير القديمة والتقليدية بما أورده لتفسير ﴿مَوَاقِعَ النُّجُومِ﴾ (الواقعة: ٧٥) وتخصيصه حيزا طويلا له. يقوم باستعراض جميل للأوجه المختلفة في تفسير هذه الآية. والقصد هنا تناول الرسول ﷺ

والأنبياء الآخرين عليهم السلام، والنجوم، وايداع آيات القرآن لجبريل الأمين، وكون نجوم القرآن -أي مقاطع وحيه- وآياته كل في مكانها الصحيح، وأن الصدور الطاهرة للمؤمنين هي مكان ومستودع نجوم القرآن....الخ من التفاسير المنيرة واللامعة لمعان النجوم. وفي بداية تناوله للموضوع نراه يشير إلى ناحية أخرى فيقول:

"آه من الإنسان القاسي القلب!... إن الله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا الوضع فيعمد لتوكيد ما يريد بيانه إلى القسم.

على الإنسان أن يستحي من هـــذا ويخجل، ويتصبب عرقا، وترتجف شفتاه، وأن يهتز وهو يقرأ مثل هذه الآيات. فرب هذا الإنسان لكي يبين ويشرح له بأن القرآن كتاب كريم، ويبرهن على ذلك يحشد الأدلة تلو الأدلة ثم يضيف إليها قسما عظيما". ثم ينهي تفسير هذه الآية بقوله:

"بسبب كل هذه المعاني، وكذلك بسبب معان لا نعلمها أقسم الله تعالى بمواقع النجوم الذي قال عنه رب العالمين إنه قسم عظيم.

ونحن نؤمن بالمعاني التي لانعلمها تماما كما نؤمن بالمعاني التي نعلمها. لذا نؤمن من كل قلوبنا ونصدق بأنه قسم عظيم".

وعندما يقوم المؤلف الكريم بتفسير الآيات القرآنية التي تحذر المؤمنين من الكفار والمنافقين، يقوم بتحليلات جميلة، فيحذر المؤمنين من حيل هؤلاء ومن المصايد والفخاخ التي يضعونها في طريق المؤمنين ويقول:

"والذين انجرفوا في تيار الإلحاد فأصبح الكفر طبيعة راسخة عندهم وكذلك المنافقون هم مثل الشيطان تماما. ففي ظروف معينة لا يترددون من ذكر الله والدين على لسانهم يريدون بذلك التقية واستغفال الآخرين. ويبدون في صورة المصلحين والصالحين، ولكنهم يحملون على الدوام حقدا لاينطفئ ضد المؤمنين، ويبحثون على الدوام عن طرق ينفسون بها عن هذا الحقد والغيظ. وفي الأوقات التي لا يستطيعون فيها تنفيذ ما ينفس عما

يعتلج في صدورهم من غل تراهم يخفون حقدهم وراء ابتسامة صفراء أو بيانات وأقوال لينة، ويتظاهرون أنهم ديمقراطيون. وعندما يصلون إلى القوة التي تمكنهم من فعل ما يريدون تراهم يقولون: "إن الحق للقوة". أما الديمقراطية فتصبح آنذاك أمرا خياليا أو "فنطازيا"، ثم يرتكب من المساوئ ما لا يخطر على البال.

إن الثقة بمثل هؤلاء تعد عدم احترام لشعور الثقة. أما الخوف من هؤلاء فيعد عدم ثقة بالله تعالى. وعلى المؤمن أن يكون دائما مفتوح الصدر بالحب للجميع، ولكنه لا يغفل ولا يدير ظهره لامثال هؤلاء، وعليه في جميع الأحوال أن يلتجئ إلى الله تعالى من شرهم".

ثم يختم تحليله قائلا:

"ولكونهم كاذبين وذوي وجوه عديدة، ويسلكون سبيل التقية والمظهر الكاذب كانوا يشكون في كل شيء حتى من أكثر التصرفات براءة ومن جميع أنواع الأعمال القائمة على أطهر الأحاسيس والافكار، ويحسبونها ضدهم، وينظرون إلى الناس بمنظار أحاسيسهم ومشاعرهم العقربية. صدورهم مملوءة بالخيانة لذا فهم في خوف دائم حسب قاعدة "الخائن خائف".

هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون لأهل الإيمان، وعلى المؤمنين –مع احتفاظهم بأسلوبهم الإيماني– ألا يقصروا في صيانة أنفسهم منهم وحمايتها".

وعندما يتناول المؤلف الآية التي تتحدث عن المرتدين يأتي بتحليل نفيس. والذي يقرأ هذه الآية قراءة سطحية قد يحسب أنه فهم مرادها ومعناها، ولكنه عندما يقرأ تحليل المؤلف وتفسيره يدرك أن هذه الآيات تحتوي على معانٍ أعمق مما كان يحسب. والآية هي آية:

﴿كَيفَ يَهدي اللهُ قَوماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾ (آل عمران: ٨٧) ويقول في تفسيره: "إن الذين يقفون بجانب الظالمين المؤيدين للكفر وللباطل مع أنهم

شهدوا ورأوا جمال الحق وقبح الشر وشناعته ليسوا إلا أشخاصاً منحرفين وظالمين. هؤلاء أفراد بؤساء انحرفت فطرتهم وتشوهت وفقدوا قابلية الإهتداء إلى درجة أن الله تعالى لا يجعل لهم نصيبا من الهداية ولا يهديهم إلى سواء السبيل. لا يهديهم لأن أمثال هؤلاء دخلوا في غمرة حركة مبتعدة عن مركز الإسلام، وفي حالة نفسية ترافق هذا الابتعاد وتتسم بمعارضة واتهام المركز الذي يبتعدون عنه، مما يؤدي إلى تعميق اسوداد قلوبهم. وهم يحسبون أنهم بعملهم هذا وإظهارهم المؤمنين –الذين يدعون أنهم يعرفونهم حق المعرفة لأنهم كانوا من ضمنهم– بشكل سلبي يقومون بخدمة الكفر والالحاد وتقوية روحه المعنوية، ويقومون في الوقت نفسه بإغراق المؤمنين في الهم والحزن.

غير أن الله تعالى الذي وهب للأسلام نورا متميزا هو كنور الشمس بالنسبة للأديان الأخرى سيجعل هؤلاء المبتعدين عن هذا النور في تيه دائم، لايهتدون إلى شيء أبدا وسيصرفون أعمارهم وحياتهم في هذه العماية لايجدون شيئا ولا يهتدون إلى أي شيء. وسيكونون أنموذجا سيئا للأفراد والجماعات الضالة".

أحيانا يقوم المؤلف بإيضاح مسألة قد يساء فهمها. فمثلا نعلم أن تبليغ الحقيقة للآخرين والقيام بنصحهم شيء أساسي في الدين، ولكن بعضهم قد يسيء فهم آية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ٩) ويقول: "لقد قمت بالتذكير فلم يفهموا ولم ينتفعوا... هم قوم لا نفع منهم، ولا أمل فيهم... إذن فنصائحي لا تنفعهم، والآية تقول بأن أنصح عندما تفيد هذه النصائح... إذن فلم يبق هناك شيء استطيع عمله". أمام هذا الفهم الخاطئ يقوم المؤلف بشرح القصد الحقيقي من هذه الآية فيقول بأن الأصل في التبليغ وفي الخدمة الإيمانية هو الثبات فيقول:

"ولكون الرسول ﷺ مكلفا بالتذكير والتبليغ دون قيد أو شرط فإن آية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا تفيد التقييد بل تفيد تأكيد هذه المهمة وهذا

التكليف، لأن هذا الكلام البليغ والقوي النازل والموحى به لا بد أن يكون له نفع حتى ولو بالقوة "أي بالاحتمال في المستقبل". أما استفادة السامعين له أو عدم استفادتهم فعليا فهو موضوع آخر. إذن نستطيع أن نقول استنادا إلى هذه الآية: انصح لأنه لابد أن تكون هناك فائدة من النصيحة".

ولا يسعنا ألا أن نشير إلى تفسيره لآية ترسم إطارا لحياة المسلم ولمفهوم عمله وراحته وهي آية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ حيث نراه يقول:

"تقدم هذه الآية الكريمة للمسلم فلسفة حركية مهمة ودستوراً للحياة. أجل يجب أن يكون المؤمن في حركة دائبة في كل حين. في حركة عندما يعمل، وفي حركة أيضا عندما يرتاح. وبعبارة أخرى عليه أن ينظم نفسه وفق خطة لايوجد فيها أي فراغ في حياته.صحيح إنه كإنسان يحتاج إلى الراحة، لذا من الطبيعي أن يرتاح. ولكن يجب أن تكون حتى هذه الراحة راحة نشطة وأيجابية فمثلاً من يتعب من القراءة والكتابة يستطيع أن يرتاح بالنوم أو بتغيير وتبديل الجو كأن يقرأ القرآن أو يصلي أو يلعب الرياضة أو يتسامر أو يمزح مع الآخرين المزاح المقبول شرعا... الخ. وعندما يتعب من هذا يرجع مرة أخرى إلى القراءة. أي يكون في حركة مستمرة ودائبة يترك مشغلة من المشاغل لمشغلة أخرى. أي يستريح وهو يعمل، ويعمل وهو يستريح.

وإذا قمنا بتقييم هذه المسألة في إطار الخدمة الإيمانية يمكن القول بأننا كمؤمنين نكون -كما قيل على الدوام- ضمن ألطاف قسرية وجبرية. وحسب أسلوب الخدمة الإيمانية المقبول من قبل، والمطبق على الدوام نرى انعكاس هذا الدستور القرآني في حياتنا كمؤمنين دون أن نشعر. وفي السابق قام بعض أغنيائنا الباحثين عن الرضا الإلهي بالتبرع للطلاب الأذكياء من الفقراء وإسكانهم في الأقسام الداخلية خدمة للأمة. وبعد مدة شعروا بأنهم

قد أدوا مهمتهم وركنوا إلى الدعة وإلى مشاغل الحياة الاعتيادية فإذا بأبواب خدمات جديدة وواسعة تنفتح أمامهم وتدعوهم لتذوق أذواق أداء هذه الخدمات الرحبة. كانت القلوب المخلصة تتساءل بقلق: "أيمكن أن تنتهي هذه الآنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألاتوجد هناك ساحات أخرى وساحات أوسع؟" فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تنفتح أمامهم، وإذا بهم يتذوقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويترشفون كؤوسها مترعة. ثم فتح الله أمامهم ساحات خدمة بأبعاد ومناشط أخرى أيضا. والخلاصة أنه ما من عهد ظهر فيه ظن قاتل بأن الخدمات قد فرغت وإن أبوابها قد قفلت إلا وقيض الله تعالى أشكالا مختلفة من الخدمة في سبيله وفي ساحات مختلفة. لذا فللتعبير عن مثل هذا المعنى قلت باننا مجتمع "للالطاف الجبرية". إذن فنحن كمؤمنين وإن لم ننتبه إلى معاني ومحتويات الآية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ (الانشراح: ٧) إلا إنها تبدو وتظهر في حياتنا بشكل منتظم ومستديم.

وإذا دققنا النظر في أصل المسألة نرى أنه لايوجد في الحقيقة بديل عن هذا بالنسبة للمؤمن. فأولاً إن كل نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على المؤمن كبيرة جدا. فكوننا من البشر نعمة وكوننا في صحة وفي عافية نعمة أخرى. وكوننا نشعر ونحس بهذه النعم -نتيجة إيماننا- نعمة متميزة. أي كل شيء نعمة: أكلنا وشربنا... انتظارنا للحياة الأبدية... انتظارنا للنعم الأبدية نعمة... كل شيء... كل شيء في الحقيقة نعمة. ولكن الإلفة والعادة تنسينا قدر وقيمة كل هذه النعم. لذا لا نؤدي شكرها كما يجب. كل هذه النعم في كفة وهناك نعمة أخرى لا نلتفت إليها وهي: عندما ندير أنظارنا فيما حولنا نجد وجود حروب ساخنة في العديد من الأماكن، ونرى الآلاف من الأشخاص يبكون ويعانون من هذه الفواجع، ونرى المسلمين في العديد من البقاع يتعرضون للظلم، ولقهر واستبداد الحكام الذين لا يكفون عن ظلم المؤمنين. وبينما تجري هذه الحوادث المفزعة حوالينا نستطيع نحن

أداء واجباتنا وأداء الفرائض بحرية دون التعرض للظلم والاهانة. هذا طبعا بالنسبة لحالنا في الماضي وبالنسبة لكثير من البلدان الإسلامية. أليس هذا الأمر نعمة كبيرة؟ أولا يستوجب هذا الشكر؟ إذن يجب أن نسرع من عمل إلى آخر، وأداء واجباتنا -ضمن منظومة الخدمة الجماعية- دون كلل أو ملل، والاستمتاع بتذوق اللذة المعنوية والروحية ونحن نؤدي هذه الخدمات.

أجل ليس من حق المؤمن القول: "لقد أديت ما عليّ و لم يبق أمامي عمل شيء آخر"... لا يجوز له أن يقول هذا وينسحب من الميدان للراحة والدعة. وظيفة المؤمن بعد قيامه بإتمام عمل خيري المبادرة إلى عمل خيري آخر. عليه أن يرتاح بالعمل، وإن تكون راحته مقدمة لعمل آخر، وأن يعيش اليسر في العسر، وإن يقيم اليسر والعسر في اتجاه المشاعر الميتافيزيقية، وإن يتصرف على ضوء أن العالم المادي يكمل العالم اللامادي، وأن العالم اللامادي يكمل العالم المادي، فيعيش كإنسان لم يدع هناك أي فجوة في حياته".

وكما يفهم من هذه الاقتباسات فهذا الكتاب مملوء بالتوجيهات التي تغني حياة المؤمنين وتملأها حركة وفعالية. علما بأن أهم أساس من أسس التفسير هو مفهوم "التفسير الديناميكي" الذي اهتم به المفسرون من أمثال الأستاذ سيّد قطب والاستاذ أبو الأعلى المودودي. لأن القرآن الكريم ليس بكتاب دين بعيد عن الحياة وعن الحركة والنشاط الذي تزخر بهما الحياة. بل كتاب يهدف إلى تطبيق تعاليمه في هذه الحياة، وهو كتاب يتجاوب مع الحياة ومع الأحداث تجاوبا متقابلا، ونـــزل منجما وعلى مراحل لكي يقود هذه الحياة.

نضطر هنا إلى التوقف عن الاقتباسات التي قمنا بها بهدف التعريف بهذا الكتاب، لكي لا ننقل معظم الكتاب. وقبل اختتام هذه المقدمة نود الإشارة إلى أن المؤلف مع رغبته بتجنب استعمال المصطلحات الفنية للتفسير، ومحاولته تبسيط المواضيع قدر الإمكان بأسلوب سهل وواضح، إلا أن بعض

القراء قد يجدون صعوبة في فهم بعض المواضيع. لذا ننصح مثل هؤلاء القراء إعادة القراءة بتمهل ودقة. أو الاستعانة بمعجم أو بشخص له إلمام بهذه المواضيع. فإن لم يفد هذا أيضا، فهم مثل شخص دخل بستانا يحوي أشجارا مثمرة عديدة فتناول منها ما أشبعه، ثم قال: "ليس من الضروري أن أقطف وآكل كل ثمرة هنا... حسبي هذا، وليأكل غيري من الثمار التي لم أصل إليها". لأن "فوق كل ذي علم عليم". والله أعلم.

ولا يدعي المؤلف أي ادعاءات طويلة بكتابه هذا فهو يقول: "إن تفسير القرآن بالتفصيل يحتاج إلى مجلدات عديدة، بينما لا يقدم هذا الكتيب إلا نظرات مختصرة ذكرناها بشكل ارتجالي وسطحي في بعض مجالسنا حسب ورود المناسبة، هذا علاوة على أن هذه النظرات تعود لشخص تبهت أجمل الحقائق عند تناوله إياها."

ومع أننا نكبر تواضعه هذا إلا أننا نقول استنادا إلى ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ: "إلا فهما يؤتاه الرجل في القرآن". إذن فإن من وظيفة كل مؤمن أن يفهم القرآن فهما خاصا به بشرط أن يكون عالما بشروط علم التفسير وأسسه وقواعده. ونحن إذ نهنّئ المؤلف الكريم على جهده ونجاحه في نظراته لمعاني القرآن، ندعو له بالصحة والعافية، وأن يوفقه الله تعالى في خدمته العلمية للإسلام، وأن يجزيه رب العالمين وصاحب الكرم والجود خير الجزاء على مؤلفه هذا، وأن يوفق المسلمين للاستفادة منه.

أ.د. **سعاد يِلدرم**

جامعة مرمره – إسطنبول/تركيا

مقدمة المؤلف

القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن. وعندما يتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال داخل صدفة لامعة، يرى فيه أبطال البلاغة والأدب جمالا لا يبهت، وحسنا لا يزول. وسيبقى هذا الكون الكبير -الذي هو معرض للجمال والفن والألوان الإلهية المتناسقة والمتناغمة- موطن الخوف والرعب تجول فيه العفاريت والأرواح الشريرة، مع أنه -أي الكون- يعد كتابا يفشي كل سطر فيه سرا من أسرار الملأ الأعلى، وستبقى سطور هذا الكون وأوراقه مبعثرة ومشتتة حتى يأتي اليوم الذي يتحول فيه القرآن إلى نور ينهمر على وجه هذا الوجود. ويُجمع الناسُ -عدا أصحاب الفكر التقليدي- أنه عندما أشرق القرآن كشمس ساطعة زالت الغيوم السوداء التي كانت تجثم على الدنيا، وظهر الوجه الضاحك للوجود، وانقلبت جميع الأشياء إلى فقرات وجمل وكلمات لكتاب مؤنس ومبهج لقارئه. عند سماع صوته انهمرت الأنوار على عيون القلب، وبدأت المشاعر التي فارت في الأرواح، والألسنة التي أصبحت ترجمانا لهذه المشاعر بإنشاد أناشيد النور.

أجل!... فاعتبارا من اليوم الذي أضيئت به العيون والقلوب، كم من لغز في الكون كان ينتظر الحل منذ آلاف السنوات، وكم من مشاكل معقدة متداخلة بعضها مع البعض الآخر كانت تنتظر الحلول حلت الواحدة منها إثر الأخرى، وظهرت العلاقة الصحيحة بين الإنسان والوجود والخالق واضحة وضوح البدر التمام، ولبست كل الألغاز والمعميات لباس المعاني وانتظمت في مدارات الحكمة.

القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلاما، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي كل حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح. عرفه من قبله بصورته التي بشر بها الأنبياء، وعرفه الذين جاءوا من بعده بصورته المنـــزلة الملموسة، ورأوا التأثير الكبير الذي أحدثه، والانقلاب العظيم الذي حققه، فانحنوا أمام بلاغته التي لا تضاهى، واعترفوا بأنه سلطان الكلمة والإعجاز البلاغي. وعندما كان القرآن يتنـــزل إلى الدنيا بموجات مختلفة من الأنوار لم يصرف أصحاب القلوب النيرة نظرهم عنه أبدا، ولم يلتفتوا عنه، بل ارتبطوا به بكل جوارحهم وأرواحهم... أجل!... بينما كان ينـــزل من السماء كشلال ليملأ القلوب العطشى، فتح أصحاب القلوب الواعية صدورهم له ولم يضيعوا قطرة واحدة منه.

استطاع هذا القرآن أن يوصل صوته إلى أبعد زاوية من زوايا الدنيا في قفزة واحدة، وأن يسكت كل أصوات الشؤم، وأثار في كل قلب يبتغي الحق ولا يملك فكرا مسبقا عواطف جياشة كأنها أصوات خرير الكوثر، وأطفأ في القلوب التي فتحها نيران الهجر، وفجر في كل روح أمل الوصال والشوق إليه. الطبائع الباردة تحرك فيها نبض الحرارة، أما القلوب المتولهة بحب الأبدية والخلود فقد أنست به وأطمأنت إليه.

وإذا كان هناك من بقي جديدا ونضرا على الدوام في هذه الدنيا الفانية التي يقدم فيها كل جديد ويبلى فيها كل نضر، ويبهت فيها كل لون، فهو القرآن. فهو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يقف منذ نـــزوله في وجه جميع الأعاصير والعواصف التي هبت، والأمطار والثلوج التي سقطت، وفي وجه جميع الظروف القاسية التي ظهرت وبدت أمامه، واستطاع أن يحافظ على أصله ككتاب سماوي وحيد دون تغيير أو تحريف. لذا فما أن يرتفع

صوت القرآن من حنجرة قارئ حتى نشعر وكأنه نــزل الآن من السماء وكأننا مدعون إلى وليمة الهية آتية من الجنة، وعندما ينثر اللآلي تشعر القلوب المؤمنة أنها قد سمت واستغنت عن جميع ثروات الدنيا. القرآن قلادة بيان منظومة من الكلام الإلهي، وفيض من العلم الذي يشكل الحدود النهائية للإدراك البشري، وخارطة لكل الوجود مرسومة ومزينة ومحاكة بالحرير اللاهوتي. عندما يسمع صوته في أي بقعة يبدو كل كلام وكل تعبير آخر نوعا من الضوضاء لا غير. وفي البقاع التي ترتفع فيها أعلامه يغمر النور قلوب المؤمنين، وتنــزل الحجارة على رؤوس الشياطين، ويعيش الربانيون هناك أعيادا دائمة.

ربط الله تعالى رب العالمين ذو القوة المتين سعادة الدارين بإرشاده وتوجيهه. فلا يمكن الوصول إلى الهدف من دونه، ومن يستغنِ عن إرشاده ووصاياه ولا يلتجئ إليه يَضِعْ في الطرق ويَتِهْ. هو آخر وأكمل كلام يهدي من اتبعه وسار في إثره، ويوصله إلى الغاية والهدف. ومع أنه يُتلى بكل سهولة صباح مساء فلا يُستطاع الإتيان بمثله. ومن يستمع إليه بأعماقه يشعر أنه قد سمع كل ما يجب سماعه، وأصوات هؤلاء تتداخل على الدوام مع أنفاس الملائكة.

حتى نــزوله وتشريفه للأرض كان كل نبي يشعل مشعل الهداية التي يحملها من مصدر نوره وضيائه، وحول الصحارى القاحلة حوله بقطرات قليلة منه إلى جنان وارفة الظلال.

بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظله أصبحت عصورا ذهبية. اما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفا عنده.

من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء، ومن تنور

بنوره تتحول الشمس تجاهه إلى مجرد شمعة. أنفاسه التي نشعرها في أعماق قلوبنا تحيينا، وضياؤه الذي يغمر الأشياء يجعل كل موجود برهانا للحق تعالى. من يصله صوته -وإن كان في أبعد أرض وأخفاها- تدبّ فيه الحياة وكأنه سمع صور اسرافيل. والقلوب التي تستمع لصوته وبلغته الخاصة به تتوثب حركة ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٠). أجل هو بصائر ورحمة للذين لم تمت قلوبهم.

لم يكن القرآن في أي يوم من الأيام -مثل غيره من الكتب- كتابا بقي ضمن اطار زمن أو مكان معين من طفولة الإنسانية. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة، وتلبي جميع المطالب الإنسانية بدءً من العقائد وانتهاءً بأصغر الآداب الاجتماعية. وهو يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع المتحديات.

قام في العهد الذي نـــزل فيه بمواجهة جميع اعتراضات مخاطبيه، وتحداهم أن يأتوا بكتاب، أو حتى بسورة أو بآية من مثله. ذُهل منه المعارضون الأولون له، وسُحروا من بيانه ومن بلاغته، حتى اتهموا الرسول ﷺ بأنه ساحر، وأنه شاعر. وإزاء أخباره الغيبية التي أتى بها من وراء الأستار فقدوا صوابهم فقالوا عنه إنه كاهن، ولكنهم عجزوا تماما عن الإتيان بمثله. أي إن أبطال الشعر والنـــثـــر والخطابة وأعلامها من معارضيه اضطروا إلى الصمت والخرس والانسحاب إلى جحورهم. أما منكرو هذا العصر المعاندون فعلى الرغم من توارثهم روح المعارضة والإنكار من هؤلاء السابقين، إلا أنهم على الرغم من أنواع الديماغوغية والديالكتيك وجميع أنواع المجابهة والاعتراض لم يستطيعوا انجاز شيء خارج إظهار العجز والغضب. تغير الزمان وتعاقبت العصور واختلفت القناعات ووجهات النظر، وحميت حدة المعارضة والصراع، ولكن القرآن لا يزال واقفا كالطود الشامخ وكالبحر الواسع وكالسماء التي لا تحدها حدود تجاه جميع المعارضين وتجاه جميع الاعتراضات. وهو مستمر في بث

روعه وروعته في القلوب، وفي هداية العقول. منذ نـــزوله قبل أربعة عشر قرنا وتربعه على عروش قلوبنا تقلبت عهود كثيرة ظهر فيها العديد من مشاهير البلغاء، ومدارس فكرية عديدة، ونظم عديدة وفلسفات مختلفة. وقد حاول العديد منها هدم القرآن واستعملوا لهذا الغرض كل ما لديهم من وسائل ومن سحر الكلام من بيان ومن بلاغة لهدم القرآن، وخاضوا على الدوام غمار الحرب معه، ولكنهم غُلبوا على الدوام وارتدوا على أعقابهم خائبين أمام الأسس القوية المتناسقة والمنطقية التي وضعها للكون وللوجود وللانسان، والإيضاحات العميقة لهذه العلاقات. أجل لقد أتى القرآن بنظرة متميزة للكون وللأشياء وللإنسان باسلوب غاية في الروعة والسحر. لأنه يتناول الإنسان ككل ضمن الوجود بأكمله، ولا يهمل أي شيء، بل يضع كل شيء مهما كان صغيرا في مكانه المناسب. الأجزاء فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا ودقيقا بالكل... والأجوبة المختلفة عن أدق الأسئلة التي تخطر على بال الإنسان في هذا المعرض الكوني الهائل ترد فيه. وبينما يعمد إلى تحليل أدق المسائل الموجودة سواء في عالم الشهود أم فيما وراء الأستار حتى أدق تفاصيلها، لا يدع هناك أي تردد أو شبهة أو علامة استفهام في العقول... أجل! إن القرآن في جميع هذه التفاصيل الدقيقة التي يوردها لا يدع أي ثغرة يؤتَى منها لا في العقول ولا في القلوب ولا في المشاعر ولا في المنطق، لأنه يحيط بعقل الإنسان وبأحاسيسه وبمشاعره وإدراكه بشكل يجعل الإنسان وهو تحت تأثير هذا العشق يكاد يخرج من هويته الإنسانية سامياً إلى الذات العلية. ومثل جميع السائرين في الطريق إلى الله تعالى ينتقل من الدهشة إلى الذهول ومن الذهول إلى بحر من العواطف المتلاطمة التي تجعله ينحني من الخشية وهو يقول ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف: ١٠٩). إذن فهذا هو القرآن... المفتاح الذهبي لخزائن الكلمات التي لا تنفد ولا تنتهي، والإيمان هو شفرات أو أسنان هذا المفتاح السحري. ولا أعتقد أن من يملك مثل هذا المفتاح وهذه الشفرات

سيحتاج إلى أي شيء آخر بخصوص مسائل القواعد والأسس العامة المتعلقة بالإنسان والوجود والكون.

ولا يتوهمن أحد أنني بكلماتي العاجزة آتٍ بمديح للقرآن، فمن أنا لكي أمدح القرآن!!

وكما قال الشاعر:

من يستطيع وصفه سوى الله الوصّاف

الملائكة الكرام المصطفون صفا صفا

يصفونه ويعظمونه حتى تحسبهم في طواف

وقد يظهر من لا يستطيع رؤية هذه الميزة الخارقة في بلاغة وجواهر كلامه، ولكن من الواضح أن كل من يسأل ضميره يعلم أنه لم يخطئ في أي وقت في اعتقاده بإعجازية القرآن البلاغية، ولا سيما إن أجال ناظريه وشاهد التأثير العالمي للقرآن.

لقد أحدث القرآن في اول عهده بالنـــزول وأول عهده بتشريفه الدنيا تأثيرا لا يمكن تصوره في الأرواح وفي العقول أيضا، بحيث أن درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا نحتاج معها إلى ذكر أي نوع آخر من معجزاته. ولا يمكن العثورعلى أي أمثال لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة. وحتى اليوم فهو ما يزال ينير قلوب المتوجهين إليه الناهلين من نبعه، ويهمس في أرواحهم أسرار الوجود. والذين يدعون أنفسهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم وقلوبهم وقابلية إدراكهم تسبح في جوه الذي لا مثيل له سرعان ما تتغير عواطفهم وأفكارهم، ويحس كل واحد بأنه قد تغير بمقياس معين وأنه أصبح يعيش في عالم آخر. أجل! ما

أن يتوجه إليه الإنسان من كل قلبه، حتى لا يستطيع بعد ذلك الخلاص من تأثير سحره وجاذبيته. إن القرآن يتناول الطالب الذي جذبه نحوه فيعجنه ويشكله من جديد ويجعل منه شخصا آخر تماما... شخصا رقيقا ذا حساسية مرهفة، إلى درجة أن الإنسان يتأكد بأن أي تغيير لا يكون إلا به، بل يمكن في أحيان كثيرة تحقيق العديد من الأمور والتي كان يخيل من قبل أنها مستحيلة التحقيق، حيث تتحول هذه الأمور في ظله إلى حالة اعتيادية مما يُذهل الجميع. والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لله الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ (الرعد: ٣١) لأنه أجرى في القلوب والعواطف والأحاسيس وفي العقول تأثيرا بالغ المدى بحيث أن هذا التأثير لا يقل غرابة عن تسيير الجبال أو عن تقطيع الأرض أو تكليم الموتى، أو عن إحياء أجساد بالية منذ آلاف السنين.

كان كل صحابي بطلا في عالم القلب والروح، وكان مجتمع الصحابة مجتمعاً متميزا مباركا نشأ في ظل فيض القرآن وبركته. واستطاع هؤلاء الصحابة اجراء تأثير عميق وكبير على قسم كبير من العالم، حتى إن عملهم هذا ما كان يقل من ناحية الروعة والخارقية عن قلع الجبال عن أماكنها أو سقي الأموات ماء الحياة أو ربط السماء بالأرض. وما كان هناك أي مجتمع آخر يمكن مقارنته بمجتمعهم الفريد هذا. فهؤلاء الصحابة الذين عجنوا بروح القرآن وتشكلت أنفسهم حسب مبادئه السماوية، أي أصبحوا من ناحية الروح والمعنى ترجمانا للقرآن، استطاعوا تحقيق المستحيلات وفتحوا به طرق الخلود أمام الأرواح الميتة، وغيروا وجه الدنيا، ونقلوا الإحساس بلذة عالم الروح إلى المجتمعات التي احتكوا بها وتعرفوا عليها، وكسروا الأقفال الموجودة على الأفكار وفوق الأفواه، ورفعوا الإنسان مرة أخرى إلى المرتبة الرفيعة التي رفعه الله إليها وشرفه بها، وقدموا نظرة جديدة وتفسيرا جديدا لموقع الإنسان في الكون بين الموجودات، وركزوا الأنظار على السر العميق الموجود بين الأوامر التكوينية وبين القواعد الشرعية، شارحين وموضحين

الغاية والحدود النهائية للقلب والإرادة والأحاسيس والمشاعر، ومحركين وباعثين أصول وأسس القيم الكامنة والنسبية الموجودة في روح الإنسان، لكي يوجهوا الإنسان العادي إلى طريق الإنسان الكامل، فنجحوا في جعل الإنسان يحس في كل ما يقع بصره عليه أو يصل إليه بأحاسيسه، أو يحس به في قلبه أصابع الإرادة والقدرةالالهية اللانهائية، أي ربط كل شيء وإرجاعه إلى صاحبه الأصلي.

إن كان المؤمن مرتبطا بهذا المقياس بقلبه وروحه وبمشاعره وبأفكاره وبعقله بالله يكون قد ابتعد تماما عن سطحية الارتباط بالجسد وبمطالبه، وينظر إلى الحياة من زاوية أخرى ويرى لها طعما آخر، أي ينتبه إلى ما وراء افق هذه الحياة. ومثل رجل الحقيقة هذا يرى ويشاهد في كل شيء في هذا الوجود العلم الإلهي مرفرفا عليه، ويد القدرة عاملة فيه، فيحس برجفة، وتتداخل في نفسه مشاعر الأمل والقرب مع الخشية والرهبة. ومع كونه يعيش في الدنيا إلا أنه يحس وكأنه في ذروة من ذرى الآخرة. عندما يأخذ نفسا يحس بالأمل والترقب، وعندما يعطي نفسا يحس بالمخافة والمهابة. ويتجول دائما في الساحة التي رسمها القرآن ويعيش حياته في ظلال القرآن وألوانه.

إيضاح القرآن ضمن هذا الإطار بالأمثلة يحتاج إلى مجلدات. بينما ما حاولنا تقديمه في هذا الكتيب مجرد مقتطفات من الأجوبة الارتجالية على الأسئلة التي طرحت في مجالس ومسامرات مختلفة وحسب مناسباتها. ولا نكتم هنا أن هذه الأجوبة صدرت من شخص تبهت في شروحه جميع الأفكار والأحاسيس مهما كانت رائعة وسامية.

أعتقد أن العديد من الحقائق السماوية ربما لبست هنا لباسا أرضيا. لذا كان على كل من قرر صرف بضع ساعات مع القرآن بقراءة هذا الكتاب أن يضع هذا نصب عينيه لكي لا تهتز مهابة القرآن في ذهنه. ومع أن هذا

العمل والجهد حاول أمرا مستحيلا، لأنه يشبه محاولة شرح البحر بقطرة واحدة، أو إراءة الشمس بذرة واحدة، إلا أننا نقول بأن لحن ناي من قبل راعي غنم قد يجد له مكانا في عالم الموسيقى مهما كان متواضعا. لذا نتمنى أن تحوز هذه السطور -التي يمكن أن تصدع الرؤوس- بعض القبول.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا

وصلى الله على سيدنا المُقتدى وأصحابه ذوي القَدرِ والتقى.

مدخل

يوجه القرآن خطابه للإنس وللجن أجمعين. يأمرهم وينهاهم ويضع بعض المحرمات أمامهم، وينقل كلامهم وكلام الشياطين. وهو في كل هذا معجز على الدوام. ولا يكمن إعجاز القرآن هنا في مجرد النقل، بل في كيفية هذا النقل، والعناصر والصور والنقوش التي يستعملها ويختارها. والناحية الإعجازية الأخرى فيه هي أن هذه الأخبار التي ينقلها غيبية.

أجل! فقبل كل شيء فإن اختيار القرآن للعناصر والأدوات اختيار رائع وخارق للعادة. ثم إن القرآن يستعمل هذه العناصر والأدوات في اسلوب مختلف معجز لا يمكن الوصول إليه ولا حتى مقاربته. اُسلوب يخرج عن طاقة الإنس والجن. ولكن لكي ندرك هذه الناحية علينا النظر إلى آيات القرآن نظرة واسعة وشاملة، ولكي نوضح هذا الإعجاز علينا إعطاء بعض الأمثلة وبعض التفاصيل:

كثيراً ما نحس بأحاسيس ومشاعر في أعماق أرواحنا، ولكننا نعجز عن التعبير عنها، عند ذلك نئن تحت ألم العجز ونقول كما قال الشاعر "محمد عاكف":

أبكي وأنوح... ولكن لا أستطيع إثارة البكاء!

أحس بالألم... ولكن لا أستطيع بث لواعجي

آه من قلبي الأخرس!... كم أشكو منه!

أجل! هناك العديد من الأشخاص الذين لا يستطيعون التعبير بدقة عن

أحاسيسهم العميقة عندما يتحدثون أو يكتبون فيطوون قلوبهم على آلام هذا العجز... وهذا العجز قد يكون عجزاً نسبياً أو مطلقاً لمن لا يستطيع التعبير بكل سهولة ويسر عن كل شئ، ويظهر هنا في الجهة الأخرى الإعجاز النسبي أو المطلق كذلك. فإن كان هناك إعجاز مطلق فهو خاص بالقرآن الكريم فقط.

فإن تناولنا القرآن من هذه الزاوية نستطيع أن نقول: "سواء أتكلم القرآن بلسان الشيطان أو الجن أو الملك أو فرعون أو نمرود أو شدّاد فإن الأسلوب المستخدم في البيان والإفصاح يعود للقرآن تماماً. وهذا الأسلوب خارق للعادة إلى درجة أن بابه يظل مفتوحاً لجميع المعاني الإشارية والرمزية، ويكون صالحاً لتفاسير واسعة، ولا يوجد أي بيان آخر يستطيع التعبير عن غايته بهذا الأسلوب ولا استعمال مثل هذه الأدوات والعناصر والصور والأشكال بهذه الروعة المعجزة.

نستطيع -إن أحببتم ذلك- تناول الموضوع من زاوية مختلفة:

لكل كلام توجهات مختلفة نحو اللطائف الربانية في الإنسان كالقلب والسر والخفي والأخفى، حيث يستهدف الوصول إلى هذه اللطائف. فإن كان فيه تناقضات بين هذه المراتب من ناحية المعنى دل ذلك على نقص في هذا الكلام. وهذا النقص موجود -بنسب مختلفة- في البيان البشري بأجمعه. أما القرآن فبريء من مثل هذا النقص ومنــــزّه عنه.

وهنا يرد شيء آخر كذلك، وهو إن كانت المعاني الواردة إلى القلب قد نخلت وصفيت من خلال التخيل والتصور والتعقل وحافظت على نفسها ووصلت إلى مرحلة اللفظ والإفصاح عُدّ هذا بياناً ممتازاً. أحياناً لا يستطيع الكلام تجاوز هذه المراتب دون تغيير وتبديل، فيبقى في إطار الحديث للنفس، وتفوته فرصة الوصول إلى مرحلة اللفظ والتعبير الخارجي. أما تعبير علام الغيوب -الذي يعلم السر وأخفى- عن هذا الحديث النفسي الصامت فمسألة

أخرى لا نريد الخوض فيها، لأننا نريد هنا الاقتصار فقط على الكلام الملفوظ: إن كان الكلام قد أُستُطيعَ التعبير عنه كما تم تخيله، أي إن كانت النية وإرادة التعبير متناغمة مع التعبير فمثل هذا الكلام كلام تام وكامل. فإن كان العكس، أي إن لم يستطع التصور احتضان التخيل بشكل كامل والإحاطة به، عدّ هذا التعبير أقل مرتبة من التعبير السابق. فإن لم تستطع ملكة التعقل التعبير عن المعاني المحملة عليها فهذا يعني أنها فقدت بعض أعماق التصور والخيال. وهكذا فالكلام الذي يفقد الشيء الكثير بالنسبة إلى مستوى الخيال الرفيع عند مروره من هذه المراحل والمراتب يُعد كلاماً ناقصاً. أما الكلام الذي يستطيع التعبير عن معاني صاحبه ومفاهيمه ونيته بعمق فهو الكلام الكامل التام. والمثال الرائع الوحيد لمثل هذا الكمال هو القرآن الكريم. لذا يجب البحث عن هذا الكمال في محافظة القران على عمق الخيال والتصور عند قيامه بنقل الكلام عن أي كائن.

وما من أحد يستطيع الإتيان بهذا بمثل هذا الكمال وبمثل هذه الروعة. أجل فما من أحد -سواء أكان ذلك إنساً أم جناً أم ملكاً- يستطيع اصطياد المعاني وهي في مرحلة التخيل والنية، ثم نقلها إلى مرحلة التعبير بمثل هذا الكمال. أي أننا لا نستطيع أبداً النجاح في تحقيق هذه المقاييس في الكلام والبيان. إذن فالبيان القرآني الذي حقق هذه المقاييس بدرجة الكمال بيان يعجز عنه الآخرون، أي هو بيان معجز وإلهي.

سورة الفاتحة

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]

كما نعلم جميعاً وكما ورد في جميع التفاسير فإن مضمون النكتة هنا من تقديم المفعول به هو باختصار: اللهم إننا لا نقر ولا نعترف إلاّ بألوهيتك ولا نذعن لأحد سواك. ولا نجد الاطمئنان والسكينة والسلوى إلاّ عندك.

والنكتة الأخرى التي تستحق التسجيل هنا هي أنه عوضاً عن استعمال صيغة الماضي "عبد" وردت صيغة المضارع للفعل نفسه "نعبد". لأن صيغة الماضي تتضمن معاني أمثال: عبدنا... صلينا... فعلنا كذا وكذا... أي هناك بعض معاني الغرور التي لا تتناسب مع روح العبادة والعبودية.

أما في صيغة "نعبد" فلا توجد أي إيماءة لمثل سوء الفهم هذا، لأن فعل "نعبد" يشير إلى عجز الإنسان وفقره أمام الحضرة الإلهية العظمى ودوام معرفة هذا العجز وهذا الفقر، ونستطيع تلخيص ما يريد أن يقوله الإنسان هنا هكذا:

"يارب!... لقد عقدت العزم على ألا أضحي بحريتي ولا أذل نفسي لأي أحد سواك. لذا فأنا أتوجه اليك وإلى بابك بملء نفسي بنية العبودية والذل، وأقبل على عبادتك وإطاعتك بنفس ملؤها الشوق والوجد، عاقداً العزم على تجنب معصيتك وكل ما لا تحبه وما لا ترضاه... نيتي هي أكبر وأفضل من عملي، وأنا أتضرع اليك أن تقبل نيتي عملاً عندك! عملاً بمقياس ما أنوي عمله وليس بمقياس ما عملته يارب!..."

ثم إنه يؤكد بأنه ليس وحده في معرض هذا الرجاء والتضرع، بل يقول إن إخوانه يشتركون معه في هذا الرجاء والتضرع، أي يعرض هنا حسن ظن واسع وشامل. وفي الوقت نفسه يضم تأييدهم واشتراكهم إلى جانبه فيضمن اتفاقاً وإجماعاً لا يمكن جرحه وهو يتوجه إلى باب قاضي الحاجات، فيتخلص من وساوس الشيطان ويعطي صورة كاملة للعبودية الكاملة تجاه الألوهية الكاملة والمطلقة.

سورة البقرة

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]

كلمة "هدى" الواردة في الآية الكريمة هي بصيغة المصدر، وتحمل معنى أن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى الهداية وإلى الهدف المنشود وراءها دون جهده الخاص، وبتعبير آخر فإننا إن أخذنا التنوين أيضاً بنظر الاعتبار نعلم بأن هذا الكتاب -الذي لا توجد فيه ذرة واحدة من الشك والريبة- هو مصدر الهداية للمتقين... للمتقين فقط، لأن نفوسهم خلت من الشبه والريب، وتوجهت قلوبهم وأرواحهم لتقبل الحق ورعاية سنن الفطرة الإلهية وشريعته الغراء، وصفت نفوسهم واستعدت لقبول الهداية والاستفادة منها دون أن يمنعهم عن ذلك أي فكر أو حكم مسبق.

ولكن كلمة "هدى" الموجودة في آخر الآية ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٥) مذكورة بصيغة المصدر، أي أن الله تعالى قد يتكرم على عباده بالهداية دون وجود علاقة السبب والنتيجة التي خلقها وجعلها من أسباب الهداية. وباب التقوى هو الباب الذي يوصل وينفتح على هذا الكرم والعطاء. والمرتبة الأولى لمثل هذه التقوى هي الإيمان والمعرفة الحقة، والمرتبة الأخيرة هي الوصول إلى مرضاة الله تعالى. وكما جاء في التصريح المختصر للآية لا يجد طريق الخلاص إلا من وصل إلى هذا المستوى من التقوى. ثم إنه على الرغم من سياق الآية وكون الهداية مرتبطة بايجاد الله تعالى لها فإن وصول الإنسان إلى الأمن والأمان وإلى الاطمئنان في الدنيا، وإلى الفلاح يوم القيامة يرجع بمقياس كبير إلى سلوكه وتصرفاته التي يبديها بإرادته الحرة.

اذن يمكن القول باختصار بأن كلمة "الهدى" الأولى سبب، وكلمة "الهدى" الثانية نتيجة مُضَمَّخَضة بعطر اللطف والإحسان، وكلتاهما جواب لدعاء "اهدنا" الوارد في سورة الفاتحة، وبيان كذلك لكيفية السلوك للموجودين على الصراط.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]

يرد في بعض التفاسير بأن ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ هو من باب "الجزاء من جنس العمل"، لكني أرى أن من الأفضل الاقتراب إلى معنى الآية هكذا:

ان الله زاد قلوبهم مرضاً لأنهم تلوثوا بالشرور والمعاصي في مستوى النية، وكلما وجدوا الفرصة مواتية حاولوا تحقيق نياتهم الشريرة هذه، وكلما زادت الأسباب زادت النتائج، وهذا يعني دخولهم داخل حلقة مفرغة. أي إنهم لم يستطيعوا تخليص قلوبهم من هذه النيات السيئة، بل لم يفكروا أصلاً بهذا، وهذه النيات السيئة ولّدت نيات سيئة أخرى، والأعمال التي بُنيت على هذه النيات أنتجت وولّدت أعمالا أخرى، وبالدخول إلى مثل هذه الحلقة المفرغة تم هلاك المنافقين. إذن فعندما نقوم بتفسير الآية ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ علينا أن ننظر إلى معناها كنتيجة طبيعية للدخول إلى هذه الحلقة المفرغة.

إن صحة البدن هي الأساس والقاعدة والمرض شيء عارض، كذلك فالفطرة السليمة هي الأساس، والمرض القلبي هو الاستثناء، لذا فمن لا يهتم بصحة قلبه وصيانته وتهيئة جميع الشروط المعنوية لوقايته، يدع هذه اللطيفة الربانية لقمة سائغة للفيروسات والجراثيم. ومع أن البداية قد تكون شيئاً صغيراً، فإن الانتقال من خطأ إلى آخر، ومن ذنب إلى ذنب، ومن معصية إلى اخرى، سيؤدي في الأخير إلى انفراج الزاوية، وإلى معاص كبرى تفوق حد التصور. أي يؤدي إلى كبرى المعاصي وهي الشرك بالله لأن هناك طرقاً عديدة مؤدية إلى الكفر.

إن كان فساد العقيدة أو التقلب بين الشبهات والريب هو مرض المنافقين، فهذا يعني في الوقت نفسه وجود قابلية كامنة للكفر والالحاد. فإن

لم تتدارك العناية الإلهية هذا المرض، و لم تتكسر الحلقات الموصلة من المعاصي إلى الكفر، فإن المعاصي بتزايدها أضعافاً مضاعفة قد تؤدي إلى الكفر. بل يحدث أحياناً أنَّ الإنسان عندما تحيط به الشكوك والريب قد تكون سبباً في قطع الخط الموصل بينه وبين الله فيزداد إرتيابه في كل شيء ويحسب أنه هو وجميع الناس في هذا الشك سواء فيظلُّ يتلوى في أجواء هذا الشك أضعافاً مضاعفةً. أنه عندما تحيط به الشكوك والريب في الخط الموصل بين الله وبين نفسه، ويرتاب في كل شيء ويقيس الآخرين على نفسه، لذا يعيش متقلبا في شبه وشكوك وتردد في مستوى الإلحاد... يعيش هذا في نفسه ويتوهم أن الآخرين أيضا مثله دون إيمان ودون إذعان ولا يمكن الوثوق بهم أو الاعتماد عليهم... أي يعيش في عالم صنعه خياله المريض ووهمه، وينتهي به الأمر بالانسحاق تحت هذه الأمراض.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ [البقرة: ١٧]

تصور هذه الآية الكريمة العالم الداخلي وتبرزه أمام الأنظار بمثال ملموس ومشاهد.

فنظراً لكون المنافقين يعيشون بين المسلمين ويختلطون بهم لذا يتيسر لهم أحياناً لمحة من نور الإيمان. ولكن النفاق المتغلغل في قلوبهم ورؤوسهم يمنعهم من الاستفادة من هذا النور.

أجل! إن هؤلاء المنافقين قد انقلبوا إلى وضع لا يبصرون مع أن عيونهم مفتوحة، إما بسبب عدم الاهتمام بنور المشعلة التي يحملها الرسول الأكرم في يده أو الإستهانة بها، أو بسبب إفساد استعداداتهم الفطرية. ولكنهم مع هذا يواجههم نور المشعلة الذي يأخذ بالأبصار، وبدلاً من النظر إليه بعين الإيمان نراهم يسارعون بشكوكهم وترددهم بطمس القوة النابعة في أرواحهم ويزيلون تأثيرها. حتى إن كلمة "استوقد" تشير إلى أنهم كانوا يخططون لكيفية قلب هذا النور إلى نار محرقة بدلاً من الاستفادة منه في قطع الطريق.

أما الكفّار فلم يتعرفوا على الإيمان وعلى النور المنبعث منه أبداً... لم يروه أبداً، ولم يدخلوا في جوه القدسي. لذا عندما أحس الكافرون -لهذا السبب أو ذاك- بهذا النور في وجداهم "باستثناء المعاندين منهم" حاولوا التمسك به وقضاء بقية حياتهم كمؤمنين مخلصين. ولا شك أن للفرق بين النور والظلام وبين الإيمان والكفر دوراً كبيراً في هذا. فالذين كانوا يرون من قبل أشياء أخرى عندما رأوا هذا النور دخلوا إلى عالم جديد...

عالم يحف به جمال الإسلام وجاذبيته. لهذا عندما نقارن بين تدين الذين يسمعون عن الإسلام ويتعرفون به للمرة الأولى ويؤمنون به ويعيشونه، وبين تدين المسلمين المولودين في البلدان الإسلامية -إلا القلة منهم- يفهم بشكل أوضح صحة ما قلناه أعلاه.

﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨]

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١]

إحدى الآيتين متعلقة بالمنافقين والأخرى بالكفار. وكما هو مشاهد هنا فهناك قاسم مشترك بين المنافقين وبين الكفار في موضوع التعصب وعدم التحمل وعدم اللين، وفي زاوية النظر والفكر الباطل. لذا يوصف كلا الطائفتين بأنهم صم بكم وعمي. ولكن الأسباب بين الفريقين مختلفة حسب الآيتين. فالسبب في الآية الأولى يرجع إلى عدم رجوعهم إلى فطرتـــهم الأصلية السابقة، أما السبب في الآية الأخرى فيعود إلى عدم استعمالهم لعقولهم. والعنصر المشترك الذي يجعلهم صماً بكماً وعمياً هو عدم اهتدائهم إلى الخالق جل شأنه بقراءة كتاب الكون الموضوع أمام أبصارهم وأعينهم كمعرض الهي بديع، وعدم قيامهم بتقييم هذا الكتاب حق تقييمه ولا بتدقيق الوجود والحوادث ودرسها وأخذ العبر منها، وعدم إعارة سمعهم للكتب المنـــزلة ولصوت وجدانهم وضمائرهم. ولو أنهم قاموا بهذا لأسرعوا كالمؤمنين إلى شهادة "لا إله إلاّ الله"، أي لكانوا قد استعملوا عقولهم ورجعوا إلى فطرهم الأصيلة، وأمضوا حياتهم حسب الدستور والقانون الإلهي، وحسب أوامره ونواهيه. أجل إنهم صم لأنهم لا يستطيعون سماع كل شيء وهو يسبح الله تعالى بلسانه الخاص ويمجده. وهم بكم لأنهم لا يستطيعون الكلام عمّا يحسونه في أعماق وجدانهم ولا يستطيعون التصريح به. وهم عمي لأنهم لا يرون الطرق والسبل الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته.

إن جئنا إلى خلاصة الآية، نرى أنها تصف الكافرين بأنـــهم لا يعقلون، أي لا يستعملون عقولهم ولا يفكرون، والأمر كذلك لأنه لو كانوا

يستطيعون التفكير، أو لو فكروا لكان في إمكانهم العثور على الطرق المؤدية للإيمان بكل سهولة، بدليل أن هؤلاء الكافرين المعاندين والمتمردين الذين آذوا الرسول الكريم ﷺ وأصحابه في مكة سنوات طويلة وساموهم العذاب عندما عرفوا المسلمين بعد صلح الحديبية معرفة أفضل في ذلك الجو الهادئ تركوا عنادهم القديم ونظرتهم الجامدة القديمة، وعرفوا أنهم كانوا على خطأ كبير. لذا توجهوا نحو الحق. أجل وصول الكافرين إلى هذه النقطة الهامة مرتبط بإمعانهم بالتفكير والتقييم، لذا رأينا القرآن الكريم يلخص أمرهم في هذا الخصوص فيقول بأنهم لا يعقلون.

أما المنافقون الذين ذكر القرآن في حقهم أنهم ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلى هؤُلاَءِ وَلاَ إِلى هؤُلاَءِ﴾ (النساء: ١٤٣) أي مذبذبين بين الكفار وبين المؤمنين... تارة تراهم هنا وتارة تراهم هناك... يعانون من حرمان ضياء عيونهم وضياء الشعور والإدراك لديهم. ثم إنهم لكونهم يحسبون أن الحياة منحصرة فقط في هذه الحياة الدنيا نراهم في حُمَّى الانكباب على لذائذ هذه الدنيا، لذا فالإيمان والكفر سواء لديهم، فأينما وجدت المتعة والحياة الناعمة المرفهة ذهبوا إليها، وعندما يرون مصلحتهم في الذهاب إلى المسجد يذهبون اليه. ولكن ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ﴾ (النساء: ١٤٢) أي أنهم يديمون حياتهم بمعنى من المعاني في خط الإسلام ويأخذون أماكنهم خلف رسول الله ﷺ ولكن بعيون عمياء لا ترى وبقلوب مظلمة، وبفكر خال من الإيمان ومن الصدق والإخلاص. أي أن خيبتهم الكبرى وسوء حظهم يكمن في عدم الإخلاص. وهكذا يستعمل القرآن الكريم في حق أمثال هؤلاء بأنهم "لا يرجعون" أي لا يثوبون إلى الحق وإلى الحقيقة، ولا يثوبون إلى فطرة خلقهم السليمة. ومن هذا المنطلق نرى في أوصافهم الواردة في سورة المنافقون بأنهم "لا يعلمون" و"لا يفقهون"، ولكن لا يرد في حقهم أوصاف من أمثال "لا يعقلون" أو "لا يتفكرون"، لأن هذه الأوصاف متعلقة بعدم الإيمان.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]

إن آيـــة ﴿وأُتُوا بِـــهِ مُتَشَابِهاً﴾ تشير إلى مشابهة من زاوية نيل النعم والألطاف، وحسب تشبيه الأستاذ سعيد النورسي فهذه النعم المتشابهة قد تكون من ألطاف هذه الدنيا، أو من ألطاف الآخرة. فمثلاً يحمد الإنسان في هذه الدنيا أي يقول "الحمد لله" فيجد هذا الحمد بشكل ثمرة في الآخرة. أي أن كل تكبير وتسبيح وتهليل هنا هو بمثابة نوى وبذور منثورة ومزروعة في التربة تنتج نعماً مختلفة في الجنة. ولكن يجب الإشارة إلى شيء مهم في هذا الصدد وهو أننا لا نعرف العلاقة بين هذين الشيئين معرفة تامة.

والحقيقة أننا ننظر إلى كل شيء ضمن دائرة الأسباب، فنبقى تحت تأثير الأسباب عند قيامنا بالتحليل والتركيب الفكري. غير أن هناك أموراً عديدة تحدث في دنيا الأسباب هذه بحيث تقوم بإظهار هذه الحقيقة التي تذكرها هذه الآية أمام عيوننا بكل قوة. فمثلاً لم يقم أحد بحصاد الشعير من مزرعة زرعها بالحنطة مع أنهما من الصنف نفسه. ولا نقطف الكمثري من شجرة التفاح، ولا التين من أشجار العنب. كان الرسول ﷺ يأتيه الوحي، ولكن بينما كان الرسول ﷺ يفهم ما يقوله جبريل عليه السلام لم يكن القريبون منه يسمعون شيئاً حتى ولا شيئاً كأزيز نحلة. وكذلك نـــزول الله تعالى في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا... ومئات من الأمور الأخرى... فهل نستطيع أن نقول أننا نفهم مثل هذه الأمور في إطار "السبب – النتيجة"؟

أجل فكما قال الإمام الغزالي فإننا لا نستطيع أن نفهم بعقولنا الدنيوية أي بـــ"عقل المعاش" -أي بعقولنا التي نستعملها في معاشنا- مثل هذه الأمور المتعلقة بالآخرة فهما جيداً. ولكن عندما نُجهز في الآخرة بـــ"عقل المعاد" عندئذ نستطيع فهم العلاقة بين قول "سبحان الله" وبين تناول ثمرة الجنة، لأن كل شيء يجري هناك حسب قوانين غيبية وميتافيزيقية، ونرى ونفهم بكل وضوح العلاقة السببية بين المكافآت والنعم الموجودة هناك وبين العمل هنا.

أجل... إن القوانين الفيزيائية الموجودة هنا لا تكون سارية هناك. فمثلا يقول الرسول ﷺ بأن صلاتنا ستكون أنيسنا وجليسنا وصديقنا في القبر، وإن الإنسان يدخل الجنة من أبوابها الثمانية المختلفة، وأن القرآن يتمثل ليكون شفيعاً لقارئه.

والآن لنأت إلى الآية... يقول فخر الدين الرازي بأن هذه الأمثلة تُعطى في القرآن الكريم لكي يتم فهم المسائل بشكل أفضل، وليس هناك من شيء مستبعد. أما الماهية الحقيقية للشيء فستظهر بكل خطوطها وتفاصيلها الحقيقية هناك، وعند ذلك يقول المؤمنون من أصحاب الأعمال الصالحة، "لقد رأينا هذا الشيء في الدنيا" أو "رأيناه قبل قليل في الجنة".

أجل، إن نعمة ما هي إما ثواب عمل ما، أو تمثل ذلك الثواب. أو أن الألطاف السرمدية هناك هي سنابل لبذور العمل الصالح هنا. لذا فهما بهذا الاعتبار متشابهتان من الزاوية الداخلية. أما باعتبار أبعاد الجنة فهناك فرق هائل بينهما يسع الدنيا ويتجاوزها، لأن إحداهما ثمرة للحكمة والأخرى ثمرة للقدرة.(١) إحداهما تحمل صفة السرمدية، والأخرى مؤقتة وزائلة. إحداهما تملك أبعاد لذة سرمدية، والأخرى أبعاداً جسدية. إحداهما إحسان بدرجة "عين اليقين"، والأخرى لطف رحماني في ذروة "حق اليقين".

---

(١) ذلك لأن الدنيا دار حكمة والآخرة دار قدرة. (المترجم)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]

كانت الملائكة قد علمت هذا بالعلم الخاص الموهوب لها. وهذا يعني اطلاعهم -بمقياس ما- على لوح المحو والإثبات. ففي العلم الإلهي لا يوجد هناك علم بالأول ثم بالآخر، ولا علم بالجنين ثم بالإنسان الكامل، ولا بالالكترون ثم النواة... الخ. لأنه علم يحيط بكل شيء في اللحظة نفسها. لذا فعندما نقول في موضوع أخذ العهد والميثاق بأن الله أخذ العهد والميثاق في عالم الأرواح أو في رحم الأم. فهذا قول صحيح إلا أنه ناقص ومحدود. وربما كان من الأفضل القول إنه لا يزال يأخذه، لأن عالمنا متغير في كل حين، أما بالنسبة للحق تعالى فالتغير غير وارد في حقه. والحقيقة أن قول "جددوا إيمانكم بـــ"لا إله إلا الله"[1] لا يمكن فهمه إلا عندما نفهم فكرة أخذ العهد والميثاق ضمن هذا العلم المحيط بما كان وبما هو كائن وبما يكون.

والآن لنعد إلى موضوعنا مرة أخرى:

كانت الملائكة قد اطلعت من لوح المحو والإثبات على أن الإنسان سيفسد في الأرض وسيسفك الدماء، لذا استفسروا هذا الاستفسار، مثلما نقول عندما نقابل أناس سوء: لماذا خلق الله أمثال هؤلاء؟ ومن المحتمل أن الملائكة لم تطلع ولم تحط علما بخروج الأنبياء والأصفياء والأولياء "الذين يعدون شموس الإنسانية وبذورها" من بين الناس، ولهذا ألم يقل الله تعالى جواباً لهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)؟

إن مثل هذه الخلافة المهداة من الله تعالى للإنسان كما يمكن حملها على

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ١/٣٣٢.

أساس أن الله تعالى أعطى للإنسان حق التدخل بنسبة ما وبمقياس ما في جميع مناحي الوجود والحوادث، يمكن حملها أيضاً وتفسيرها على دوره في التعيين والتأثير على العلاقات بين الناس وبين الأمم. ومثل هذا الامتياز والهبة تعني السماح للإنسان في العمل والتصرف في كل شيء تصل إليه يده نيابة عن الله وباسمه ونائباً عنه... يكون فرشاته في عملية تذهيب كتاب الوجود... وبستانياً في بستان الكرة الأرضية، وعاملاً تحت إرشاداته في جميع شؤون الدنيا وأي رأي أو فكر حول أن الإنسان مالك أو صاحب حقيقي لأي شيء يعد تخطياً للحد وجهلاً.

لذا نجد أن الله تعالى يقول "إني جاعل" بدلاً من "إني خالق" أي أنه في موضوع الخلق الأول تناول عملية الخلق ليس بذاته، بل من قبل صفاته، أي كأن جعله خليفة بناء وتشكيل من الدرجة الثانية، ليس أصالة بل نيابة كمراقب وناظر، أي أنه أودع فيه هذه الخلافة ليس كطبيعة أولية في خلقه، بل كصفة موجودة فيمن يحقق في نفسه شروط هذه الخلافة في الأرض. من المحتمل أن أحد الأمور الموجودة خلف قيام الملائكة بالاستفسار "أو بالأصح بالاستعلام" الخشية من اختلاط الأمور المعمولة نيابة بالأمور المعمولة أصالة. مما جعل لوجود الخير بجانب الشر ووجود نوى البر بجانب نوى الإثم، ووجود القلب والإرادة والأحاسيس والمشاعر الطيبة والوجدان والضمير بجانب مشاعر الكره والشهرة والغضب والطمع... الخ أي لوجود نظام نفسي مركب في فطرة الإنسان وفي أغوار ماهيته دورٌ في هذه الملاحظة الظاهرية للملائكة. وهذا ظاهر في الجواب الإلهي لهم ﴿قال إني أعلْمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذا الجواب يشير إلى أن هذا الموضوع موضوع عميق لا يحيط به الملائكة علماً، ويشير من جانب آخر إلى قبول الله تعالى عذر الملائكة في عدم الإدراك هذا.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]

ليس آدم عليه السلام هو المخاطب الوحيد في تعلم الأسماء، بل ربما كانت الإنسانية كلها من أولها لآخرها مخاطبة بهذا الخطاب. وما علّم آدم عليه السلام يُعد بمثابة نواة وبمثابة بذرة. فكما كانت جميع فصائل الدماء والأعراق مندرجة في صلبه، كان كل ما تم تعليمه له نواة وبذرة لجميع العلوم. وأصبحت وظيفة تطوير هذه النواة وتنميتها وتوسيعها ملقاة على عاتق الأجيال القادمة.

وكما يمكن أن يكون هذا التعليم قد تم بالوحي الذي أوحاه الله تعالى للأنبياء، كذلك يجوز أنه حصل بدرج الله تعالى رغبة التعلم في فطرته وفي جوهره ولبه استجابة لحاجاته، وأن هذه الرغبة والاستعداد النبوي السريع والكبير للتعلم قادته لتعلم الأسماء والمسميات كذلك.

وعلاوة على هذا فهل كان الهدف مما عُلّم به آدم عليه السلام هو الوصول إلى هذه المعلومات عن طريق لغة من اللغات؟ أم كان ضمن ملاحظات على الطريق الموصل من الأسماء إلى المسميات ومنها إلى صاحب ومالك كل شيء؟ أم لتعليم العلاقات الموجودة الظاهرة منها والخفية في عالم الوجود؟ سواءً أكانت مجموعة المعلومات الملكوتية؟ أو كانت أسماء الملائكة أم أسماء بني الإنسان ومسمياتهم وأقدارهم ومصائرهم؟ كل هذه أمور فرعية لا نقف طويلا أمامها.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]

مع أن هذه الآية تخاطب قسماً من بني اسرائيل بشكل مباشر، إلا أنـــها تخاطب المسلمين كذلك بشكل إشاري. وما يراد هنا بالأخص هو التنبيه على وجوب وجود وحدة وعدم تناقض بين ما يقال وبين ما يُفعل. أي وحدة بين القول والعمل. لذا نرى أن آية أخرى تعبر عن هذا المعنى بأسلوب آخر فتقول: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢).

أجل! الحال والقال أو القول والفعل لغة بجبهتين لنصرة الحق وتمثيله. فإن تكلمت هذه اللغة ذات الصورتين والمظهرين بإسم الحق وصرخت به كان تأثيرها عظيما. لأنه يجب على الإنسان أن يطبق على نفسه أولاً ما يدعو الآخرين إليه، وألاّ يكون هناك تناقض بين أقواله وأفعاله، وبين مظهره ومخبره. جاء في الأثر أن الله تعالى قال لعيسى عليه السلام: "عظ نفسك أولاً فإن قبلت نفسك تلك الموعظة فعظ الآخرين، وإلا فاستح مني". إذن يجب أن يعيش الإنسان حسبما يؤمن به، وأن يعكس أعماق عالمه الداخلي من أفكار وأحاسيس، بعد عملية تجريد نفسي. فمن لا يقوم الليل، عليه ألا يتحدث عن صلاة التهجد، وأن يستحي من هذا. ومن لا يستطيع الصلاة بكل خشوع وخضوع، ولا يتصرف بأدب تجاه الله تعالى ولا يحس بالمهابة والمخافة منه، يجب ألا يتحدث عن صفات الصلاة الكاملة. وإذا لم يكن مضحياً يجب ألا يتكلم كلمة واحدة عن موضوع العيش من أجل الآخرين. لأن الله تعالى ربط –لحكمة ما– قوة تأثير ما يقال بطراز تصرف القائل. تأملوا كيف أن دفاع الكثيرين عن الإسلام وأجوبتهم ومنافحتهم عن الإسلام تبقى دون أي تأثير. بل نرى بعض هؤلاء –لقلة اخلاصهم– يتنازلون عن كثير مما كانوا يدافعون عنه

سابقاً تماشياً مع أفكار بعض المعارضين. ويشرح شيخ الإسلام "مصطفى صبري أفندي" هذا بقوله: "إن أمثال هؤلاء ليسوا مخلصين فيما يقولون أو يجيبون أو يكتبون من كتب. ولو كانوا مخلصين لعاشوا حسبما يقولون، ولما شاهدنا هذا التذبذب في حياتهم..." حيث لم يستطيعوا العيش في وحدة واحدة بين القول والعمل... وهكذا ترددوا وتذبذبوا... وأوقعوا الذين يتبعونهم في الشك وفي الشبه.

لذا نرى أن مثل هذه الكتب وإن كتبت بنية خدمة الإسلام إلا أن هذه الأجوبة ورد الشبه زادت من تشوش الأفكار وأدت إلى فوضى فكرية يصعب السيطرة عليها. لذا كان من المهم البحث عن طرق التأثير الفعّال. لذا كان من الضروري تحلي المرشد والمبلغ بصفة الإخلاص العميق والحقيقي بجانب العلم، والعيش حسب هذا العلم ومعرفة طرق التبليغ والارشاد وفهم المخاطب ومعرفة ماذا يقول وكيف يقول وأين يقول.

هنا يجب التذكير بشيء آخر، وهو ورود احتمال فهم خاطئ لآية ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢). فهذه الآية لا تفيد معنى: "إياك أن تذكر شيئاً لم تعشه"؛ لأن العيش عبادة والتبليغ عبادة أخرى. فمَن لم يطبق كليهما حملَ ذنْبَين وابتعد عن قوة التأثير خطوتين ومن لم يطبق أحدهما حمل ذنباً واحداً وابتعد عن التأثير خطوة واحدة. لأن قوة التاثير -كما ذكرنا- تعتمد على تطبيق ما يتم تبليغه.

أجل! إن أمر الآخرين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ونسيان تطبيق هذا على النفس تناقض صارخ. ومثل هذا التصرف الخاطئ يقلل تأثير أمور إيجابية كثيرة كقوة البلاغة والبيان والعلم. وهذا هو ما تذكرهُ هذه الآية لكي لا يقع أي إنسان عاقل في مثل هذا التناقض. وتريد من الإنسان أن يؤمن وأن يفكر وأن يعيش وأن يبلِّغ. وما عداه لغو وثرثرة تذهب بهيبة المتحدث، وهذا يعني أنه نسي نفسه تماماً. لذا كان على الواعظ وعلى

الناصح والمرشد والمبلغ والكاتب والمبرمج أن يكون جاداً في الأعمال التي يقوم بــها لكي يؤخذ مأخذ الجد ولكي لا يلقي أي ظل من الشك على المواضيع التي يتناولها ويقدمها، وألا يبقى -بتصرفاته العوجاء في مجال الإرشاد- مغلوباً على أمره أمام الكلمات المنمقة للداعين إلى طريق الضلالة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]

فُسِّرَ ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ في هذه الآية بـــ:"اقتلوا أنفسكم، أو ليقم الذين لم يعبدوا العجل بقتل الذين عبدوا العجل". ولكن يمكن تفسيرها كما يأتي أيضاً:

ما دمتم قمتم بتخريب الوحدة الدينية والاجتماعية والفكرية بعبادتكم العجل واتخاذه إلهاً، وبتهيئة أرضية للخلاف والخصام، إذن فهيا تقاتلوا... أو موتوا من جهة النفس والأنانية لكي تحيوا من ناحية الروح والقيم. أو حسب التعبير التصوفي: "اقتلوا في أنفسكم المشاعر السيئة أمثال القوة الشهوية والغضبية... الخ واعتبروها مشاعر أنانية سلبية لكي تكونوا أهلاً لبعث جديد لحياتكم الروحية والقلبية".

ومهما كان القصد من دعوة الذين عبدوا العجل أو لم يعبدوه لقتل أنفسهم، فإن دعوة كل فرد لمثل هذا التكفير والتطهر-للذين عبدوا العجل بسبب كفرهم البواح، وللذين لم يعبدوه بسبب سكوتهم- تحمل دلالات ومعاني عديدة.

وبجانب هذا فإن عملية التطهر المباركة هذه، وهذا الإمتحان الصعب في تدمير النفس ولجريانه في داخل الذات كان أكثر إيلاماً. ومما يسترعي النظر أنه بدلاً من أمر "قاتلوا" الذي كان يرد في صدد قتال الآخرين، صدر أمر "فاقتلوا أنفسكم" مما ينبئ عن مضاعفة الآلام الداخلية والقلق النفسي كعامل تطهر وتطهير لتلك النفوس الآثمة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥]

المسخ الوارد في هذه الآية الكريمة -والله أعلم- هو كما قال مجاهد مسخ في الأخلاق والسيرة أكثر من كونه مسخاً للصورة. أي أصبحوا من ناحية الأخلاق والطبع ودناءته كالقرود. والمسخ الأخلاقي يفتح الباب لانتقال هذا المسخ إلى أجيال عديدة. ويمكن مشاهدة هذا المسخ الأخلاقي في بعض المجتمعات الحالية.

وكما يمكن أن تكون كلمة "السبت" بمعنى اليوم المعروف في الأسبوع، كذلك يمكن أن تكون مشتقة من مصدر ليوم الراحة الذي يعظمه اليهود والذي يقضونه في العبادة. والتفسير الأخير هو الأرجح.

لذا فإن معنى الآية حسب التفسير الأخير هو:

إن هؤلاء اليهود الذين حملوا مسؤولية هينة وصغيرة وهي تخصيص يوم واحد فقط لعبادة الله قد هربوا من هذه المسؤولية، ونقضوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام خالقهم. هذا العهد الذي كان شيئاً طبيعياً لخلقهم بشراً، وضرورياً لكونهم قوماً مختارين من قبل الله. وهم بارتكابهم مثل هذه الخطيئة والإثم سقطوا إلى ما دون مرتبة الإنسان، وجحدوا فضل اختيارهم على الناس وعلى الأقوام الآخرين، فمسخ الله إنسانيتهم ومشاعرهم وأفكارهم وأبدلهم عنها نفسية فردية في الفكر والفلسفة والحياة، فانعكس هنا كله على مظهرهم الخارجي فبدوا بائسين متمسكنين.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: ٦٧]

نرى شيئين رئيسيين يسترعيان الانتباه من الوهلة الأولى في هذه الآية الكريمة:

الأول هو امتحان الله تعالى لبني إسرائيل في أمر أشربت فيه نفوسهم حتى لم يعودوا قادرين على تركه، فكان هذا الامتحان من أجل إظهار إخلاصهم وإخبار الآخرين بنتيجة هذا الامتحان. والثاني هو صدور مثل هذا الأمر للقضاء تماماً على عادة عبادة البقر التي كانت منتشرة آنذاك بين بني إسرائيل. لأن الأصل هو التزام العبد بعقيدة التوحيد الخالص، وقلع كل ما ينافي هذا التوحيد الخالص من القلب وإبعاده عن حياته.

ولكن بني إسرائيل لم يفهموا من الوهلة الأولى معنى مثل هذا الأمر و لم يستوعبوا الحكمة الدقيقة الموجودة فيه. كما أن عد البقرة مقدسة في مصر وعدم استطاعتهم فهم حكمة إطاعة هذا الأمر وعدم ادراكهم علاقته بما كانوا يتوقعونه ويتخيلونه -كما يحدث لدينا أحيانا- من أمور تأتيهم مع الرسالة أدى إلى أنهم فضلوا تأخير التنفيذ بشتى المعاذير وكسب الوقت للتملص منه بدلاً من القيام بتطبيق الأمر فوراً. وكما دلت حادثة العجل فيما بعد، فقد ظهر أنهم لم يكونوا قد تخلصوا نهائياً من تقديس البقر الذي توارثوه من المصريين. وإلى جانب هذا فإنهم عدّوا القيام بذبح البقرة التي يقدسها الأهالي بمثابة إعلان عصيان ضد سلطة فرعون، مع أن هذا الأمر - أي ذبح البقرة التي يعدها الأهالي مقدساً- كان من أسس رسالة موسى عليه السلام. لذا عدوا هذا الأمر وكأنه أمر بما لا يطاق فقالوا: "أتتخذنا هزوا؟".

وسياق الآية يبين لنا المعاذير التي كانوا يقدمونها ويستترون وراءها، ثم القرار الصارم والقاطع لنبي كريم.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]

إن ضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة وقيام المقتول بالإشارة إلى القاتل يعد معجزة. وضرب المقتول ببعض البقرة ليس إلا جانبًا من جوانب استعمال الأسباب. أما الناحية المتوجهة إلينا من هذا الأمر فهي موضوع لعلم الطب الحديث أو لعلم الأحياء "البيولوجيا"، فبقاء خلايا الدماغ حية عدة دقائق بعد الوفاة، والتوصل إلى بعض النتائج بعد تشريح الجثة أمور تتجاوزنا وتتجاوز الموضوع الذي نتناوله، فقد يجوز أنه لو تم تدخل بشكل ما في تلك الدقائق لأمكن الحصول على بعض المعلومات المخزونة في لاشعور المتوفى. وكما يمكن النظر إلى هذا الموضوع من ناحيته الإعجازية فقط، كذلك يمكن التوجه به بواسطة تكنولوجيا متقدمة في المستقبل إلى هدف عظيم في هذا الصدد يقترب من الحدود التي رسمتها المعجزات.

وبعد أن أقترب هؤلاء القوم من تنفيذ الأمر بعد اللّتيا والتي رأوا بركة الطاعة والانقياد أضعافاً مضاعفة فقد تخلصوا أولاً من الاحتكاك الداخلي فيما بينهم بعد معرفة القاتل في تلك الجريمة الغامضة. كما تخلصت أرواحهم بنسبة معلومة من الفكر المادي ومن عدم الإيمان بالبعث والنشر، لأن حادثة إحياء القتيل ببعض البقرة قد فتحت أمامهم كوة واسعة على حقيقة البعث بعد الموت.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]

ترسم هذه الآية صورة بعض المثقفين المغفلين آنذاك الذين تعلقت قلوبهم -كما هم الآن أيضا- بأوهام وأماني حول عالم مثالي "يتوبيا"، بدلاً من التعلق بحقائق الدين. والحقيقة أننـــا نرى في أسس الماركسية والشيوعية والرأسمالية هذه الأماني التي هي نوع من الهروب من الدين إلى عالم الخيال واليوتوبيا والتكهنات. ومن المؤلم أن التاريخ يكرر نفسه في موضوع الأماني هذه، وسار في هذا الأمر النصارى على نهج اليهود، كما لم يتردد بعض المسلمين أيضاً من اقتفاء اثر هؤلاء. أجل! فالمسلمون اليوم تائهون يدورون -مثل السابقين- في فلك الآمال التي أطلق القرآن الكريم عليها اسم "الأماني". وحال العالم الإسلامي الآن أكبر شاهد على هذا فقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ: "لَتتبعن سُنَنَ مَن قَبلَكُم شِبراً بشبرٍ وَذراعاً بذِرَاعٍ حتى لَو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ. قلنا يا رسُـــولَ الله آاليهود والنصارى؟ قال: فَمَنْ". (١)

والأماني جمع "أمنية" وتأتي بمعنى التمنيات والخيالات التي لا يمكن تحقيقها في الواقع. ومع أنها قد تختلط مع المثالية، إلا أنها تعني الفرضيات والنظريات التي يستحيل تحقيقها. ومع أن بعضها قد يبدو ممكن التحقيق إلا أن أنـــها في الأعم الغالب أمور خيالية تبقى معلقة في الخيال ولا يمكن الوصول بها إلى الهدف المنشود. لذا كانت هذه الأماني تكهنات وخيالات خادعة بالنسبة للمتمني، وحسرة قاتلة بالنسبة للمجتمع.

---

(١) البخاري، أحاديث الأنبياء ٥٠، الاعتصام ١٤؛ مسلم، العلم ٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢/ ٣٢٥، ٣٢٧.

فإذا كان المثقفون في مجتمع ما غير قادرين على الرؤية الواضحة وعلى القراءة الصحيحة للأمور، وإذا كان أنصاف المثقفين وكتل الجماهير الغافلة والمستغفلة تركض وراء سراب مثل هذه الخيالات والأوهام والأماني، فمعنى هذا أن هذا المجتمع محكوم عليه بالوقوع في شباك المستحيلات ومقضي عليه هناك.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]

ذكر الكثير من المحققين بأن روح القدس هو جبريل عليه السلام. وهذا هو الوارد في العديد من التفاسير. غير أن حسان بن ثابت أنشد في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:

وجبريلُ أمينُ الله فينا   وروحُ القُدس ليس له كِفاءُ

وقد استحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشعر.لذا فجبريل ليس روح القدس. كما أنه لا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام لأن الآية تقول ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فالمؤيِّد ليس هو المؤيَّد. وأنا أعتقد أن روح القدس قوة وقدرة ملكوتية في إمرة الله تعالى لتنفيذ إرادته وتعود لعالم اللاهوت. وعندما يؤيد هذا الروح النبي عيسى عليه السلام يكون مصطبغاً بالصبغة الإنجيلية، وعندما يؤيد رسولنا صلى الله عليه وسلم يكون مصطبغاً بالصبغة القرآنية.

لقد أُرسل سيدنا المسيح عليه السلام بمعجزات بينة وواضحة وضوح الشمس... معجزات تقود إلى الإيمان والاقتناع، أو في الأقل إلى الإلزام... معجزات واضحات بنفسها لا تحتاج إلى أي شيء آخر من ناحية الدلالة. وقد وردت هذه المعجزات في القرآن الكريم في عدة سور منها خلق طير من الطين ثم نفخ الحياة فيه بإذن الله، وشفاء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وإخبـــاره بالغيب وبما يأكل الشاكون فيه وفي نبوته وما يدخرونه في بيوتـــهم. ويمكن حدس وجود شيء خاص في كونه مؤيداً من قبل الروح القدس، وهو كون مهمته ورسالته ذات طابع خاص. وليس روح القدس – كما يحسب بعض النصارى– جزءً من شخصية المسيح عليه السلام بل هو تجلٍ لإنعام ولطف خاصين لتأييده. ولا بأس أن يتم هذا التجلي عن طريق جبريل عليه السلام أو بأي ملك آخر.

قام روح القدس منذ البداية أي منذ حمل مريم عليها السلام وحتى وضعها بالتمثل بصور وبأشكال مختلفة وبتعقب عيسى عليه السلام عن قرب. وكان على اتصال قريب بقدر هذا النبي الكريم. وعندما صدرت الإرادة الإلهية بإرساله نبياً إلى قوم منهمكين بالمادة وغارقين فيها، قام بتأييده وبتوجيهه وبتربيته تربية روحية في جو ميتافيزيقي سامٍ يهدم الفكر المادي ويجعل عاليه سافله.

ثم هناك موضوع شهادة البراءة والتطهير لأم المسيح عليهما السلام سيدتنا مريم العذراء الطاهرة من قبل محكمة القرآن ضد الافتراءات والتهم الشنيعة المسندة إليها من قبل المفترين والجاحدين. لأن تبرئتها هي تبرئة لإبنها الرسول الكريم أيضاً. والله أعلم بالصواب.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]

أي إنـــهم بعد أن تيسرت لهم فرصة الخلاص من الغضب الذي تعرضوا له سابقاً، لم يحاولوا الاستفادة منها فتعرضوا لغضب آخر. ويدل فعل "باء" في هذه الآية على الاستحقاق وعلى الاستقرار أيضاً، أي على دوام الغضب واستمراره. ولا يعود سبب تعرضهم لغضب على غضب إلى إنكارهم التوراة كما ورد في بعض التفاسير، وفي تفسير آخر إلى إنكارهم الإنجيل بل حتى إنكار القرآن الكريم فقط، بل إلى إنكارهم أيضاً ما جاء به زكريا ويحيى عليهما السلام بل حتى القيام بقتلهما. وكل منا يعرف أن من قتل نبياً يستحق الخلود في جهنم. لذا كان من المفيد الإشارة إلى أن قيام بعضهم بمعارضة أنبيائهم وكتبهم وما قاموا به من إيذاء لموسى وعيسى عليهما السلام وأخيراً ما قاموا به ضد رسولنا الكريم ﷺ كان القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقال مما أدى في الأخير إلى تعرضهم واستحقاقهم غضباً فوق غضب.

قام هؤلاء أولاً بتكذيب الأنبياء الذين أنقذوهم من عذاب فرعون وأبانوا لهم الصراط المستقيم المؤدي إلى الكمالات الإنسانية، ثم قاموا بقتل بعض الأنبياء الذين جاءوا فيما بعد فاستحقوا غضباً شديداً، بل استحقوا غضباً فوق غضب. وبينما كانوا ينتظرون نبي آخر الزمان الذي جاءت أوصافه في جميع الكتب السابقة، لم يستطع معظمهم الاستفادة من الفرصة الذهبية عندما بعث هذا النبي الموعود بجوارهم وبالقرب منهم، وأنكروه فاستحقوا غضبا فوق الغضب الذي كانوا يحملونه على كواحلهم.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٤]

إن حصرنا معنى هذه الآية بسبب نــزولها وقلنا إنــها تشير إلى النصارى الذين كانوا يمنعون الناس من الوصول إلى بيت المقدس واستخرجنا منها هذا المعنى نكون بذلك قد ضيقنا واسعاً. لأن سبب النــزول يعد خاصاً، أما الحكم فيكون عاماً وذلك في العديد من الأمور. إذن فإن الذين حاولوا صلب المسيح عليه السلام سواء في ذلك العهد أو فيما بعد يعدون اظلم الناس. كذلك الذين وقفوا بوجه الرسول ﷺ في الحديبية ومنعوه من دخول الكعبة والذين ظاهروهم عليه يعدون كذلك من أظلم الناس. وكذلك من يعطل الجوامع ومساجد الله. فمن يتدخل في الحياة الدينية للناس إلى درجة وضع الحظر على المساجد هم أيضاً من أظلم الناس...الخ. وما دام القرآن كتاباً كونياً إذن يجب تناول هذه الآية وتفسيرها من جميع هذه الأوجه، فهذا هو الأنسب والأكثر ملاءمة لروح القرآن.

يجب القيام بتقييم كل شيء حسب قيمته الذاتية، فهذا هو ما يستلزمه الحق والحقيقة، لذا كان من الظلم تقييم أي شيء دون أو فوق قيمته الذاتية. لذا كان الإفراط في التقليل من قيمة الشيء أو الإفراط في إعطائه قيمة أكثر من حقه ظلماً كبيراً. لذا كان الشرك بالله من كبائر الظلم وعظائم الانحراف، وكان هدم المساجد أو غلقها وهي أماكن ذكر الله حيثُ منها تنطلق الدعوة إلى توحيد الله والتصدي للكفر والالحاد يُعدّ ظلماً يلي في ظلمه ظلم الشرك بالله.

ولا شك أن مثل هذا الاعتداء على المسجد الأقصى يعد ظلماً أكبر من الظلم الموجه للمساجد الأخرى، ويكون الظلم أكبر لو كان هذا الاعتداء موجهاً للمسجد النبوي، أما إن كان موجها للمسجد الحرام فهو ظلم وكفر

وإلحاد خارج حدود التصور. فإن نظرنا إلى هذه الآية التي نـــزلت في حق المسجد الأقصى من هذه الزاوية علمنا المعاني التي تحتويها الكلمات المختارة بكل عناية في هذه الآية. ثم إن الكلمة هنا لم تأت بصيغة المفرد، أي لم تأت بصيغة "مسجد" بل بصيغة الجمع "مساجد" مما تومئ إلى عموم المسألة.

ومن هذا المنطلق نعلم أن شاهبور وبختنصر نالا نصيبهما من الظلم والإثم باعتدائهما على المسجد الأقصى، وكذلك أوسباسيونوس وتيتوس. إن جميع الظالمين في الشرق أو الغرب من المتجاوزين والمعتدين على حرمة المعابد سيطالُهُمْ هذا الإثم والظلم. أما القوة الغاشمة التي ستهدم الكعبة والروضة المطهرة قبيل يوم القيامة[1] فسترتكب ظلما يسجل على جبينها بحروف لا تمحى أبداً.

---

(١) «عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». البخاري، الحج ٤٩؛ مسلم، الفتن وأشراط الساعة ٥٧، ٥٨، ٥٩؛ وانظر أيضاً: المسند للإمام أحمد، ٢٢٨/١.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ١١٧]

يأتي معنى فعل "بَدَعَ" في اللغة العربية بمعنى الإيجاد والخلق على غير مثال أو أنموذج سابق. وتعرض الأرض والسماوات التي لا حد لوسعتها أنموذجا للجمال الذي لا يمكن أن يشبع الإنسان منه. أي هي من الكائنات والمخلوقات العجيبة التي لم يسبق وجود أنموذج لها من قبل. فهي مذهلة ومدهشة ولا يمكن أن يكون هناك أكثر منها جمالا وجاذبية لعدم وجود مثال سابق لها من جهة، ولطبيعة مادها الأصلية وهيئتها الحالية من جهة أخرى. وهي تشير وتومئ بمليارات من الإشارات النورانية إلى خالقها ومبدعها.

أجل! خلقت الأرض والسماوات جميعاً بكل ما فيها وبكل جمالها وجلالها الأخاذ وبكل أسرارها وبدرجة الكمال التي لا كمال فوقها، ودون أي نقص أو قصور بكلمة "كن" من قبل خالقها. وهي ليست أجزاء جاءت وانفصلت منه تعالى، وليست ظهوراً له سبحانه، لأن العلاقة بين الكون وبين مبدعه تبارك وتعالى هي علاقة الخالق بالمخلوق. أي أن هذه العلاقة ليست تولداً منه أو صدوراً عنه أو ظهوراً حتمياً وغير إرادي له. وعلى فرض المستحيل لو كانت هذه هي العلاقة لَمَا كان كل هذا الصدور والظهور معرضاً للتفتت والتجزؤ والنفاد مثل نفاد وقود الشمس في يوم من الأيام. بينما يُخْلَق كُل شيء ثم ينمو ويتطور ثم ينمحي ويذهب ويفنى ثم يعقب هذا الفناء وجود آخر بنفس الجمال والجاذبية... أجل! كل شيء يأتي واحداً إثر آخر، ثم يرحل واحداً إثر آخر، ولكن يبقى بديع السماوات والأرض وحده دون زوال أو تحول أو فناء.

وعندما يتكرم الله تعالى ويهب نور الحياة للآتين، فهو يعبر لأولي الألباب عن معنى الوجود. وعندما يحل القادمون الجدد بنفس النعم المهداة إليهم، بعد ذهاب الزائلين، فهو يشير إلى أبديته وأزليته.[١]

(١) تأتي كلمة "البدعة" من الجذر نفسه، وهي كل ما أحدث فيما بعد في الدين مما ليس منه من فكر أو عمل. وقد عرفت كلمة البدعة تعريفات مختلفة، مثلا: "هي أي عمل لم يفعله رسول الله ﷺ ولا الخلفاء الراشدون بنية العبادة". أو: "كل عبادة أو عمل صالح ظهر بعد الرسول الأكرم ﷺ وبعد الخلفاء الراشدين، ولم يقم برفع أي سنة من سنن النبي ﷺ". ويختلف موقف العلماء تجاه البدعة، فمنهم من يقف ضدها بكل عنف، ومنهم من له مواقف لينة. وموقف الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله موقف وسط ومعتدل. فإن كان ما أحدث في الدين غير معارض من ناحية الأصول لأي أساس أو قاعدة عدت بدعة حسنة فإن لم يكن في الإمكان التوفيق بينها وبين أي قاعدة أصولية كانت بدعة سيئة. والله أعلم بالصواب.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾

[البقرة: ١٢٤]

جاء في بعض الروايات حول تفسير هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام كان أول من ختن وأول من استضاف وأول من قلم أظافره وأول من خفف وحفّ شاربه... الخ. ولكن يمكن القول بأن هذه الأمور كانت موجودة قبله لأنها -حسب ما أثر عن رسول الله ﷺ- من الفطرة السليمة. لذا كان علينا أن ننظر إلى هذا السبق أو الإمامة هنا بمعنى نسبي. فمن المحتمل أنها كانت بالنسبة إلى قومه وليس أول الناس في مثل هذه الأمور منذ آدم عليه السلام. فمثلاً يقول النبي موسى عليه السلام ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣). ومن الواضح أنه لم يكن أول مؤمن. إذن فالأولوية هنا نسبية أي نسبة إلى قومه. لذا فإن أصح ما يمكن قوله بخصوص امتحان إبراهيم عليه السلام وابتلائه هو أنه اجتاز هذا الامتحان بأفضل وأكمل شكل وأنه رد كل ما يعود إلى الشرك بصورة واضحة بينة يفهمها حتى المبتدئون.

وتأتي كلمة "البلاء" من نفس جذر "الابتلاء" والتجربة. ويُفهم من كلمة الابتلاء أنها بمعنى إظهار بعض المكتسبات الداخلية أو الباطنية للإنسان بعد امتحانه، أو إظهار نواحي الجمال أو القبح فيه... الخير أو الشر... السمو أو الدناءة.

ولكن الإنسان يملك حياة جسدية ونفسية وأهواء وشهوات إلى جانب حياته الروحية والقلبية فهو من ناحية حياته الروحية والقلبية قريب من عالم الغيب ومن الحق تعالى، وهو يحاول في الوقت نفسه ضمن حياته النفسية الوصول إلى مراتب الإنسان الكامل، فهو في صراع دائب بين التكاليف والأوامر الإلهية وبين مطالب الجسد والنفس، وتكون أمامه خيارات للترجيح، وهو ينجح أحياناً في هذا الاختيار وأحياناً يفشل ويجانبه الصواب. إذن فهذا ابتلاء وامتحان واضح يظهر فيه الفائز والخاسر.

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾

[البقرة: ١٤٤]

أول ما نلاحظه في الآية ذكر الرضا مع تحويل القبلة إلى الكعبة. وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين ذكر الرضا مع تحويل القبلة لكي يتم استعمال مثل هذا الأسلوب.

وكما سنذكر بإيجاز عند تناول شرح نكت الآية رقم ١٥٠ من سورة البقرة فإننا بتناول هذه الآية من زاوية تصوفية نرى وجود علاقة وثيقة بين "الحقيقة الأحمدية" وبين "حقيقة الكعبة". وأوجز إيضاح لهذا هو ما قاله بعض المتصوفة بأن حقيقة الرسول محمد ﷺ وحقيقة الكعبة توأمان خلقا معاً في عالم الاحتمال.

كان المسجد الأقصى في عهد معين في مكة وفي المدينة هو القبلة بسبب حكم عديدة. لذا كان الرسول ﷺ ينتظر يوم وصاله مع مكة والتوجه نحوها بلهفة وبفارغ الصبر، يفوق في شوقه شوق العاشق لمعشوقته، ويبث ما يعتلج به فؤاده إلى الله. والحقيقة إنه ﷺ مثل سائر الأنبياء كان -ولا مشاحة في المثال- كطائر أخروي لا يقف تطلعه عند حدٍّ حتى في العالم الآخر كلما علا وارتفع تطلع إلى الأعلى والأرفع بحيث يستغرق ذلك إهتمامه كُلّهُ. فقد عرج إلى الأعلى حتى وصل إلى سدرة المنتهى وكان قاب قوسين أو أدنى منه، وأتم سياحته في عوالم أخرى دون أن تحول دونه أي قوة جذب أو أي شيء آخر، ودون أن يصاب بالدوار أو يزيغ بصره. وكان هذا عمقاً آخر في عظمته.

أجل! كان هذا النبي الكريم سيد الإنس والجن الذي ساح في مثل هذه العوالم، والذي كانت أجنحة الملائكة مفروشة تحت قدميه يرنو ببصره إلى

السماء ويخاطب ربه طالباً منه تيسير اجتماعه مع حقيقة الكعبة ومتسائلاً بكل لطف ونـــزاهة: متى يا رب؟ وعندما حقق الله تعالى رغبته هذه كان من الطبيعي أن يرضى، لذا قال له ربه ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ وكان هذا يعني في الوقت نفسه رضا ربه عن هذه القبلة التي اختارها له.

وبهذا المحراب الجديد رجع المسجد الأقصى خطوتين إلى الوراء -مع الاحتفاظ بكامل مكانته المباركة المتميزة- ليكون هذا البيت العتيق الذي لا تبلى مكانته في القلوب هو مطمح النظر الإلهي في فترة كانت البشرية فيها متهيأة للانطلاق نحو عهد فكري جديد ونحو عهد عقيدة جديدة، ولكي يشع نوره ويفشي سره إلى توأمه الرسول ﷺ وإلى المؤمنين المنطلقين في إثره ولكي يحتضنهم بحرارة لم يحظ بـــها أحد من قبل، ولكي يتم عيش المبدأ والمنتهى معاً للمرة الأولى وللمرة الأخيرة أيضاً.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَيهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(البقرة: ١٤٤)

في تمام الآية هناك توجه مختلف. فتوجه الرسول ﷺ في البداية إلى المسجد الأقصى كان يشكل تـــهيئة لتليين قلوب يهود المدينة لقبول نبوته. أي تنبيه قلوبـــهم وجعلهم يقولون: "يحتمل أنه نبي". وعند تحويل القبلة إلى الكعبة ساعد على تليين قلوب مشركي مكة الذين كانوا يعدون أنفسهم على ملة إبراهيم عليه السلام ولكن ملة مغايـــرة للمسلمين، وجعل هؤلاء المشركين يتذاكرون نبوة محمد ﷺ. أي أن الإسلام عندما أظهر بأنه يحترم الأماكن التي يعدها اليهود والمشركون أماكن مقدسة فانه كان يؤثر على وجهة نظر هؤلاء. وهذه الآية أنموذج للآيات القرآنية التي تراعي الروح والنفس الإنسانية، وتأخذ الجهة النفسية للإنسان بنظر الاعتبـــار وبشكل عميق ومتداخل. ولعل هذا الموضوع من اقل المواضيع التي تم الاهتمام بـــها في تاريخ التفسير.

يأتي "الشطر" بمعانٍ عديدة منها نصف الشيء أو جزء منه أو جهته. وهذا يبين وجوب وضرورة التوجه إلى الحرم الشريف أي إلى الكعبة المشرفة قدر الاستطاعة. وقد فهم العديد من الصحابة وأئمة التابعين هذه المسألة على أساس إمكانية الإنسان للتوجه إلى الكعبة حسب الأماكن التي يوجد فيها. أي أن الموجود في الحرم الشريف يجب أن يتوجه إلى منتصف الكعبة أو إلى جزء منها في الأقل بشكل تام. أما الموجودون بعيداً عنها "عن الكعبة" فيجب أن يتوجهوا شطرها. وهذا هو مقتضى الآية ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ﴾.

كما أن جملة ﴿وَحَيثُ مَا كُنْتُم﴾ في الآية تشير إلى أنه مع وجوب وضرورة التوجه نحو القبلة في الصلاة فهي تومئ أيضا إلى أنه لا حاجة لأي مكان خاص للصلاة مصداقاً لقوله ﷺ: "وجُعلت لي الأرضُ مسجداً".[1]

(١) البخاري، التيمم ١؛ الصلاة ٥٦؛ مسلم، المساجد ٣، ٤، ٥.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة: ١٥٠]

بعد وصول الرسول ﷺ المدينة وتشريفه لها، قضى ١٦ أو ١٧ شهراً وهو يتوجه في صلاته نحو المسجد الأقصى. وكانت الكعبة في تلك الأيام مملوءة بالأصنام والأوثان طبعاً. ولما كان الرسول ﷺ قد أرسل بدين التوحيد وعدم إبداء أي اهتمام نحو الأصنام، لذا مُنع فترة معينة من التوجه في صلاته نحو الكعبة لكي يُظهر موقفه القطعي والأكيد نحو الأصنام.

والحقيقة أن هناك علاقة وثيقة بين الحقيقة الأحمدية وبين حقيقة الكعبة وكان الرسول ﷺ يشعر -حسب فطرته التي فطره الله عليها منذ الأزل- بـــهذا، ويود التوجه نحو الكعبة ويحن إلى هذا، وهذا التوجه والحنين شرحه القرآن الكريم: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ١٤٤).

أما هدف الرسول ﷺ من تقليب وجهه في السماء فهو رغبته أن يضع الله تعالى حكماً جديداً في موضوع تحويل القبلة. أجل! كان ينتظر نبأً من السماء لذا نرى أن الآية في عقبها تبلغه البشارة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤). والظاهر أنه من الصعب فهم هذه الحقيقة. ولا يفهمها إلا شخص كالرسول ﷺ الذي كان يدرك هذه العلاقة الوثيقة بينه وبين الكعبة حق الإدراك بفطرته.

أجل! كانت لحقيقة الكعبة علاقة وثيقة به. ولكن كانت مسألة التوحيد

التي هي سبب بعثته أهم بكثير جداً من قدسية الكعبة ومن كونـــها قبلة للصلاة. لذا توجه الرســـول ﷺ في مكة في صلاته نحو المسجد الأقصى واستمر على هذا مدة اخرى في المدينة كذلك.

أما يهود المدينة فانـــهم بدأوا يدعون -انطلاقاً من كون قبلة المسلمين نحو المسجد الأقصى- بأنـــهم هم الأصل وأن المسلمين تابعون لهم لكي يجعلوا من هذا الموضوع حجة لدينهم. ولو شاء الرسول ﷺ لحول القبلة إلى الكعبة عند أول وصوله إلى المدينة.

ولكنه لم يكن يتصرف بمشيئته وبرغبته، بل كان على الدوام متعلقاً بالله مخلصاً له في كل شـــأن من شؤونه ينتظر الأوامر منه، مرجحاً هذه الأوامر على رغبات قلبه، فقد كان إنسان الذروة يستشرف أبعدَ الأفاق الإنسانية إلاَّ أنه لم ينسَ كونه عبداً رسولاً يأتمر بأمر الله تعالى.

كما أن الرسول ﷺ -بتوجهه في الصلاة شطر المسجد الأقصى- أشعل نور الهداية في قلوب العديد من اليهود أمثال عبد الله بن سلام. ويحتمل أن صفة الرسول هذه كانت مذكورة في كتبهم. على أي حال فقد كان هناك بعض اليهود الذين اهتدوا إلى الإسلام. وبعد ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً من هذا التوجه شطر المسجد الأقصى تم المقصود، ولم يبق في يد هؤلاء الناس أي دليل يستطيعون استعماله ضد المسلمين. أي لم يعد بمقدور المشركين القول: "انتم تتوجهون نحو الكعبة المملوءة بأصنامنا، إذن فإن ديننا هو الأصل!" ولا بمقدور اليهود القول: "انتم تتجهون إلى قبلتنا، إذن فديننا هو الأصل". في مثل هذا الجو جاء الأمر الإلهي بالتوجه شطر المسجد الحرام فحقق الوصال بين ذات الرسول ﷺ وذات الكعبة المشرفة.

وهناك إشارات في العهد القديم فيما يتعلق باشعيا عليه السلام تومئ إلى أن الأحداث ستجري كما جرت؛ لأن بعض اليهود كانوا يقولون بناءً على هذه الإشارات: "إن قبلة النبي القادم ستكون إلى مكة. أما محمد فلا يزال

متوجهاً في صلاته نحو بيت المقدس". وهذا يلقي الضوء على بعض جوانب هذا الموضوع.

﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٠) أي أن توجهكم في الصلاة شطر المسجد الأقصى كان نعمة، ولكن النعمة الأصلية الكبرى كانت في لقاء الأحبة. أي التقاء الرسول ﷺ -الممثل للأمة الإسلامية- بالكعبة، ومن هناك العروج فيما بعد إلى سدرة المنتهى ليحظى بالنعمة الإلهية وجهاً لوجه، وهذا يمكن فقط بالتوجه شطر الكعبة. وهكذا يكون الله تعالى قد أتم نعمته، وهو شرف اختص به الله هذه الأمة التي أسبغ عليها رحمته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]

الصبر يعني عدم اهتزاز حال المؤمن وعقله، والثبات وعدم الهلع عند الصدمة الأولى الداعية إلى المعصية والمؤدية إلى إثارة المشاعر والأحاسيس السيئة أو في اللحظة الأولى من سماع أوامر الطاعة والدعوة إليها. والحديث الشريف الذي يقول "إنما الصبرُ عند الصَّدمة الأُولى"[١] يصور هذا المعنى. وإلا فإن الصبر الذي يعقب الهزة والصدمة الأولى وبعد لباس العافية والأمن فليس صبراً بالمعنى الكامل.

من المفيد هنا الإشارة إلى أمر، وهو أن اكبر صبر هو الصبر على طاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه. ذلك لأن الإنسان لا يصل إلى برج التوحيد ولا إلى افق العبودية إلا بالطاعة. وبعد هذه المرتبة يكون الإنسان مستعداً للخضوع لجميع ما يأتي من قبل الله تعالى.

وهنا نريد أن نقول للذين عزموا على المضي في السياحة نحو الأبدية: إن كنتم عازمين على المضي نحو غاية تفوح من جوانبها كافةً رائحة الأبدية، فإن الوصول إلى مثل هذه الغاية يحتاج إلى سلوك طريق طويل وشاق. وحسب قاعدة "بقدر الكد تكتسب المعالي" فإن الطريق نحو الذرى يمر من الجبال والأودية والقمم، ويتعرض سالك هذا الطريق إلى العديد من المصاعب والمشاق. لأن هناك في داخل الإنسان نفساً أمارة بالسوء معرضة ومفتوحة لوساوس الشيطان وإيحاءاته وغواياته، وفي خارج الإنسان هناك الملحدون والمنكرون والظالمون الذين يقومون بشتى أنواع الظلم والبغي

---

(١) البخاري، الجنائز ٣٢، ٤٣؛ الأحكام ١١؛ مسلم، الجنائز ١٤-١٥.

والهجوم والغدر. وهكذا فستعيشون على الدوام في أزمات مادية ومعنوية، تحاولون التحمل وانتم تصرون على أسنانكم، وفي الوقت نفسه قد تضطرون إلى تهيئة الأجوبة لكثير من الأمور التي تأتي من اليمين ومن الشمال في كل آن. فإن لم تكونوا مستعدين لهذا ومسلمين من الناحية الروحية والجسدية، و لم تكونوا قد تدربتم تدريباً جدياً ورضتم أنفسكم الرياضة المعنوية المطلوبة وبالمقياس المطلوب ضعتم في هذا الطريق وهتم، و لم تستطيعوا مواصلة السير فيه، أو هو يتم في وادٍ من الوديان المعنوية المخالفة لأفكاركم الأساسية ولمشاعركم.

الحصن الأول تجاه هذه المخاطر المحتملة هو الاعتصام بالصبر، لأنه سيكون الأرضية الصلبة التي لا تزل عليها أقدامكم. إن قدر النجاح يخطط تحت مظلة الصبر، وبلوحة الصبر يتوضح مفترق طريق الخير وطريق الشر. كما لا تتحقق العبودية الحقة لله تعالى إلا بعلاج الصبر ومنشطاته. وبالصبر يمكن الصعود إلى مراتب حقائق الإيمان والإسلام والإحسان. وإذا كان للإنسان هدف طوال حياته للانتقال من الإيمان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى المحبة وإلى المخافة، ويريد تذوق طعم الأذواق الروحية والوصول إلى الوصال الحقيقي... إن كان له مثل هذا الهدف عليه أن يتزود بزاد الصبر الذي يكون سند قوته ومنبعها وصاحبه الذي لا يفارقه.

فإن فكرنا في أنواع الصبر، عرفنا أنه الفقرة أو المادة الأولى في الوصفة المكتوبة لرقي بني الإنسان.

إن الصلاة -التي تحوي على تمرين على الصبر أيضاً- أهم وسيلة لاستقرار الإيمان وتصفية الروح والوصول إلى صحة الجسد، واهم وسيلة في التفاهم والوفاق والتلاحم الاجتماعي، وهي أوضح ظاهرة لكيان الأمة. وهي رأس جميع العبادات، وطريق وخط سفينة الدين، والسلم النوراني لمعراج القلب.

وكل من جعل إيمانه جزءً من طبيعته بالصلاة وأداة ينقي بـــها روحه ويصفيه ويوسع ويعمق حياته القلبية، ويشعر في جوها الدافئ اللين بأنـــه ضمن أمة كالبنيان المرصوص... كل من وفق إلى هذا اســـتطاع بسهولة تجاوز جميع مصاعب طريق العبودية والوصول إلى هدفه.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧]

نرى في هاتين الآيتين أن الله تعالى يقدم نفسه بصفة "شــاكر" مع أنه "مشكور". وحسب رأيي العاجز فإن ما يراد الإشــارة إليه هنا هو مبدأ "المقابلة". أي أن الله جل وعلا يقوم بمقابلة أفعال عباده تجاهه من جنس أعمالهم، وهذا من الخلق الإلهي. ولا يقتصر هذا على موضوع الشكر، بل نجد المقابلة في الآيات القرآنية وفي الأحاديث الشريفة في سائر المسائل الأخرى فمثلاً ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٣٩).

والنبي ﷺ يروي عن ربه فيقول: "إذا تقرَّب العبدُ إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب منّي ذراعاً تقربتُ منه بَاعاً، وإذا أتاني مَشياً أتَيتُه هَروَلةً...".(١)

أجل! إن ما نريد الإشارة إليه هنا هو أن النعمة مهما كان مصدرها يجب مقابلتها. فإن تذكرنا الحقيقة التي أشار إليها الإمام بديع الزمان النورسي في الكلمة الأولى من أن الإنسان يعطي البقال أو بائع الفواكه دراهم مقابل ما يشتريه منه. حسناً... ولكن ماذا نفعل تجاه الله تعالى مالك وخالق كل شيء وواهبه؟ أو ماذا يريد هو منا؟ طبعاً يجب أن تكون مقابلتنا لنعمه هذه حسب ما أراده منا.

---

(١) البخاري، التوحيد ٥؛ التوبة ١؛ مسلم، الذكر ٢، ٣، ٢٠-٢٢.

ولا تتغير المسألة إن أخذناها من ناحية العذاب. لننظر مثلاً إلى الآيات الآتية ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢) ﴿وَمَكَرُوا وَمَكرَ اللهُ﴾ (آل عمران: ٥٤). ويجب أن نفهم هذه الآيات في ضوء الآية ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ لأنه لا يجوز إسناد الأفعال السيئة لله تعالى.

أجل! لا يدع الله تعالى مقابلة من أخذ فشكر فأعطى راغباً في رضاه، ولا مقابلة من أخذ فجحد وعندما أعطى بخل أو ابطل صدقاته بالمن والأذى. أما الذين يقابلون النعم بالشكر، فهم يعلمون أن ما وهبهم الله تعالى هو من عادات الخلق الإلهي، لذا يجب عدم البخل به على الآخرين وهذا سيكون سبباً لنعم جديدة ووسيلة من وسائل القرب إلى الله تعالى. وهكذا يدخلون في دائرة خيرة، ينتج الخير فيها خيراً آخر، لكي يصلوا في نهاية المطاف إلى أفق المعية وما يزال العبد المؤمن يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه كان الله سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.[1] فلا يسمع إلا خيراً ولا يرى إلاّ خيراً. ويصان من انحراف زاوية النظر، ويأخذ من كل ما يراه درس عرفان، ويصبح قلبه مخزن حكمة وعرفان.

---

(١) ومثل هذا العبد الذي يقضي حياته ضمن جو من الرقي والسمو بالفرائض والنوافل يكون ممن ذكرهم الحديث الشريف. انظر: البخاري، الرقاق ١٨.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]

أحسب أن هذه الآية الكريمة تشير إلى الحقيقة الكلية الآتية:

يجب ألا يكون هناك عند المؤمن في الحب الإرادي أي حب يفوق حب الله تعالى. إن انقلاب الحب إلى طبيعة وشعور يسري في كيان الإنسان ويجعله محباً ولهاً يحتاج إلى زمن، ويكون بنسبة نصيب ذلك الإنسان من المعرفة الإلهية. والحب الإرادي علاقة وترجيح حيث يشير الحديث الشريف "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس جميعاً"[(١)] إلى هذه المرتبة. والحقيقة أن الحب الحقيقي يبدأ بهذه الخطوة الأولى. وإذا جئنا إلى مشاعر الحب الفطرية عند الإنسان كحب الإنسان لوالديه وزوجته وماله... الخ فيجب أن يكون هذا الحب ضمن الإطار الذي أمر به الله تعالى، وإلا ساق الله تعالى عبده إلى امتحانات في الحياة الدنيا بمختلف الوسائل ويؤاخذه عليه، أو يؤخر ذلك إلى يوم القيامة. والخلاصة أن المؤمن هو إنسان متوازن وعليه أن يحفظ هذا التوازن في كل آن ويصونه في وجه جميع رغباته الأخرى وشهواته.

أجل! هناك أناس يبالغون في تعظيم بعض الأفراد إلى درجة الألوهية ويقولون "هو ربنا ومعبودنا وإلهنا". ويتحدثون عن خلقه لهم ويطنبون في مدح إدارته ويضعونه موضع المعبود المطلق. ومع أن بعضهم لا يصرح بمثل هذه الأفكار والمشاعر، إلا أنهم بآمالهم المعقودة عليه وتوجههم نحوه وإبدائهم العلاقة والاهتمام نفسه يرتكبون الشرك نفسه. فإن أطلقنا صفة

---

(١) مسلم، الإيمان ٦٩-٧٠؛ البخاري، الإيمان ٨؛ الأيمان ٣.

"الشـــرك الصريح" على الطائفة الأولى، كانت الطائفة الثانية في "شـــرك ضمني" وفي شرك غير مباشـــر. والآية الكريمة تزجر الطائفة الأولى زجراً شديداً، كما تنبه الطائفة الثانية وتحذرها.

ثم إن هذه الآية تقوم تنشئ جسراً بين الألوهيـــة وبين المحبة، وتجذب الأنظار إلى شعور المحبة الموجود بين الإنسان وبين ما يعتقد أنه معبوده وإلهه فإن كانت القلوب تقبل الخضوع لهذه الآلهة وتطيعها، فإن على المؤمنين أن يفتحوا صدورهم على سعتها، وقلوبـــهم على مصاريعها لحب الله تعالى، وأن يركزوا نظرهم على مرضاته وأن يعلموا أن القيمة الحقيقية لحياتهم متوقفة على الاستماع لأوامره وفعل ما يرضاه وما يحبه لنا، وأن تكون مرضاته هي الهدف.

والذين لا يحبونه ســـيبقون على الدوام في قلق على مصيرهم وعلى عاقبتهم المجهولة وعلى خوف. أمـــا المؤمنون الحقيقيون فهم على وعي بالمقياس الصحيح والمحسوب بدقة والذي وضعه للمؤمنين الأنبياء والأولياء والأصفياء -الذين كانوا السبب في إيمانـــهم وفي زيادة معرفتهم بالله تعالى- وأن يكون التوحيد ميزان هـــذا الحب ومحوره. فهم يحبون الله أولاً محبة تتجاوز العشق والوجد، ولهذا السبب فهم يحسون بعلاقة نسبية تجاه كل شيء آخر غيره. فهم لا يحبون أي شيء آخر مثل حبهم لله، بل بحب نسبي حسب قرب هذا الشيء من الله ومن رضاه. ومثل هذا الحب يكون حباً رصيناً وباقياً لا يزول ولا يهتز. لأنه حب نابع من العقل ومن القلب ومن المنطق.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]

لا يوجد في الدين -كقاعدة عامة- أي اكراه. وما يبدو شيئاً صعباً يكون وسيلة لليسر. فقصر الصلاة في اثناء السفر، وترخيص الإفطار في شهر رمضان لحالات خاصة وتشريع التيمم، كل هذه امور يتم الاتجاه فيها للتيسير والترخيص في مواضع المشقة والجهد. بل حتى تم العفو عن الأخطاء المرتكبة نتيجة النسيان، فمن يشرب أو يأكل ناسياً في شهر رمضان لا يفسد صومه بل يعد هدية من الله تعالى. وقد رفعت أنواع من التكاليف سواء لأسباب أصلية أو لأسباب عارضة وسلك سبيل التيسير. لذا يمكن القول بأنه يوجد العديد من أنواع التكاليف والعبادات الجميلة التي يعد كل منها أساساً في الوصول إلى السعادة الأبدية، مثل مقاومة النفس الأمارة بالسوء، والسمو الروحي والتعود على الصبر والاستعداد للآخرة واكتساب نعمة الفوز فيها، ولكن ما إن تبدو هناك امارات المشقة فيها حتى يتم تبديلها ببدل بسيط وسهل، أو تخلي مكانها تماماً، وتربط خزائن الثواب بالباب الواسع للنية، وذلك مثل قضاء الصلاة فيما بعد أو اعطاء فدية بسيطة. أو رفع التكليف تماماً عند وقوع العجز التام.

وصعوبة أو سهولة الانقياد للأوامر الدينية تكون متناسبة طردياً مع الحالة الروحية للأشخاص ومستوى التعليم عندهم وما تعودوا عليه...الخ. لأن الدين يجمع بين كافة درجات المجتمع. أي أن جميع منتسبي الدين سواءً أكانوا أساتذة أم عمالاً أم خدماً، ذكوراً أم إناثاً يستطيعون التزود من الدين حسب حاجاتهم وقابلياتهم. ويستطيع الجميع تذوق حلاوة الانقياد لأوامر هذا الدين ونواهيه كل حسب مستواه. ولكن إن نظرنا إلى القيم الذاتية لأوامر الإسلام ونواهيه نراها مملوءة ومشحونة بالسهولة واليسر والتسامح واللين.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾

[البقرة: ١٨٦]

عبّر الله تعالى في مناسبات عديدة عن قربه من عباده، وهنا أيضاً يقول إني قريب من عبادي، أجل! إن الله قريب جداً من عباده. ولكن العبد يعرف الله تعالى حسب المرتبـــة التي بلغها بخلوص أعماله وانكشاف مشاعره... الخ. ولاشك أن معرفة الرسول ﷺ بالله تعالى بوجدانه ليست كمعرفة أي فرد من أفراد أمته وإن كان من الأولياء. والمهم هنا في هذا الموضوع هو محاولة العبد رفع درجته في معرفة الله تعالى وبذل الجهد في هذا المضمار من جهة وقيامه من جهة أخرى بإيفاء حق هذه المراتب التي يبلغها، أو محاولة إيفاء هذا الحق. أي على العبد العيش من ناحية المشاعر والجو الفكري ومن ناحية العمل بالشكل الذي توجبه تلك المرتبة وأن يقضي حياته في هذا المضمار. وإلا كان من المحتمل سقوطه من شاهق إلى وادٍ عميق.

ونحن نرى هنا قبل كل شيء أن بشارة قرب الله تعالى قد رُبطت بسرعة الاستجابة للدعاء. وإن هذا القرب -الخارج عن الأبعاد الكمية والكيفية، وخارج جميع منافذها- مرتبط بالدعاء الخالص المتوجه إليه ونتيجة له.

وبجانب هذا تجب الإشارة إلى أن تأثير الدعاء هو خارج سلسلة الأسباب والمسببات، لذا فبعد إسكات أصوات الماديين والطبيعيين يجب إيضاح أن الأسباب والقوانين الطبيعية هي من مخلوقات الله تعالى وأنـــها لا تحدد الإرادة والمشيئة الإلهية ولا تتحكم فيها ولا تستطيع ذلك أصلاً، وأن

الله تعالى إن شاء يستطيع -إلى جانب الاطراد الموجود في الطبيعة- القيام بتغيير كل شيء بالحوادث الخارقة التي يخلقها كالمعجزات والكرامات، وأن يستجيب للتضرعات والتوسلات والأدعية فيخلق أموراً هي فوق الأسباب.
وكما تشير الآية إلى هذا فهي تذكر أيضاً بقربه الخارج عن الكم والكيف "أي لا يحدده كمّ ولا كيف"، وأن الدعاء لا يكون بالصراخ -وكأنه يخاطب أصماً- لأنه يسمع كل همسة وكل خاطرة من خواطر القلب والنفس مثلما يسمع الأصوات العالية. لذا يجب أن يتم الدعاء بشكل مناسب وفي إطار الأدب الواجب نحو سلطان السموات والأرض الذي يقول ﴿وَنَحْنُ اَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦). ثم إنه بمقتضى قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦) فإن الذين يمتثلون لأوامره من صميم قلوبهم ويستهدفون الوصول في كل عمل من أعمالهم إلى الإيمان الكامل يكونون هم الراشدين والواصلين إلى غاياتهم وأهدافهم، لأن العبد بدرجة تجرده من أهوائه وضعفه النفسي وبدرجة التجائه إلى الله تعالى يكون قد فوض أمره للحق تعالى الذي يقوم بإهداء إحسانه الخاص إليه وتأييده الخاص ومعاملته الخاصة ولطفه الإضافي الذي يقوم بما لا تقوم به آلاف الأسباب في آلاف السنين.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]

يمكن إيراد ما قاله الصحابي ابن عمر في أثناء الحوادث التي جرت بين عبد الله بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفي عندما أتى إليه رجلان فقالا له: "إن الناسَ صنعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرّم دم أخي فقالا: ألم يقل الله "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة" فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله".(١)

كان رسول الله ﷺ في العهد المكي -الذي يشكل اكثر من نصف عهد النبوة- يوصي المسلمين بأن يكونوا متسامحين وليني الجانب حتى يأتي أمر آخر من الله تعالى. كل ذلك في إطار ﴿ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). وطوال ثلاثة عشر عاماً أو أربعة عشر عاماً قابل المسلمون جميع تصرفات المشركين المتسمة بالظلم والجور والحقد والنفور والاعتداء والقهر بالعفو والتسامح والمحبة. وبعد إخفاق تصرفهم هذا في تليين القلوب القاسية للطرف المقابل، تم الانتقال إلى عهد استعمال القوة وذلك لغاية واحدة وهي منع الاعتداء على الدين وإيقاف الأنفس البريئة وإذلال الأجيال القادمة.

أي العفو والصفح أولاً ثم الدفاع عن النفس. كان هذا ضرورياً لدين عالمي في عالم يدين بقانون القوة ويستعين بـــها لإظهار الباطل حقاً. وكان ضرورياً لإيقاف أعداء الدين عند حدهم، وكذلك لضبط الميول وتنظيمها وكذلك للْحَدِّ من نـــزوع النفس الأمّارة بالسوء نحو مقاتلة الآخرين

(١) البخاري، تفسير القرآن، ٣٠؛ المعجم الأوسط للطبراني ١/١٣٤.

والتسلط عليهم. كل هذه الأسـباب كانت وراء إعطاء الرسول ﷺ - الموصوف في الكتب السماوية السابقة بأنه "صاحب السيف"- الإذن بالجهاد والقتال. فكما تعلَّمَ كيف يقاتل تعلّم كيف يصالح، ولولا مثل هذه الدراية النبوية لم يكن بالإمكان السيطرة على نـزاع النفس التي من طبيعتها القتل والعدوانية. لأنه عندما يجعل مشاعره هي الحكم عند بدء النـزاع والقتال فلن يكون هناك هدف إلا إراقة برك من الدماء وإلا صنع "أبطال!!" حرب دمويين. ومن المعلوم طبيعة القرارات التي يصدرها هؤلاء. لذا قام القرآن الكريم والسنة النبوية بعلاج الثغرات وسدّ منابعها في الطبيعة البشرية وضبطها ووضعها ضمن نظام واضح المعالم، وسد جميع الأبواب المؤدية إلى الشرور والنابعة من الأهواء والنـزوات البشرية، وذلك بوضع أساس واضح من الحروب الدفاعية أولاً ثم الحروب الهجومية متى ما توفرت الشروط والظروف الضرورية.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

[البقرة: ٢١٣]

يقول بعض المفسرين في تفسير ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بأن بني آدم كانوا بأجمعهم كفاراً فأرسل الله تعالى نوحاً عليه السلام ثم الأنبياء الآخرين. ولكن هذا التفسير ليس صحيحاً على الإطلاق. فقد وجد الناس منذ عهد آدم عليه السلام حتى الآن في كل عهد إمكانية الاهتداء بأحد الأنبياء واتباع طريقه والسمو بنفسه، أي وُجدت هذه الفرصة على الدوام، فمنهم من استفاد منها ومنهم من لم يستفد وبقي على حاله. ولكنه على أي حال لم يبق منذ البداية دون مرشد. ومع أن بعضهم اختلفوا بسبب الرسالات الجديدة التي أرسل بها الأنبياء، غير أن ما جاءت به بعثة الأنبياء من الهداية أكثر بكثير من هذا الاختلاف.

وحسب رأي بديع الزمان النورسي فانه لو عاشت عشر فسائل من ضمن مائة فسيلة وأصبحت أشجاراً باسقة فلا يقال بأن صاحبها الزارع قد خسر. كذلك لو اهتدى عشرة من ضمن مائة من الناس وآمنوا وعاشوا وهم يدركون سبب خلقهم وغايته فهذا يكفي لكي يتخلص عموم الناس من عبثية الخلق.

أجل! كان الناس الأوائل أمة واحدة بفضل الأنبياء الذين كان مجيئهم من اصل واحد ومصدر واحد ونزول رسالاتهم من سماء واحدة، وما خلفته هذه الرسالات من تأثير في وجداهم ساقهم إلى أن يكونوا جماعة واحدة، فلم يكونوا متوحشين ولم تكن نفوسهم خالية من الدين ومن الإيمان ولم يكونوا معتدين. ثم اختلفوا لبعض الأسباب العارضة وفسدت وحدتهم. وقد قام الإنسان الأول الذي كان في الوقت نفسه النبي الأول بدور التوحيد

والائتلاف مدة طويلة. ثم بدأت بعض الطباع التي ركزت في الإنسان -لأجل تطمين بعض مصالحه وكذلك من أجل امتحانه- تبدي تأثيرها ومفعولها. فأخـــذت نـــزوات العواطف والرغبات تحل محل العقل والمنطق، وحلت الأهواء محل الهداية. وهكذا انـــهزمت الوحدة والائتلاف أمام الخلاف. ولكن الله تعالى الذي فطر الإنسان في الأصل على أساس الاستقامة والصفاء، أرسل أنبياء جدداً لكي يزيل العقبات الموجودة بين قلب الإنسان والحقائق ويريه عاقبة الشر ويزرع في قلبه الأمل بالخير، ويدعوه للحذر واليقظة.

ولكن بعضهم لم يستطع الخلاص من أســـر الأهواء والشهوات، ولم يستطع آخرون منع أنفسهم من الاستمرار في طريق الظلم والكبرياء، وهذا أدى إلى استمرار الخلاف وتعاظمه، ولكن بطرق مختلفة وأساليب أخرى وإن كانت مختلفة عن السابق.

والحقيقة أن الخلافات الأولى بين الناس كانت نتيجة شحوب الحقائق في نظرهم وانقلابها إلى حقائق باهتة ثم انحلالها وحلول أشياء أخرى محلها. أما الخلافات الثانية فكان مبعثها إما الحسد أو الغلو وما يؤدي إليه من تأويلات وتفسيرات خاطئة بعد ما وضحت الحقائق وبانت جميع النقاط الغامضة بالحجة والبرهان، أو الدخول في اجتهادات سطحية مبعثها الهوى على الرغم من البراهين والحجج الإلهية.

هذا مع العلم أن الله تعالى كان قد أزال جميع الثغرات في مسائل الاجتهاد بآياته البينات وسد جميع الطرق المؤدية إلى التفسيرات النابعة من الأهواء. وتستطيع إن أردت أن تعبر عن هذا بلسان الفقهاء فتقول "لا اجتهاد مع النص".

أجل! فهؤلاء لم يأخذوا بالآيات التي تدعو إلى الاتفاق وتكون وسيلة له، بل هرعوا وراء الاجتهادات القائمة على الأهواء والمؤدية إلى الفرقة والخلاف، وهذا جعلهم يهوون في وديان الخلاف والشقاق والانحراف.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨]

أولاً يجب معرفة معنى السكينة جيداً. فالسكينة تأتي من الناحية اللغوية بمعاني الجد والوقار والثبات والاطمئنان أو بمعنى الآية أو المعجزة التي تريح الإنسان، أي المعجزة التي عندما يراها الإنسان بعينيه ويشعر بها بوجدانه يحس براحة وسكينة في روحه، أي أن السكينة تظهر بتجليات مختلفة ولها قابلية كبيرة على التمثل في صور مختلفة.

على أي حال فقد كانت بقية مباركة خلفها أنبياء عظام سابقون، وكانت النفوس تجد فيها السكينة والاطمئنان. ولما كانت السكينة في التابوت، فقد عد التابوت نفسه سكينة ووسيلة للتبرك. عد كذلك لأن الملائكة –وهم أبطال هذه الحادثة– قاموا بحمله، مما أعطى للتابوت منزلة وقيمة كبيرة. كما أن تعظيم الملائكة للتابوت مثل هذا التعظيم يعلن ويدل على مدى قيمته المباركة.

والسكينة المذكورة في القرآن والسنة هي تجل ملكوتي ذو صفة أخروية أي من العالم الغيبي يهبها الله تعالى لبعض الناس، فيعطى القوت والقوة للقلوب والنور للإرادة. قد تأتي هذه السكينة نتيجة أدعية أنصار الله، وقد تأتي فجأة ودون طلب، بل رعاية لحال معينة ولطفاً بها. أي هي نعمة وفضل تحف به الأسرار، بحيث يشعر من مُنحها ودخل في جوها شعور من دخل

العالم الآخر وعاينه. وقال بعضهم في معنى السكينة أنه نـــزول الملائكة، وقال آخرون أنه قدوم المخلوقات الروحانية. وسواءً أكانت السكينة نـــزول الملائكة أو نـــزول المخلوقات الروحانية الأخرى من غير الملائكة، فانه ما أن تنـــزل السكينة في مكان حتى تنـــزل المنة الإلهية أيضاً... تنـــزل المنة الإلهية فتحيل جو ذلك المكان إلى جو مشبع بالطمأنينة بحيث لو انـــهمر الموت في ذلك المكان لما تحرك من نـــزلت عليه السكينة قيد أنملة... هاكم مثالاً على هذا في وقعة الخندق التي زلزل فيها المؤمنون زلزالاً شديداً، والتي تلوى فيها المؤمنون أياماً في القبضة الحديدية للحصار، ولكنهم مع هذا بقوا أبطالاً صامدين. وهاكم مثال أبطال "أحد" الذين تحدوا الموت وتحدوا الزلزال الشديد الذي هز كل شيء من أساسه... لم تكن معركة "أحد" شيئاً هيناً أبداً، فقد استشهد فيها سبعون صحابياً وعلى رأسهم حمزة ﵁. ولكن عندما انجدهم الله وانـــزل عليهم السكينة زأروا زئير الأسد ولملموا جراحاهم، وقاموا في اليوم التالي للمعركة بالخروج بسرية جديدة، حتى إن بعضهم كانوا يحملون إخوانـــهم الجرحى الذين خرجوا معهم، وهم لا يكادون يستطيعون السير بسبب جروحهم، وبدأوا يتعقبون العدو. وعندما علم أبو سفيان بـــهذا وتأكد لديه عزم هؤلاء على تعقبهم حتى مكة أسرع بإعطاء الأمر إلى جيشه بالرجوع والهرب إلى مكة لكي لا يضيع حصة النصر الضئيلة التي حصل عليها.

ونظراً لخواص السكينة التي ذكرناها أعلاه فقد أصبحت يطلبه الفرد لنفسه أو تطلبه الجماعة كلها لنفسها. لذا نرى الرسول ﷺ وصحابته الكرام ينشدون وهم يحفرون الخندق قبيل قدوم العدو ويقولون: "فأنـــزلن سكينةً علينا".[١]

ولكن السكينة لا تنـــزل ولا تتجلى لكل إنسان أو في كل قوم بالصورة

---

(١) البخاري، المغازي ٢٩؛ مسلم، الجهاد ١٢٣-١٢٥.

نفسها. ففي نـــزول الســـكينة -التي يمكننا تعريفها بأنـــها لطف من الله تعالى وهبة- يؤخذ على الدوام وضع الأفراد أو المجتمعات بنظر الاعتبار. فقد تمثلت السكينة في بدر بالملائكة النازلين إلى ساحة المعركة. أما السكينة التي نـــزلت على أسيد بن حضير. وهو يقرأ القرآن فقد تجلت في شكل غمامة. وتمثلت السكينة التي نـــزلت على قلب الرســـول ﷺ وهو في غار ثور مع صاحبه أبي بكر الصديق ﷺ بشكل اطمئنان قلبي وتوكل كلي على الله تعالى على الرغم من القلق الشديد لصاحبه عليه. وتجلت في الهجرة بشكل ثقة واطمئنان في قلب علي ﷺ الذي نام في فراش الرسول ﷺ وهو يعلم أنه سيكون هدفاً للسيوف الحاقدة.

أما بنو اسرائيل، فعلينا قبل كل شيء تثبيت الحقيقة الآتية، وهي أن اكثر ما يميز هذا القوم المعروفين تاريخياً هو أن السكينة قدمت لهم بشكل تلمسه اليد وتراه العين مراعاة لمشاعرهم وأفكارهم وخصوصيات حياتـــهم وسلوكهم الخاص، أي قدمت لهم بشكل ملموس ومشاهد ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥). وورود أداة النفي "لن" هنا يعني أنـــهم وطنوا أنفسهم على عدم الإيمان بسهولة. ونحب هنا أن نستطرد فنقول كان من الصعب على النبي عيسى عليه السلام القيام بوظيفة النبوة بين هؤلاء القوم الذين يربطون كل شيء بما تراه أعينهم، لأنه كان يمثل القيمة في الروحانية والغيبية. وكان لذلك حكمة إلهية، فنبوة عيسى عليه السلام التي غلب عليها الطابع الروحاني كانت تستهدف تعديل هذا الجانب المادي الصلب عند اليهود، وفي الوقت نفسه كانت تمهيداً لنبوة رسولنا ﷺ. وقضى النبي عيسى عليه السلام حياته محاولاً تحقيق رسالته هذه. حاول هذا وقدم رسالته إليهم حسب مستواهم. ولم يذكر لهم أي شيء يستغربونه أو لا يقبلونه بل قال لهم: "عندي الكثير مما أريد قوله لكم، وسيقوله لكم فاراقليط عندما يأتي".(١) لم يذكر عيسى عليه السلام

(١) إنجيل يوحنا، الباب ١٤، خلاصة ١٥، ١٦، ٢٦، ٢٧؛ الباب ١٦، خلاصة ٧، ٨.

لهم أي شيء يتجاوز نطاق تصوراتـــهم وفهمهم ومستوى إدراكهم. ومع هذا حاول البعض من ضعاف الأخلاق الذيـــن أعمت المادية أبصارهم و لم يستطيعوا حتى هضم هذا وقبوله، لذلك فقد قـــام بعضٌ من أذناب البيزنطيين بمحاولة قتل هذا النبي الكريم.

فلو نـــزلت السكينة على مثل هذا القوم بالطابع الروحاني الذي نـــزل على رسولنا ﷺ وعلى علي رضي الله عنه وعلى أُسيد بن خضير رضي الله عنه لما استطاع هذا القوم فهم أي شيء منها. لذا نرى أن السكينة التي نـــزلت على مثل هؤلاء كانت ذات طابـــع مادي، وذات طابع قدسي بالشكل الـــذي يفهمونه، فكانت أمانات مقدسة من مخلفات الأنبياء يوسف وموسى وهارون عليهم السلام داخل تابوت كان قد فقد.

يمكن تقييم مجيء السكينة داخل تابوت من الناحية الظاهرية ومن الناحية الباطنية كذلك. فمن الناحية الظاهرية:

١- يُظهر قدرة الله تعالى.

٢- يزيد من ثقة النبي المبشر من اطمئنانه.

أما من الناحية الباطنية فهي القوة والقدرة التي يأخذها اليهود من مثل هذه الحوادث التي تجري في أفق الخوارق والمعجزات. إلاّ أنّ قابلية الأفراد واستعدادهم لتلقي هذه السكينة يختلف باختلاف طاقاتهم الروحية. فالحصة التي يحوزها الفرد منها ذو الطاقة الكبيرة تختلف دون شـــك عن حصة الشخص الذي لا يملك مثل هذه القابلية والاستيعاب، والذي يعالج كل ما يواجهه من أحداث من زاوية النقد والتجريح.

وقد يكون التابوت رمزا إلى أن هؤلاء القوم -في وقت ما أو عهد ما- كانوا أمواتاً من ناحية الأحاسيس والفكر والإيمان. أو أن تجسم السكينة في التابوت كان يرمز إلى بعث هذه الجماعة وإحيائها من جديد. ولهذا السبب كان النبي داود عليه السلام يضع التابوت في مقدمة الجيش، وينقله معه أينما ذهب.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

[البقرة: ٢٥١]

يوجه الله تعالى أنظارنا في هذه الآية الكريمة -علاوة على أمور عدة- حول وجود ميزان وتوازن ومقياس في عالم الإنسان كوجوده في عالم الطبيعة والبيئة. فكل شيء قد وضع له نظام ومقياس معين وقواعد معينة. لذا ومن أجل تأمين مثل هذا التوازن لحساب الإنسانية ومن أجلها يهدينا الله تعالى إلى سواء السبيل ويخلق في جوانحنا الميل نحو الكفاح في هذا السبيل. ذلك لأن هذه النتيجة يجب أن تتحقق بيد الإنسان في دائرة الأسباب، وإلا أصبحت الدنيا مكانا لا يطاق فيه العيش مثلما ذكرت الآية الكريمة.

أجل! إن لم يتم تطويع بعض المشاعر المركوزة في طبيعة الإنسان -لغايات وحكم معينة- وترويضها بوساطة المبادئ الدينية وقيمها فإن الإنسان لن يكون بعيداً عن التخريب وعن الظلم والاعتداء. فإن لم يكن هناك أناس قد طوروا مشاعرهم الإنسانية بالإيمان والإسلام وأصبحوا جنوداً للحق وللنظام، ناشرين الأمن والطمأنينة كانت الدنيا عالماً للمتجاوزين حدودهم والمعتدين وساد الظلم والذلة فيها. أما من ناحية العلاقات والتوازنات الدولية فإن الأمن والثقة بين الدول وبين المجتمعات تكون مفقودة وتصبح الأمور في يد الدول الغالبة والمفسدة. وهذا معناه هزيمة الإنسانية وتقلبها في أحضان الفساد والفوضى. في مثل هذا الجو لا يمكن الحديث عن العيش كإنسان ولا عن العلم ولا عن الفن ولا عن الإيمان، ولا يبقى هناك أمن أو ثقة لا في الأمة ولا في المجتمع. وإذا ساد مثل هذا الجو الذي تسود فيه الفوضى يكون الناس ذئاباً ويرى القوي أن الحق بجانبه على الدوام ويعرف

أنه بنسبة قوته يكون محقاً فيبذل جهده للحصول على مزيد من القوة، ويضع القوانين حسب أهوائه، أي يحاول أن يقيم عالماً تسود فيه فلسفة عرجاء ومشاعر أنانية.

لكي لا تنشأ مثل هذه الأوضاع السلبية والعرجاء، ولكي يتم تعديل النيات الظالمة والمعتدية خلق الله تعالى المؤمن المنصف تجاه الكافر الخالي من الإنصاف، وأهل الحق تجاه أهل الظلم، وأهل العدل تجاه المعتدين، وأهل المحبة تجاه أهل التعسف والتسلط. وذلك لكي يتم تأسيس توازن بين الناس كالتوازن الموجود في الطبيعة، ولكي لا تنقلب الدنيا إلى مستنقع قوة وأهواء وشهوات.

لذا كان من واجب أهل العقل والإيمان والعرفان القيام بإنقاذ العالم إن كان الفساد قد استشرى فيه، فإن لم يكن العالم قد فسد بذل الجهد من أجل استمرار الصلاح إن كان هناك أي احتمال لحدوث الفساد ومجيئه، والقيام بالسيطرة على أنصار الشغب والفوضى والفساد وعدم إفساح المجال للمزيد من الإفساد. ولا يكون هذا إلا بفتح دور العلم والتربية والتثقيف، وفتح مراكز الإرشاد والتوعية، وتكوين المؤسسات الضرورية في هذا المجال، ووضع البدائل العديدة في هذا الصدد، وسد كل منافذ وثغرات الفتنة والفساد، وعدم السماح بفتح أي باب محتمل للفتنة. ولينزل فضل الله تعالى وكرمه على من يستطيع تنفيذ هذا، إن النجاح في تنفيذ هذا وتطبيقه سيكون وسام فخر ووسام فضيلة لا يقدر بثمن على صدور القائمين به.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

أجل، هو المعبود الأحد، لا معبود سواه. لا يوجد معبود سواه لأن جميع الموجودات من الأزل إلى الأبد ليست إلا ظلالاً من نور وجوده، وكل صور الحياة الموجودة في كل أنحاء الكون انعكاس من نوره، وكل موجود وكل كائن هو جلوة صغيرة يستمد وجوده من قيوميته تعالى. وجوده تعالى من نفسه، وحياته وقيوميته من ذاته. كل موجود سواه منه ومن تجلي صفاته وأسمائه الحسنى.

هو الحي القيوم الذي لا يوجد أي شيء قائم بنفسه دون أن يستند إليه، ولا يمكن لأي موجود إدامة وجوده دونه. ولا يمكن إيراد أي تفسير وإيضاح للغز الحياة دون أخذ قيوميته تعالى -التي تعني قيامه بذاته، وقيام كل شيء بـــه- بنظر الاعتبار. ولا يمكن أبداً إقامة أي أساس صحيح ومعقول لتفسير عالم الوجود ولا دوام هذا العالم إلا به. هو الذات الأوحد والأعظم، وهذان الاسمان من اسمه الأعظم. كل الأشـــياء والحوادث تجل من تجلياته، والكون كتاب لهذا التجلي، موضوع أمام بني الإنسان ليتفرجوا عليه وليطالعوه وليتأملوه تأمل سائح يريد مطالعة هذا الكتاب وقراءته. والأنبياء والمرسلون هم بمثابة مرشدين ومفسرين لهذا الكتاب. والكتب السماوية ولا سيما القرآن الكريم أفضل مفسر لهذا الكتاب المذهل الذي يخطف الأبصار بمحتواه وأكثره حيوية وتلوناً وبلاغة.

ويقول رسول الله ﷺ عن آية الكرسي إنها أكبر آية في كتاب الله وأهمها "وفيها آية هي سيدة آي القرآن هي آية الكرسي".[1] وتأتي هذه الأهمية من:

(١) الترمذي، ثواب القرآن ٢.

١- الأهمية من ناحية المحتوى، لأنها تعلم التوحيد الخالص، وتكون ترجمانا لـــ"صفات الله تعالى".[١] وهي بشكل مجمل مثل سورة الإخلاص، حتى إن الرسول ﷺ كان يقرأ سورة الإخلاص في العهد المكي جواباً لكل سؤال يوَجَّهُ اليه حول الله تعالى. أجل إن كل سورة في القرآن الكريم تملك قيمة سامية، ولكن درجة فضائلها تختلف حسب محتواها.

٢- وتتعلق الأهمية أيضاً بالأجوبة الخارقة التي تعطيها للقارئين لهذه الآيات والسور، وهي تتناسب طرديا مع مستوى إدراك القارئ وسعة أفقه وعمق عالمه الداخلي.أجل إن أهم عامل يلعب دوره في هذا الخصوص هو توجه القلب إلى الله بإيمان عميق. ويشرح الرسول ﷺ هذا الأمر في حديث لــــه حول شهر رمضان فيقول: "من صام رمضان إيمانا واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه".[٢] ويتبين من هذا أن الإخلاص هــــو لب جميع الأعمال وأساسها وروحها.

القيّوم: يتوجه هذا الاسم إلى ذات الله تعالى وإلى أفعاله في الوقت نفسه. بالنسبة إلى ذات الله فهو يعبر عن قدم الله تعالى وبقائه. أما الجانب المتوجه لأفعاله فهو تعبيره عن دوام الموجودات. لأن دوام الموجودات متعلق بدوامه تعالى. وكل ما يُذكر في دوام الموجودات من قانون ونظام... إلخ هو أشياء اعتبارية ونسبية. ولا يمكن بقاء الموجودات بمثل هذه القوانين النسبية الاعتبارية. فإن أردنا تبسيط الشرح قلنا إنه يستلزم وجود من يطبق هذه القوانين ويسوقها للعمل، وهو الله تعالى. ولابن عربي رأي آخر في هذا الموضوع نرى من المفيد ذكره هنا. يقول ابن عربي إن حقائق الأشياء عبارة عن تجليات الأسماء الإلهية. لذا فالوجود في الحقيقة عدم، ولكن هذه التجليات تأتي متتالية الواحدة تلو الأخرى بشكل متتابع بحيث نرى بــــها

---

(١) جامع البيان للطبري، ٣٤٣/٣٠.

(٢) البخاري، الإيمان ٢٨؛ ليلة القدر ١؛ مسلم، الصيام ٣، ٦؛ المسافرين ١٧٥.

أن الأشياء موجودة ونحكم على وجودها. ولو قطع الله تعالى هذه التجليات لحظة واحدة لزالت الأشياء كلها وفنيت.

أجل ! فكما قال الشاعر المتصوف سليمان جلبي:

قال للكون "كن"... فكان

ولو قال: "زُل"... لزال الوجود

سورة آل عمران

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: ٢١]

إن الذين أنكروا كل دين حتى مجيء الإسلام، أو قبلوا بعض أمور الدين وأنكروا الله، وأنكروا الآيات الدالة على الله تعالى وعلى وحدانيته فضلوا وأضلوا وصفوا هنا بأنهم "يكفرون بآيات الله"، كما وصف الذين شقوا عصا الطاعة على الأنبياء الذين أرسلوا وسيلة نجاة لهم وأنزلت الكتب عليهم بأنهم "يقتلون الأنبياء بغير حق". ووصف الذين يعادون الذين يسعون لإقامة الحق والعدالة بين الناس، ويحاولون إزالتهم وُصفوا بصفة ذميمة هي أنهم "يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس". والعاقبة التي تنتظر كل هؤلاء عاقبة واحدة وهي العذاب الأليم.

وأمثال هؤلاء لم يستطيعوا البقاء في الدنيا والخلود فيها و لم يستطيعوا منع ارتحالهم إلى دار أخرى ولم يتهيئوا لها، وبتعبير بديع الزمان النورسي لم يستطيعوا قتل الموت وإزالته، و لم يستطيعوا سد باب القبر، لذا يتعذب هؤلاء عذاب الموت قبل الموت، فقد انتهت آجالهم في الدنيا وضحوا بآخرتهم، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

ولو دققنا هنا فذلكة الآية لرأينا أننا أمام أسلوب لم نعهده. أجل! فلم نعتد كلاماً حول "البشارة بعذاب أليم". لأن البشارة تستعمل عند الحديث

عن شيء جميل ومفرح، وعن شيء يغرق الإنسان في السعادة، ولا تُستعمل عند الحديث عن الأشياء القبيحة والمحزنة. فلا يقال مثلاً لمن توفي والده "هنيئاً لك بموت والدك!"، ولمن أفلس "هنيئاً لك فقد أفلست!". لذا يجب هنا البحث عن حكمة أخرى وهي -والله أعلم- الاستهزاء بالكفار والتهكم منهم. ومثل هؤلاء الذين أصبحت قلوبهم غلفا تجاه الإيمان وتجاه القرآن، وامتلأت نفوسهم حقداً وغيظاً تجاههما لا شك أنـــهم سينفجرون من الغيظ والغضب عندما يسمعون مثل هذه الآيات.

وإذا قمنا بتقييم سياق الآية يمكن ذكر النكتة الآتية: إن الله تعالى فتح أمام هؤلاء طرق الهداية والإيمان وأرسل لهم الأنبياء، وأرسل فيما بعد ورثة الأنبياء الذين يأمرون بالقسط بين الناس، ولكنهم أصروا على إنكار كل هذه النعم وعلى الجحود بـــها. أي لم يؤمنوا وقاموا بقتل الأنبياء وبقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس. لذا فذكر ﴿وَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١) هو من أجل بيان سوء عاقبة هؤلاء من جهة وإنذارهم ثانية بأنهم أضاعوا فرصة ذهبية وبشارة حقيقية.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾

[آل عمران: ٤٠]

قال زكريا هذا مع أنه كان قد دعا ربه من قبل ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: ٣٨). وعندما تلقى بشرى قبول دعوته قال بمزيج من الفرحة والدهشة ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾. ومع أنه قد تبدو هناك في النظرة الأولى مفارقة بين الحالين، إلا أن مثل هذه المفارقة غير موجودة. ذلك لأن زكريا عليه السلام عندما توجه إلى ربه بكل كيانه بالدعاء كان في حالة روحية عميقة، لذا لم تخطر على باله دائرة الأسباب، فتجاوز الأسباب كان يقتضيه مقام الدعاء. كما كان الدعاء يتناول أمرا أخرويا متعلقا بميراث منتظر للنبوة. ولكنه عندما عاد إلى عالم اليقظة -إن جاز التعبير- ودخل إلى عالم الأسباب وتطلع إلى المسألة من خلاله فرح وذهل فقال ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

هناك أمر آخر مهم يجب الإشارة إليه في هذا المقام وهو أن العديد من كتب التفاسير التقليدية يفسر قول زكريا عليه السلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ بأنه صيغة تعجب، بينما أرى أنه صيغة تقدير مع تحير من القدرة الإلهية. فإن علمنا بأن أعلى مقام في مراتب الولاية عند ابن عربي هو مقام الدهشة، أدركنا بأن هذه الحيرة والتعجب لا يكون منافيا لمقام النبوة. أجل! قام نبي بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر بإبداء دهشة ممزوجة بمعرفته النبوية بالله تعالى، ثم إظهار مشاعر التقدير والإعجاب والمنة للقدرة الإلهية، والتعبير عن هذه الدهشة والتقدير والمنة بقوالب من الألفاظ المناسبة لمشاعرنا وعواطفنا.

بالنسبة إلينا فليس من السنن الإلهية حمل امرأة بلغت سن اليأس وانقطعت عنها العادة الشهرية فأصبحت عاقراً. لذا فظهور مثل هذه الحادثة غير

الطبيعية وخلاف العادة الجارية كان بمثابة إشارة تنبيه ممزوجة بالدهشة في روح نبي يقدر الآلاء الإلهية حق التقدير... شعور تقدير يتقدم على شعور الفرح. وهذا شيء طبيعي ويوافق منصب النبوة.

ثم كان التعقيب بآية ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٤٠) للإيماء بأن حوادث عدة متعلقة بمريم وعيسى عليهما السلام ستقع وستظهر. أي أنه إلى جانب الحوادث الواقعة حسب دائرة الأسباب والمسببات وحسب السنن الإلهية المطردة تقع حوادث لا ترتبط بالأسباب المنظورة، لكي تتم الإشارة إلى المشيئة الإلهية الحرة على الدوام.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ٦٤]

اتخاذ موقف لين تجاه أهل الكتاب أمر من أوامر القرآن. ليس أهل الكتاب فحسب بل أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يقول كلاما لينا لفرعون ﴿فَقُولا لَهُ قَولاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤). لذا فلا مكان أبداً في الإسلام للكلام الخشن أو اللوم العنيف للناس في الدعوة إلى الله.

والآية أعلاه أنموذج بليغ للكلام اللين القريب من القلوب، والكلام الجذاب في الدعوة. فإن تخيلنا الإسلام قلعة محاطة بأسوار تمثل حدود الله، فلا شك أن هناك أبواباً عديدة لها وهناك طرق كثيرة بعدد الخلق تؤمن الوصول إلى هذه الأبواب. ويقوم الإسلام بأسلوبه الخاص باحتضان الناس في أي طريق من هذه الطرق وفي أي نقطة من نقاطها لكي ييسر لهم الدخول من أحد هذه الأبواب. إن عدم وضوح هذا التدرج، أو عدم إدراكه قاد البعض في السابق ولا يزال يقودهم إلى أخطاء معلومة.

وهذه الآية تستقبل أهل الكتاب في إحدى نقاط هذه الطرق وتقترب منهم بوجه بشوش وكلام حلو جميل وتقول لهم: "تعالوا إليّ!... هلموا إليّ!" وعندما تخاطبهم هكذا تقول لهم: "إن ما أدعوكم إليه ليس جديداً عليكم، وليس شيئاً تجهلونه... بل هو مما عرفتموه وأنستم به قبلنا، ولكن يجوز أنكم نسيتموه، أو تذكرتموه بشكل خاطئ". ومثل هذه الدعوة تؤسس جسراً بيننا وبين أهل الكتاب، وتلمس نفوسهم من جانب يأنسون به. وهذا الأسلوب في الدعوة إلى الإسلام مهم جداً، وتستطيعون أن تطلقوا عليه التعبير الشائع في هذه الأيام وهو "أسلوب الحوار". أجل... إن دعوة

الإسلام أهل الكتاب إلى نقطة مألوفة لديهم يمكن تلخيصها في كلمة واحدة مختصرة، لأن القرآن طلب منهم شيئا واحدا فقط، وهو اجتياز هذا الجسر المشاهَد أمام الأنظار والوصول إلى هذا الباب. فإذا وضعنا كل شيء جانباً فإن كلمة "سواء" وحدها تعبر عن هذا المفهوم الدقيق للين وسعة الصدر والرغبة في تشييد الجسور بيننا وبينهم. فما هي خواص وصفات هذا الجسر؟

هنا نرى أن القرآن بدلاً من الحديث عن القيام بتعريف المثبت يقوم بعرض المنفي أمام الأنظار فيدخل إلى الموضوع بالشكل الآتي: أولاً إن أهل الكتاب كانوا يعرفون الله في إطارهم الخاص. غير أنه بعد مرور عدة عصور تراكم الغبار على هذه المعرفة التي فقدت نضارتها وجدتها، لذا كان من الضروري القيام بعملية تنظيف وتطهير. وعندما يتم هذا تظهر الحقائق واضحة أمام جميع الأنظار. ويمكن رؤية عملية التنظيف هذه من جملة ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ﴾. أي إن الإسلام يبدأ كل عمل بعملية تنظيف وتطهير فيخلص الأذهان من الأفكار الخاطئة ومن الانحرافات ويخلص الأنظار من الزيغ. وعندما يذكر "إلا الله" فهو يقوم قبل تعريف الشيء الإيجابي بعملية فكرية وبعملية عقلية، بل ربما بعملية تجديدية. لذا فهذه الآية بدلاً من القول "لنعمل كذا وكذا" تقول "دعونا لا نعمل كذا".

أجل! فبعض أهل الكتاب انحرفوا بمرور الزمن إلى الشرك، فبدأوا يسندون لله تعالى أبناء وبنات مثلهم مثل الوثنيين. ودخلوا في دوامة غير مفهومة من الأخطاء مثل القول بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد. وأعطوا لأحبارهم ورهبانهم صلاحيات إلهية مثل قبول التوبة ووضع التشريع، ومظاهر شرك أخرى في العبادات. والتعبير الوارد في الآية حول اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله يتعلق بالشؤون الحياتية اليومية ويقرر بأنهم لا يملكون حق التشريع. لذا يبدأ القرآن بتخلية القلوب والأذهان وتنظيفها من الشرك بالله تعالى، وبتوجيه العبادة إليه وحده. يجب أن تكون الصلاة والصوم والحج والزكاة لله تعالى، وأن تقدم القرابين والأضاحي له

وحده. هنا قد يقول أهل الكتاب بكل بساطة: "إننا نعمل كل هذا في سبيل الله". هنا تأتي إذن مرحلة عدم الشرك بالله تعالى بأي شكل من الأشكال. أي عدم قبول أي خالق آخر سواه كالطبيعة أو الأسباب أو أي قوى أخرى. والاعتقاد بأن الخلق والموت والحياة والرزق وإدارة الكون يعود إليه وحده. وتنــزيهه من أن يلد أو يولد أو أن يكون في حاجة إلى أحد، وتنــزيهه من أي نقص أو عيب، أو أن يكون أحد كفؤاً له. فإن انــزاح هذا الستار الأسود من فوق الإيمان عند ذلك يمكن التوجه نحو مظاهر الحياة الأخرى، وذلك لكي يتم الإيمان بالله وتتم العبادة الخالصة لــه، أي يتم التوحيد بكل معانيه. وهكذا فكما يوجد تدرج في دعوة الإسلام، كذلك هناك تدرج في عملية ربط الأذهان والقلوب وربط الحياة اليومية بالتوحيد. وكما أكد الأستاذ النورسي فإن الإسلام -في وجه من الوجوه- عبارة عن تحصيل وترصين وتحكيم الإيمان. أجل! فكل شيء في نــهاية المطاف يستند إلى الإيمان وإلى التوحيد. وبعد تكوين الحقائق التي يشغل الإيمان والتوحيد مركزها يتم الاهتمام بالمسائل المتعلقة بالمحيط الخارجي وتعيينها.

إن عدم معرفة سعة دعوة الإسلام ودعوة التوحيد وعمقها وسمة التدرج فيها حق المعرفة بمثل هذا المقياس وعدم معرفة استراتيجيتها في بناء الجسور مع مختلف طبقات الشعب وأقسامه، والوقوع في فهم خاطئ في هذا الصدد أدى إلى ابتعاد الكثيرين عن الإسلام. وكانت النتيجة مظهراً مختلفاً بل مضاداً ومخالفاً تماماً لروح هذا الدين الذي يملك قوة جذب قوية تجذب الناس إليه. فمن جانب تم تشويه الرأي العام وتطلعات الجماهير، وسادت العجلة -التي هي من سمات الضعف البشري- كل شيء وأهملت قاعدة التدرج، والأهم من هذا أنه أهمل ترتيب الخطوات المتتالية المذكورة في هذه الآية، حيث تم البدء من نــهايتها ومن فقرتها الأخيرة. وكانت النتيجة التورط في اتجاه اعتبرته الجماهير اتجاهاً متطرفاً. ومن جهة أخرى تم الادعاء بأنــه حتى المنحرفين عن الطريق الأحمدي سيدخلون الجنة، وذلك نتيجة لعدم فهم

وإدراك معنى ومضمون هذه الآية الكريمة حق الفهم وحق الإدراك. مع أن الآيات -ومنها هذه الآية- إن دققت جيداً تبين بأنـــها تقيم فقط الجسور مع أهل الكتاب وتفتح الأبواب أمامهم. أما ما يتم بعد دخول هذه الأبواب فلا يصرح به، بل تقوم آيات أخرى بذلك. لذا لا يجوز لأحد أن يقول مشيراً إلى هذه الآية بأن أهل الكتاب إن آمنوا بالله وبرسولنا ولكن لم يسلكوا سبيل الرسول ﷺ "... سيكون كذا وكذا ". لأن مثل هذه الآيات هي لدعوة أمثال هؤلاء إلى سبيل الرسول ﷺ. وبعد دخول سبيله هذا والولوج من باب قصره فإن ما يجب عليهم اتباعه غني عن البيان. ومن أجل فهم الإسلام والقرآن جيدا واستيعابهما يجب النظر إلى القرآن والسنة نظرة شاملة وفهم الأجزاء ضمن هذا الكل ووضع كل شيء في محله الصحيح. فكما تتوجه خلايا الجنين في رحم الأم كل إلى مكانـــها الصحيح دون أي انحراف أو خطأ فلا تذهب خلية العين إلى الأذن، كذلك كان من الضروري وضع كل شيء في مكانه الصحيح عند تشكيل وإنشاء طرز الحيـــاة الإسلامية. وهذا يتعلق بفهم القرآن والسنة ضمن إطارهما الشامل والكلي وفهم واستيعاب كل جزء ووضعه في مكانه الصحيح. وإلا كان من المحتوم ظهور تفاسير واجتهادات منحرفة وخاطئة وتناقضات. وذلك مثل تشوه الجنين في رحم الأم أو مثل حدوث حالات الإجهاض عند الولادة.

والخلاصة أننا نستطيع القول هنا بأنه يمكن دعوة الأرواح والضمائر المختلفة والثقافات والحضارات المستندة إلى مفاهيم مختلفة، والأمم التي شكلتها وأنشأتـــها الكتب المتعددة المنـــزلة في أزمان مختلفة إلى خط قد نستطيع تسميته بـــ"خط الصلح" يقبله كل قلب وضمير. خط يوحد ويؤلف ويتناول كل مسألة في إطار من الرحمة الواسعة الشاملة، وفي دائرة من البعد الكوني، مما يعطي لكل فكر ولكل ضمير فرصة الحل في ظل تحكيم الحق. وهكذا تستطيع الأرواح التخلص من قبضة الأهواء لتصل إلى العبودية الحقة للمعبود المطلق جل شأنه وتنقذ نفسها من العبودية لآلهة الدنيا الزائفة.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾

[آل عمران: ٨٦]

إن الذين يقفون بجانب الظالمين المؤيدين للكفر وللباطل مع أنـــهم شهدوا جمال الحق ورأوه وقبح الشر وشناعته ليسوا إلا أشخاصاً منحرفين وظالمين. هؤلاء أفراد بؤساء انحرفت فطرتهم وتشوهت وفقدوا قابلية الاهتداء إلى درجة أن الله تعالى لا يجعل لهم نصيباً من الهداية ولا يهديهم إلى ســـواء السبيل. لا يهديهم لأن أمثال هؤلاء دخلوا في غمرة حركة مبتعدة عن مركز الإسلام، وفي حالة نفسية ترافق هذا الابتعاد وتتسم بمعارضة المركز واتهامه ويبتعدون عنه، مما يؤدي إلى تعميق اســـوداد قلوبـــهم. وهـــم يحسبون أنـــهم بعملهم هذا وانتقاصهم للمؤمنين -الذين يدعون أنـــهم يعرفونـــهم حق المعرفة لأنـــهم كانوا من ضمنهم- يقومون بخدمة الكفر والإلحاد وتقوية روحه المعنوية، ويقومون في الوقت نفسه بإغراق المؤمنين في الهم والحزن.

غير أن الله تعالى الذي وهب للإســـلام نوراً متميزاً -هو كنور الشمس بالنسبة للأديان الأخرى- سيجعل هؤلاء المبتعدين عن هذا النور في تيه دائم، لا يهتدون إلى شيء أبداً وسيصرفون أعمارهم وحياتـــهم في هذه العماية لا يجدون شيئا ولا يهتدون إلى أي شيء. وسيكونون أنموذجاً سيئاً للأفراد والجماعات الضالة.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

كل عبادة تؤدى لله تبارك وتعالى هي شـــكر في مقابل النعم العديدة التي أسبغها علينا، وربما كانت مقابلة فعلية لها بنسبة ما. مقابلة لا تتم إلا في سبيل الله ومن أجله. وهكذا هي عبادة الحج فهي تعبير عن الشكر مقابل نعمة صحة البدن ونعمة المال الموهوب. لذا يقول من نوى الحج: "أحج لله" لذا يقول القرآن الكريم في هـــذا الصدد: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ﴾ واللام في لفظة "لله" هو للاستحقاق. أما حرف "على" في "على الناس" فهو للفرض. أما لام التعريف في "الناس" فهو للعهد. وهكذا كان البدء باستعمال "على الناس" نوعاً من براعة الاستهلال وإشارة إلى ما يستتبعه من قيود. أي أن كلمة "على الناس" تشير إلى بعض الناس. فمن هم؟ هم من توفرت عندهم نفقة الطريق والقوت والقدرة على السفر، إضافة إلى وجود المحرم بالنسبة للنساء.

ويذكرنا اســتعمال حرف الجر "على" في الآيــة "على الناس" بـــهذه النكتة: الحج عبادة أصعب بكثير من الصلاة ومن الصوم. فإلى جانب مشقة السفر تضطرون إلى إنفاق مبالغ كبيرة، وتبتعدون عن أعمالكم وعن أوطانكم وعن أقربائكم... الخ. وحرف الجر "على" الذي يستعمله القرآن يومئ من بعيد إلى هذه المشاق الخاصة بالحج ضمن الفرائض الأخرى.

وعلاوة على هذا فإن "الاستطاعة" هي تنفيذ الأمر برضا القلب وبنية الانقياد على أحسن وجه وأفضله. وهذا متعلق بالإرادة والقدرة والإمكانية. أي أن الاستطاعة استعملت هنا مكان أجزائها من القوة والقدرة والإمكانية. وكانت سعة معنى هذه الكلمة مصدراً وسبباً لاختلاف التفسير لدى الأئمة المجتهدين، وسبباً للتيسير والتوسعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]

تقوى الله حق تقاته يتناسب طردياً مع معرفة الله تعالى، لذا يمكن القول بأن جميع المعارف التي لا تساعدنا على زيادة هذه المعرفة ليست إلا معرفة ظاهرية وعبارة عن قيل وقال. وكذلك فكل مسامرة أو مذاكرة أو أي أسئلة وأجوبة لا تساعد على توسيع هذه المعرفة إسراف في الوقت وإسراف في الكلام. وأشار الرسـول ﷺ إلى هذه الحقيقة عندما قال "إن الله كره لكم ثلاثاً" وفي رواية "إن الله حرّم عليكم"[١] وذكر من بينها الإكثار من الأسئلة. وذكر أنموذجاً من هذه الأسئلة "مَن خَلقَ كذا مَن خلَقَ كذا حتى يقول: مَن خلَق رَبّك".[٢] ونرى من المفيد سرد نظرتنا حول الأمر الأخير. لقد مر علينا زمن تكلموا لنا فيه عن الأسباب كلاماً وكأن الله تعالى عاجز –حاشاه– وأن الأسـباب هي التي تعمل وتنفذ وتخلق وتوجد كل شيء. فعندما يذكرون السرطان يقولون: هذا مرض لا علاج له. وعندما ظهر الإيدز قالوا لا يرجى منه شفاء. وهكذا هدموا لدى المؤمن مندأ الشعور بالتوكل والتسليم. وهذا موجود حاليا –قليلاً أو كثيراً– لدى الجميع. وأرى أنه يجب علينا –عن طريق الاستقراء– الوصول من الأثر إلى المؤثِّر للحصول على الاطمئنان القلبي، وإدراك أن الله تعالى هو مسبب الأسباب كلها، وأنه هو الذي أعطى للأسباب خواصها وصفاتها، وأن نذكر على الدوام أنه قادر

---

(١) البخاري، الزكاة ٥٣؛ مسلم، العقائد ١٠، ١٣، ١٤؛ الموطأ للإمام مالك، الكلام ٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٢٧، ٣٦٠.

(٢) البخاري، بدء الخلق ١١؛ مسلم: الإيمان ٢١٤.

على الخلق وعلى الإيجاد خارج دائرة الأســباب، فنجدد باستمرار أفكارنا الإيمانية.

إن السعي لتقوى الله حق تقاته، أي تذكر مخافته ومهابته على الدوام وفي كل الأحوال، والاهتمام بكل وسيلة وسبب يؤدي إلى هذا الشعور الصادق، وعدم السماح بوجود أي ثغرات بين الحياة وبين هدف هذه الحياة وغايتها، والعثور في أي كلام أو حادثة أو حديث ما يمكن جره وتحويله للتذكير به، وإدامة الحمد والشكر له على نعمه العديدة التي لا تعد ولا تحصى ضروري للولوج إلى طريق التقوى الحق. وهذا يعني في الوقت نفسه ضمانا للمؤمن إذا مات أن يموت على الإيمان، وهو حالة مرضية وخاصة بالأنبياء الكرام وبورثة الأنبياء من أهل الخواص. وقد كان الصحابة الكرام يعبدون الله حتى تتورم أقدامهم وتنهك أنفسهم من أجل إحراز هذه المرتبة من التقوى والوصول إلى هذا الهدف، وقد عملوا ما بوسعهم على قاعدة ﴿اتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) وذلك طوال حياتهم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]

كثيراً ما ترد هذه المسألة في القرآن الكريم بصيغة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وكما يلاحظ فالفرق بين الصيغتين هو فعل الكينونة "كانوا".

أجل! لا يوجد فعل الكينونة "كانوا" في الآية أعلاه. وهذا يذكرنا –والله أعلم- بما يأتي:

١- ظلم هؤلاء لأنفسهم لن يكون في الخفاء وفي السر، بل يكون صراحة وفي العلن بحيث إن ظلمهم –ولا سيما لأنفسهم- سيكون علنياً إلى درجة لن يكون هناك حاجة للتصريح به، لأن الجميع سيرونه وسيدركونه.

٢- إن فعل الكينونة يفيد معنى عدم الوجود في السابق، ووجوده في الحال. أما الكافرون فهم يظلمون أنفسهم منذ القديم وحتى الآن، وهذا ما يشاهده الجميع. لذا خلت هذه الآية الكريمة من فعل الكينونة "كانوا".

٣- من أجل إيضاح معنى الفقرة الثانية نقول بأن الذين أوتوا الكتاب بعد أن وصلوا بهذه الكتب إلى الهداية فترة من الزمن زاغوا عن هذه الهداية، ووقعوا في الكفر وفي الضلالة. أي لم يكونوا ظالمين منذ البداية، لذا كان من المناسب استعمال فعل الكينونة "كانوا" في حقهم لإيضاح هذا الأمر. أما حال الظالمين منذ البداية فلا تحتاج إلى أي تقييد ولا إلى أي إيضاح آخر.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]

كان طلاب النور عندما يتعرضون لأي أذى أو أي ظلم وتعسف، يذكّرهم الأستاذ بديع الزمان بضرورة تكرار قراءة هذه الآية وتفسيرها. وكشخص مثلي استفاد من درس الأستاذ النورسي لنقرأ هذه الآية مرة أخرى ولنأخذ منها الدرس الواجب أخذه.

إن استغراق أي جماعة -تعاني من خوف ومن اضطراب شديدين- في النوم ووصولهم إلى أمن وسكينة روحية وقلبية وإلى طمأنينة كاملة إنما هو لطف من الله تعالى وفضل منه لهذه الجماعة. وهو دليل ثقة من الجماعة وتسليم وتفويض واعتماد وتوكل منها على الله تعالى. وفي معركة بدر وأحد كان ظهور مثل هذا الاطمئنان وهذا الوعد الإلهي، ووقوع هذه السكينة الرحمانية بنسبة الالتزام بالدين وبنسبة توجه القلوب إلى محرابها الحقيقي. وهذا وارد في كل وضع ولكل توجه صادق.

أجل! إن الدين هو روح الحياة، وإعلاء كلمة الله أقدس الوظائف، وصرف الحياة وإفناؤها في هذا السبيل، هو السبيل لطرق باب الحياة الأبدية والوجود الأبدي. وبمقياس وضع رضا الله تعالى كغاية الغايات ستهب في المقابل عنايته ورعايته وحمايته. وهذه العناية والرعاية معروضة في كل زمان ومكان وبنسبة مقاربة للعناية المذكورة للصحابة ﷺ كلما توفرت شروط هذه العناية وظروفها وأسبابها. ومن كان من المؤمنين في مثل هذا المستوى من الإيمان والتسليم والتوكل يستطيع التصدي حتى لنيران نمرود بصدر مفتوح وبقلب مطمئن، بل ربما قلب تلك النيران برداً وسلاماً. وفي مقابل الحياة الهادئة المطمئنة لهؤلاء، هناك زمرة تشارك هؤلاء الظروف نفسها، غير أنها لا تتنفس الأجواء نفسها. لذا نراها منكبة على متطلبات أهواء أنفسها، فتنعكس الشبهات الموجودة في مشاعرهم وأفكارهم لترسم لهم سبل حياة مليئة بالتناقضات المخجلة. لذا لا يرى هؤلاء وجه الراحة والاطمئنان أبدا، بل سيعيشون حالة تذبذب، لكون رؤوسهم مملوءة بالأفكار الجاهلية، وحتى لو آمن هؤلاء فإن أفكارهم حول الاطمئنان إلى الله تعالى ستكون مشوبة بسوء الظن. والآية الكريمة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ توضح حالة اليأس العكرة في مشاعر هؤلاء وما يعانونه من تردد وإحباط.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]

يعد مثل هذا التأمل الشامل من أهم نواقصنا!... أجل!... تأمل يجدد إيماننا ويحفظه حياً على الدوام. فكما ينتفض الجسم إن صببت عليه قطرة ماء باردة لم يألفها، كذلك علينا العثور في مرصاد الفكر والتأمل على ما يجعل إيماننا ينتفض، ويجعلنا نشاهد تجليات أسماء وصفات المالك الحقيقي للأشياء وصاحبها والمؤثر الحقيقي فيها. وأن نقضي الأيام الباقية من حياتنا في دائرة رضا الله تعالى وفي ضوء هذا النور المتولد من عملية التفكير والتأمل هذه.

ولكن الشعور والسماع والفهم وتقييم الروح والمعنى والصوت والنفس واللون والزينة واللغة والشوق الذي يسري جميعها في السماوات والأرض وما بينهما لا يكون متيسراً للجميع، بل تبدو هناك الحاجة إلى من يستطيع إدراك هذا الغنى وسبر غوره في الألوان وهذا التناغم في الأصوات والموسيقى ثم تقييمه من قبل فئة المثقفين من "أولي الألباب" الذين لم تفسد عقولهم بالأخطاء والانحرافات و لم تفسد لديهم المعايير والمقاييس بالأهواء النفسية... نحتاج إلى "أولي ألباب" الذين يستطيعون سبر غور السماوات والأرض بجميع صفاتها التي يذكرنا بها مفهوم المكان، وما يتطلبه خلق ما فيها من الأشياء والكائنات من توجه الإرادة والاختيار من جميع نواحيها انطلاقاً من مبدأ تناسب العلية للوصول عن طريق المنطق والتحليل والتركيب إلى المسبب الكامل وإلى صاحب القدرة الكاملة جل جلاله. لقد خُلق روح كل إنسان وعقله بحيث يستطيع فهم هذا وإدراكه فطرياً، ولكن العوائق من أمثال الكبرياء وتجاوز الحد والخطأ في زاوية النظر تمنع رؤية الهدف بشكل واضح. وحتى لو بلغ الإنسان ذروة العلم فلن يستطيع الخلاص من القرارات الخاطئة ما لم يستطع الخلاص من هذه العوائق.

سورة النساء

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨]

لحظة اليأس هي اللحظة الأخيرة في حياة الإنسان الذي لم يُقبل إيمانه. ولكن من المهم تعيين بداية هذه اللحظة. هذه البداية تكون في الآونة التي ييأس فيها الشخص في لحظاته الأخيرة من العودة إلى الحياة الدنيا والعيش فيها بكامل شعوره. وفي نظرة أخرى هي اللحظة التي ييأس فيها الشخص المشرف على الوفاة والملتفون حواليه من عودته إلى الحياة الدنيا.

أجل! يُقبل إيمان المرء حتى في لحظاته الأخيرة -ما دام مالكاً لقواه العقلية- إن استطاع الإيمان. وهذه هي اللحظة التي كرر فيها الرسول ﷺ طلبه الإيمان من عمه أبي طالب. ولكن أبا طالب ذكر -نتيجة لضغوط خارجية- بأنه "يموت على ملة عبد المطلب".[1] وحادثة أخرى يستحق الوقوف عليها هي حادثة الصبي اليهودي المريض. فقد زار الرسول ﷺ صبياً يهودياً مشرفاً على الموت فلقنه أن يقول: "لا إله إلا الله" فنظر الصبي إلى والده كأنه يستأذنه، فأشار إليه والده بالقبول فانطلق الصبي يعلن إيمانه

(١) البخاري، مناقب الأنصار ٤٠؛ الجنائز ٨٠؛ مسلم، الإيمان ٣٩.

ويتلفظ بكلمة الشهادة.[1] إذن فما دام الشعور غير مختل فإن أبواب السماء تكون مفتحة لقبول الإيمان.

أجل! لحظة اليأس -أي اللحظة التي لا يقبل فيها الإيمان- هي اللحظة التي لا يملك فيها الإنسان شعوره وهو على وشك مغادرة الدنيا ولا يُقبل فيها إيمانه. ولكن إن حصل العكس، فإنه ينظر إلى نية الشخص في تلك اللحظة وشعوره وقناعته كبذرة ستنمو في الحياة البرزخية وفي حياة الحشر وتكبر لتكون باقة جزاء ومكافأة له.

إذن فما دام الشخص قبل لحظة الاحتضار لم يقطع أمله من العودة إلى حياة الدنيا ولم ييأس منها فإن التوجه من الكفر إلى الإيمان يكون مقبولاً على الدوام. فإن كان الوضع معكوساً كان له حكم مختلف. أي إنه إن تم قطع الأمل من الدنيا وفتحت أستار النظر إلى حياة العقبى فإن الفرصة تكون قد فاتت. لأنه لم يعد هناك مجال للقيام بأي عمل صالح وإن كان كلمة طيبة. والرحمة الإلهية تعطي فرصة للذين لوثوا حياتهم الدنيوية بالفسق والفجور إن آمنوا وتابوا وذلك حسب فحوى الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٥٣).

(١) البخاري، الجنائز ٧٩؛ المرضى، ١١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩]

عندما يقول القرآن "لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" يستعمل تعبيراً شاملاً. فهو يوجه الأنظار إلى حرمة أكل الأموال العامة إلى جانب أموال الأقرباء وذي الرحم أو استعمال أمتعتهم دون رضاهم. فكما يدخل في هذا الإطار النهب والسرقة يدخل فيه الغصب والربا والميسر والإسراف والسفاهة في صرف الأموال وتحصيل الأموال بطرق غير مشروعة. أما الربح الناتج عن طريق مبادلة الأموال برضا جميع الأطراف، والربح الناتج عن التجارة -وهي المذكورة هنا لأنها أهم طريق ووسيلة للربح- فهو ربح كاف للمعيشة فلا تبقى هناك حاجة ولا ضرورة للولوج إلى طرق الحرام ولا إلى الطرق المشبوهة.

ويمكن فهم ملاحظة ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ الواردة في الآية على معنيين:

١- إن من يرتكب إثم التورط في الربا أو الميسر أو الرشوة... إلخ من طرق الحرام فإنه يكون بذلك قد قتل نفسه معنوياً وقضى عليها.

٢- إن الناس إن دخلوا في أي معاملات محرمة وباطلة وظالمة في كسب الأموال وإنفاقها وكل تصرف من هذا القبيل، وقبول أي مبدأ مستند إلى هذا كالرأسمالية أو الليبرالية المفرطة أو حتى البراغماتية والميكافيلية سيؤدي إلى ظهور نظم أخرى كردود فعل لها كالشيوعية... وهكذا تفتحون الباب أمام القتلة والسفاحين وإلى عمليات التشريد.

أجل! إن دخلتم من البداية في مثل هذه الأنظمة فالنتيجة هي أنكم

ستقومون بقتل بعضكم بعضاً. لذا فلا تدعوا الإسلام وتهملوه فتدخلوا في سبل ضالة مختلفة تكون نتيجتها أن بعضكم سيقتل البعض الآخر. أجل! إن حال الدنيا التي يتم فيها تطبيق هذه الأنظمة شاخصة أمام أعيننا وهي تؤيد وتصدق هذه الآية الكريمة.

٣- ظاهر الآية متوافق تماماً مع معنى النهي عن الانتحار أي قيام الشخص بقتل نفسه. غير أنه يوجد هناك بعض الجوانب الأخرى لهذه الآية. فمثلا إن الإخلال بالتوازن الموجود بين الطبقات والفئات المختلفة للمجتمع يجر ذلك المجتمع إلى الأزمات وإلى صراعات داخلية. كما أن قيام بعض الجاهلين -انطلاقاً من مفهومهم الخاطئ عن الزهد- بترك الطرق المشروعة للكسب، واختيار الفقر وشظف العيش يجر الأمة إلى الضعف والهلاك. كما أن استيلاء احدهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعة أو تحريض الآخرين على هذا الغصب والاستيلاء غير المشروع يجعله مستحقاً للقتل. وهذه بعض النقاط المفهومة من الآية.

وتتجلى رحمة الله الواسعة والشاملة بقيامه بالهداية إلى أسلم السبل، وهذا هو المنتظر من الله الرحمن الرحيم.

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: ٣١]

عند عرض هذه الآية الكريمة يذكر الحديث الآتي عادة: "اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات".[1]

وأنا أريد هنا التوقف قليلاً على "التولي يوم الزحف" الوارد في هذا الحديث الشريف. ومعناه النكوص على العقبين والهرب في يوم القتال والجهاد. وهذا هو معنى استعمال تعبير "التولي يوم الزحف". وهذا يعني أن الكفاح إن كان مستمراً مع عالم الكفر وإن لم يكن كفاحاً وصراعاً حاراً، أي حتى لو كان حرباً باردة ساحتها الثقافة والتربية والتعليم والسياسة والفن... الخ من الساحات المختلفة والمهمة التي يجري الصراع فيها في أيامنا الحالية مثلا فإن المؤمن المنسحب والمتقوقع على نفسه -حتى ولو كان بنية زيادة كماله الروحي- سينطبق عليه هذا الحديث النبوي ويكون آثماً. فإن كان هناك من وعى ضرورة مثل هذه الخدمة والدعوة ثم نكص على عقبيه في أثناء الكفاح مهما كان نوع هذا الكفاح فلا شك أنه يرتكب بذلك إثما كبيرا. هذا علاوة على أن مثل هذا التصرف سيضعف الروح المعنوية في الجبهة الإسلامية، ويُسعد الأعداء ويغمرهم بالفرح، وهذا ذنب إضافي.

وعند ترك هذه الكبائر المؤدية إلى الهلاك -والتي توقفنا عند واحدة منها فقط- فالله تعالى يعد بمغفرة الأخطاء التي لم تقترن بالإرادة والقصد وبمغفرة

(١) البخاري، الوصايا ٢٣؛ الطب ٤٨؛ الحدود ٤٤؛ مسلم، الإيمان ١٤٥؛ أبو داود، الوصايا ١٠؛ النسائي، الوصايا ١٢.

الذنوب التي لا تعد من الكبائـــر. وهذا يعد تطهيراً إلهياً واستحقاقاً لحياة ســـعيدة في حياة البرزخ وحياة الآخرة، ونيل سعادة التجول في جنان الجنة ونيل الحظوة والسعادة في رؤية جمال الله تعالى.

أجل! إن الأبطال الذين يعرفون كيف يتمردون على الآثام سيدخلون قبورهم مدخلاً كريماً كالقواد الظافرين. وبنفس مطمئنة يسيحون في الحياة البرزخية، وبنفس الاطمئنان والفرح والحبور ســـيدخلون الجنة ويشاهدون ويتطلعون إلى الجمال الإلهي. ذلك لأن الكفاح في ســـبيل عدم الوقوع في الإثم يعادل تماما الكفاح في سبيل عمل الحسنات والخيرات. فإن اعتبرنا الجوانب السلبية والإيجابية للأعمال بُعداً من الأبعاد، فإن الثبات في كلا الجبهتين "أي عمل الخير واجتناب الشر" يشكل نجاحاً كبيراً ويوصل الإنسان بسرعة الصاروخ إلى عاقبته الطيبة المقدرة له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾

[النساء: ٥٦]

يشرع أكثر المفسرين عند تفسير هذه الآية ببيان هول وعظم عذاب جهنم بذكر الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن عمر ﷺ: "يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام وإن عظم جلده سبعون ذراعاً وإن جلده مثل أُحد".[١]

والإطار العام لهذا الحديث هو وصف عذاب جهنم ووضع الذين يتعرضون لهذا العذاب. وأرى أنه من الممكن فهم هذا الحديث على الصورة الآتية أيضاً:

إن الإنسان يتطور ويترقى من الناحية الروحية. مثلاً يلتذ أحدهم في صلاته عشرة أضعاف لذتك أنت. إذن فقابليته في التلذذ قد ترقى كثيراً. والأمر نفسه موجود في الشعور بالألم أيضاً. والشخص الذي رهفت عنده هذه الناحية يتألم من أبسط الأشياء، ويصاب بالأرق، وقد يغمى عليه جراء ألم في أسنانه. لذا قال أكرم الأنبياء: "إني أوعك كما يوعك رجلان منكم".[٢] إذن فكما يزداد الألم بكبر الجسم وتضخمه في الآخرة فإن زيادة الشعور بالألم في جهنم -بسبب حكم عديدة- قد يُعَبّر عنها هكذا أيضاً. والحقيقة أنه لا تضخم الجسم بسبب المعاصي والذنوب ووصوله إلى ضخامة

(١) مسلم، الجنة ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢٨/٢، ٣٣٤، ٥٣٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٩١/١٠ - ٣٩٣.

(٢) البخاري، المرضى، ٣، ١٣، ١٤، ١٦؛ مسلم، البر ٤٥.

الجبال، ولا تضخُّم المعاصي والآثام وتوسعها سعة الروح ليتعذب الإنسان بحسبها "أي حسب هذه السعة" ليس مما ينافي العقل. فسعة العلم الإلهي وقدرته وإرادته المحيطتين بكل شيء تستطيعان تحقيق ذلك في كل زمان ومكان. ونحن نلتجئ إلى رحمته الواسعة ونسأله أن يشملنا بها وأن يعاملنا حسب هذه الرحمة الواسعة.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾ [النساء: ١١٤]

توجد إرشادات عديدة في هذه الآية الكريمة متعلقة بالخدمات الدينية اليوم. ففي عهود كالعهد الذي نعيش فيه وفي العهود الأخيرة من تاريخنا القريب عندما تكون الدعوة إلى الإسلام وتبليغ رسالته الشافية للإنسانية صعباً بسبب بعض العوامل السلبية، فإن هذه الدعوة وهذا التبليغ سيتم سراً وهمساً، أي على قاعدة "وليتلطف". وتذكر الآية الكريمة أعلاه بأن هناك أجراً كبيراً لمن يقوم بهذا. وكما هو واضح فالله تعالى يضع الثواب بشكل مطلق ودون أي تحديد لكي يثير أشواقنا وَوَجْدَنَا ويزيده كما جاء في الحديث القدسي حول الصوم "الصوم لي وأنا أجزي به".[١]

المشاعر السيئة والعادات الخبيثة والأفكار المنحرفة السوداء، والحيل المحبوكة ضد المؤمنين، والمؤامرات والدسائس المطبوخة تجاههم أمور سوداء منشأها ومولدها من الشر، لا ينفذ منها أي بصيص من الخير حتى لمن كان من ورائها من الأشرار لأنـــهم لن يستفيدوا منها. أما المشاعر الصادقة المخلصة كالأمر بالصدقة ونشر الخير والجمال والمعروف والإصلاح بين الناس فمشاعر مختلفة... ومن يفعل هذا وهو يبتغي بعمله وجه الله تعالى ورضاه ولا سيما في مثل هذه الظروف غير المواتية وغير الطبيعية والتي تقتضي السرية في أعمال الخير فانـــه سيكافأ مكافأة عظيمة ويأخذ أجراً كبيراً. أولاً لعمله وثانياً بالنظر للظروف غير الملائمة.

---

(١) البخاري، الصوم ٢؛ مسلم، الصيام ١٦٥.

أجل! يمكن تأسيس مؤسسات مدنية مختلفة غايتها تحصيل الرضا الإلهي لتحقيق هذه الأمور الثلاثة مع شروط وجود الشورى في هذه المؤسسات، لأن كل مسألة من هذه المسائل الثلاث لها أبعاد اجتماعية مهمة. وفي أمثال هذه المسائل التي تتعلق بقوانين المجتمع وحقوقه فإن من الحكمة اللجوء إلى حكمة الشورى التي أوصانا بـــها الرسول ﷺ في جميع الأمور.

وعلى العكس من هذا، فإن على المؤمنين الحذر من أي تجمع غايته التهامس بالشائعات حول هذا أو ذاك، أو القيام بتشكيل جماعات سرية، والحيلولة دون تشكيلها إن أمكن.

﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨
وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾

[النساء: ١١٨- ١١٩]

هذا الكلام الوقح الذي تكلم به الشيطان مع الله تعالى والوارد في هذه الآية وفي آيات عديدة أخرى: إما أن الله تعالى سمح به وأذن له بهذا. وإما أنه -حسب بيان العديد من المفسرين- ما جال في خاطره وما اقتضته فطرته، وأن الله تعالى أخبرنا به.

وسواء أكان هذا بيان لسان حال الشيطان، أو دمدمة فطرته، فإنه يبين عزمه على الانتقام من عباد الله الذين لم يصلوا إلى مرحلة الإخلاص. وإن اللعبة الشيطانية الأولى التي جرت معه على سطح هذه الأرض، مستمرة اليوم من قبله ومن قبل أتباعه فهم مستمرون في محاولة فتنة الناس وخداعهم بالأماني الباطلة، ومحاولة دفع الإنسان لتبديل فطرته وفطرة الإنسان والمخلوقات الأخرى، وإفساد التوازن في هذه الفطر. وكما أن إقامة التوازن الروحي للإنسانية مرتبطة بالابتعاد عن طريق إبليس، فإن المحافظة على التوازن في الطبيعة -ومن ضمنها الإنسان- مرتبطة بهذا الابتعاد. والذين يدخلون إلى طريقه الضال في خسران مبين ومن أصحاب الحظ النكد. أما الذين وفقوا للابتعاد عنه فهم المحظوظون القريبون من الله تعالى.

سورة المائدة

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [المائدة: ١٨]

الأمر الذي تقوم هذه الآية الكريمة بتوضيحه يتجلى في حياتنا بالشكل الآتي: عندما نقوم بتقييم تمرد الآخرين وعصيانهم، لا نقوم بهذا التقييم بعد وضع أنفسنا في داخل إطار هذه المسألة، ولا نحاسبها بنفس المقاييس التي نحاسب بها الآخرين. فمثلاً عندما نقول بحق شخص اقترف سيئة ما: "لماذا لا يعاقبه الله ويخسف به الأرض؟" فإننا في الوقت نفسه نأمل ونتوقع أن يصفح الله عن ذنوبنا بسبب قيامنا بعمل حسنة صغيرة. بينما كان من المفروض من ناحية أسلوب وطراز التفكير أن نشرك أنفسنا من ناحية السيئات في ذلك الصنف، أو أن نتوقع -من ناحية الحسنات- وجود احتمال الصفح عنهم لوجود حسنات لهم. أما التقدم خطوة أخرى في هذا الأمر فهو تصغير ذنوبهم لكي تكون بحجم بندقة واحدة وإن كانت في الحقيقة بضخامة الجبال، والقيام بعكس هذا بالنسبة لأنفسنا.

إذا تفحصنا مزاعم أهل الكتاب الواردة في الآية الكريمة أعلاه بهذا المقياس نرى مدى قبحها وبشاعتها لدى الله ولدى الناس أيضاً. فهناك بعضهم يقومون ليدعوا بأنهم مختلفون عن الناس ولا يشبهونهم، وأنهم أحباء الله ويرون هذا سبباً في الفخر والمباهاة، ولا يترددون في التصرف دون أي مبالاة أو توقير تجاه الله تعالى، والنظر إلى الآخرين نظرة احتقار واستهانة نابعة

من قبولهم لزعمهم الذي يفتح الباب أمام جميع السلبيات الأخرى وهو: "لما كنا قريبين من الله بهذه الدرجة، إذن فسيغفر لنا -حاشاه- كل ما سنفعله". كان عزير عليه السلام حسب زعمهم ابن الله وكذلك المسيح عليه السلام بالنسبة لقوم آخرين، وكان المنتسبون لهؤلاء الأنبياء يرون أنفسهم أيضاً أبناء الله وإن كان بشكل مجازي لذا كانوا يقولون "لا خوف علينا ولا قلق، لأن الله سيصون أبناءه وأحباءه، ولا مجال هناك لأي تهديد أو وعيد في حقهم. ليكن الخوف والقلق من نصيب من لم يكن له نصيب من هذا الشرف، فالعذاب لهم والعقاب من نصيبهم". ومع أن هذا غير موجود في كتبهم، إلا أنهم كانوا يجيبون بهذا الجواب كلما تم تهديدهم بآيات العذاب، وكانوا يعتقدون بأنهم ينتصرون في نقاشهم الذي يجرونه مع صاحب الرسالة ﷺ ومع صحابته، ويتخيلون بأنهم سيصلون إلى شيء بهذا الكلام وبهذا النقاش.

صحيح أن تعبير "ابن الله" وارد في بعض الكتب السابقة. وكما يمكن أن يكون هذا خطأ في الترجمة، أو أنه تعبير مجازي حول شفقة الله ورحمته بهم كرحمة الأب. وليس من النادر استعمال كلمة "الأب" في كتب الأديان السماوية بمعنى "الرؤوف" و "الرحيم".

وأمام استعمال مثل هذه التعابير سواء بالمعنى الحقيقي أو المجازي في مقام النقاش جاء الجواب المسكت لهم بأن "لو كنتم أبناء الله وأحباءه كما تزعمون فلم يعذبكم بذنوبكم، ولم تتعرضون للمذابح وللأسر في كل مكان ولا يقومون على الخلاص مما أنتم فيه؟"

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]

تحتوي هذه الآية في الحقيقة على أشياء مهمة جدا، على رأسها التنبيه بإمكانية وقوع الارتداد بين المؤمنين، وأنه قد يعجز بعض من يمثلون الإسلام في المستقبل في إبداء الاهتمام والحساسية التي يقتضيها حمل هذه الأمانة. لذا عندما عجز الأمويون عن حمل هذه الأمانة -التي تصدوا لحملها زمناً- وضعفوا عنها انتقلت الأمانة إلى العباسيين، ثم إلى السلجوقيين ومنهم إلى العثمانيين. والقوم الذي سيأتي بـــهم الله أتى بصيغة النكرة "قوم"، أي بقوم لم يكن الصحابة يعرفونه في وقت نـــزول الآية.

ونرى أن الآية ﴿فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ﴾ قد اســـتعملت صيغة المستقبل البعيد "سوف"، وأن الصفة الأولى من صفات هؤلاء القوم الذين بشر الله بمجيئهم في المســـتقبل البعيد هي أن الله تعالى يحبهم. وهنا توجد نكتة دقيقة.فالحب الموجود بين العبد وبين الله كما يمكن أن يكون بالتوجه من العبد إلى الله وفي مقابله يأتي الحب من الله نحو العبد، وهـــذا من صفات المريد، كذلك يمكن أن يكون من الله نحو العبد وفي مقابله يتوجه الحب من العبد لله. ويمكن أن يطلق على هـــذا صفة المراد. أجل! يختار الله بنفسه بعضهم لإعزاز دينه وكذلك لإعزاز هؤلاء بدينه. واختيار الأنبياء هو من هذا النوع من الاختيار. وكما جاء في حديث نبوي[1] رواه عبد الله ابن

---

(١) عن عبدالله بن مسعود قال: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه

مسعود فـــإن أصحاب الأنبياء أيضا يُختارون من قبـــل الله لإعزاز دينه وخدمته. نستطيع توضيح ذلك فنقول إن الله تعالى يقول: "إنني سأختار محمداً ﷺ -مثلاً- وأصحابه لإنجاز هذا العمل". وكما جـــاء في آخر الآية فهذا هو ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وتقول آية أخرى بأنه لا يحق لأحد الاعتراض على ما قسمه الله.

وكما اختار الله تعالى رسولنا وأصحابه في وقت مهم سيقوم باختيار قوم آخرين لإعزاز دينه في هذا الزمن الـــذي تركت فيـــه خدمة هذا الدين وحوصرت قلاع الإسلام من جميع جهاتها. صحيح إن هذا الاختيار ربما تم في معنى من المعاني في عالم الأرواح. وعلى أي حال فإن الله تعالى سيعلي كلمة هذا الدين مرة أخرى بواسطة أناس وقوم يحبهم ويحبونه. لذا كانت أوصاف هذا القوم مهمة. ودوام الآية يبين أهمية هذا الموضوع.

هذا القوم جماعة نـــزيهة وطاهرة إلى درجة أنه في مقابل أن الله تعالى عندما أحبهم واختارهم كجماعة، فهم يحبون الله تعالى من أعماق قلوبـــهم، وتصف آية أخرى هذا الحب فتقول بأنـــهم لن يكونوا في صف أعداء الله حتى وإن كان هؤلاء الأعداء آباءهم أو أجدادهم أو إخوانـــهم أو أبناءهم أو عشيرتهم. فحبهم معقود لله تعالى وحده: يحبون لله ويبغضون لله، يعطون لله ويأخذون لله. ولا يشغل قلوبـــهم ولا معاملاتهم شيء سوى حب الله، فلا شيء هناك يتقدم على هذا الحب، أو يحل محله. هذه هي الصفة الأولى والصفة الأهم في الجماعة التي ستأتي عندما يحين موعد قدومها والتي هي على اثر مدرسة الصحابة الكرام، أي صفة حب الله تعالى وابتغاء مرضاته على الدوام، وترجيح هذا الحب وهذا الرضا على ما عداهما.

لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسناً فهو ثم الله حسن وما رأوا سيئاً فهو ثم الله سيء". المسند للإمام أحمد، ٧٩/١؛ حلية الأولياء لإبي نعيم، ٣٧٥/١؛ المستدرك للنيسابوري، ٦٣٢/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧/١٠.

والصفة الثانية لهم هي أنهم أذلة على المؤمنين، ومتواضعون مع جميع المؤمنين غاية التواضع. واســـتنادا إلى نظرة الأستاذ النورسي الذي يقول: "الإكراه مع البدو والإقنـــاع مع الحضر ومع المدنيين" نستطيع تقديم تقييم آخر فنقول:

كانت جبهة الأعداء في وقت الصحابة متكونة من البـــدو، لذا كانت الغلبة عليهم تقتضي نوعا من استعمال القوة ضدهم. كما كان الانشقاق قد بدأ بالظهور بين أفراد العائلة الواحدة نتيجة لظهور الإســـلام والإيمان. وكانت "العصبية الجاهلية" أي الرابطة القومية والقبلية عنصرا مهما من عناصر ربط المجتمع وتوحيده. لذا كان استعمال الشدة مع تلك الظروف ضد الكفر والإلحاد ضروريا ومهما. لذا يجوز أن هذا هو الحكمة من وضع القدر الإلهي كإشارة وكرمز أبا بكر رضي الله عنه -المعروف برقته- في المقام الأول ويضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه -المعروف بشدته ضد الكفار- في المقام الثاني.

ولكن العالم الآن قد تمدن وتحضر في معظمه، لذا فالغلبة الآن تتم عن طريق الإقناع وعن طريق العلم وعن طريق المحاورة والكلام أكثر مما تتم عن طريق القوة والعنف. وفي مقابل هذا فقد نمت الفردية بين الناس وضعفت العلاقات الرابطة بينهم. وبما أنه أصبح الدور الآن هو دور الجماعة والشعور الجماعي أكثر من دور الأشخاص والأفراد المتميزين والفريدين، فإن المطلوب ليس التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر لينا وتواضعا، أي أذلة على المؤمنين،لا يقابل الشتم منهم إلا بالسكوت ولا يقابل عدوانهم إلا بالصبر، أي يضع رأسه تحت أقدام المؤمنين. ودرجة الرحمة المطلوب تأسيسها بين المؤمنين أعلى بكثير من درجة الشدة المطلوبة نحو الكافرين والملحدين. علماً بأن أول شرط في تأسيس الوفاق في هذه الخدمة المدنية بعد حب الله وابتغاء رضاه هـــو تأسيس جو هذا التذلل بين المؤمنين. أي حال التواضع الشديد. ومهما بذلنا من جهد في هذا السبيل فلن يغلى على هذا الهدف.

ونستطيع أن ننظر إلى نصيحة الأستاذ النورسي بضرورة قراءة رسالة الأخوة والإخلاص كل أسبوعين مرة في الأقل من هذه الزاوية. ويحتمل أن أكبر امتحان لنا سيكون في موضوع علاقات الأخوة الموجودة فيما بيننا.

ثم تقول الآية بأن المؤمنين يكونون ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا حسبما نفهم شيء أقل من الشدة. وكما قلنا أعلاه فإن مقابلة الأفكار المعادية في عصرنا الحالي والتغلب عليها يكون في الأكثر عن طريق الحوار والإقناع وليس عن طريق استعمال الشدة، لذا يكون حملنا لعزة الإسلام وكرامته كافيا تجاههم. وفي دوام الآية نجد أن صفة ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ مرتبطة بهذه الملاحظة. وكما نعلم جميعا فقد جاء وقت استهين فيه بالمؤمنين، وأصبح قول "إنني مسلم" سببا للاستهانة والتحقير. لذا رجحنا في طريق خدمتنا الإيمانية عدم الالتفات للجاه أو المنصب أو البزات الرسمية أو العناوين والرتب، بل اعتبرنا الإسلام السبب الوحيد للعزة، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. لذا يجب ألا نشعر أمام الملحدين وغير المؤمنين بشعور النقص، على العكس من هذا يجب أن نحس تجاههم في أعماق نفوسنا بعزة الإسلام، وبهذا الشعور نقوم بوظيفتنا في الإرشاد في البيت والمدرسة وفي السوق والشارع، وفي أي مكان نوجد فيه، وأن نمثل ديننا في عملية الإرشاد دون أن نخشى لومة لائم. وعندما يعدد القرآن صفات هذه الجماعة يقوم بالإشارة إلى بعض الحوادث الجارية في زماننا بشكل إعجازي... أجل! لو تم تناول هذه الآية من هذه النقطة فقط لرأينا أنها مفتوحة لمعانٍ كثيرة.

وهناك جهة إخبار غيبي في هذه الآية مما يشكل موضوعاً مستقلاً بنفسه. ومهما كانت الحادثة التي نزلت بسببها هذه الآية، فإن حكمها حكم عام مثل العديد من الآيات الأخرى. فقد أُريد من هذه الآية لفت نظر المؤمنين إلى أمر في غاية الخطورة وبأسلوب مؤثر يهز النفوس. وهذا الموضوع الذي تم تنبيه

المؤمنين إليه بجانب كونه موضوعاً كبيراً ومتشعباً فإنه منتشر في كل زمان وعهد بمقياس واسع يكفي لهز أنفس المسلمين. وهو منتشر إلى درجة أن الارتداد الذي بدأه بنو مدلج بزعامة أسود العنسي، ثم بنو حنيفة بزعامة مسيلمة الكذاب وطليحة ابن خويلد الذي أشعل نار الفتنة والانحراف بين بني أسد والقبائل التي ارتدت في عهد أبي بكر ﵁ وكان منها فزارة وغطفان وبنو سليم وبنو يربع وقسم من بني تميم، وكندة، وبنو بكر وغسان... كل هذه القبائل أخذت نصيبها من هذا الارتداد. حتى إن الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن جاءوا من بعدهم أخذوا نصيبهم من هذا الأمر، وإن كان بشكل نسبي واضافي، وذاقوا مرارته.

لذا فهذه الآية تقول لكل من يترأس الأمة الإسلامية:

أيها المؤمنون! من يرتد تماما أو جزئياً عن هذا الدين فليعلم بأن الله سوف يقوم باستبداله بقوم آخرين لا يعلم أحد زمانهم وفي أي عهد، ولا يعلم أحد مكانهم ومن أين يأتون، ولكنهم قوم نجباء لهم صفات معروفة، يحبهم الله ويحبونه، وهم متواضعون وأذلة للمؤمنين، وأعزة على الكفار وعلى الملحدين المعتدين وثابتون على الإيمان ويشكلون عنصراً مهماً في التوازن الدولي. هدفهم رضاء الله ووظيفتهم إعلاء كلمة الله، فهم مجاهدون على الدوام في سبيل الله، لا يهمهم سخط الناس ولا لومهم بل يهتمون فقط بأداءِ مهمتهم على أحسن وجه. وهذا فضل من الله تعالى يختص به من يشاء.

ويستفاد من هذا التوجيه العام بأن وقائع الارتداد عن الدين لن تبقى منحصرة في الأمثلة التاريخية السابقة بل ستتكرر على مدار التاريخ في جميع الأقوام التي تأخذ مكانها في التاريخ، وأنـــهم سوف يُستبدلون بقوم يحبهم الله ويحبونه.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]

يمكن تقييم هذه الآية من وجوه عديدة:

١- الكعبة في موضع القلب من هذه الأرض. وهي عمود نور يطوف حوله الإنس والجن من مركز الأرض حتى سدرة المنتهى. وفي كل آن وحين يشتاق للوصول إلى حرمها البلايين من الأرواح الطاهرة المرئية وغير المرئية. لذا يمكن القول من هذه الزاوية فقط بأن الكعبة مسقط سدرة المنتهى على الأرض. فكأن الله تعالى جعلها شارة تشير إلى الهدف مثلما تشير الضفيرة والشعيرة في البندقية(*) لذا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان بأن وضع الكعبة كوضع وحدة مقياس، وأن وجود العديد من الأشياء ومنها الدنيا مبرمجة حسبها... أجل! فإن لم تكن الكعبة موجودة فقدت هذه الأشياء معانيها، لذا نرى في أحاديث نبوية عديدة بأن هدم الكعبة علامة من علامات القيامة.[١] ومعنى هذا هو: "إن انهدام الكعبة يعني انقطاع آصرة الأرض مع السماء. ولا معنى لوجود دنيا لا ترتبط بالسماء. وما دامت الدنيا قد فقدت المقياس الذي يوصلها إلى هدف وجودها، إذن كان لزاماً عليها أن تنمسح من مسرح الحياة. إذن فالكعبة بهويتها هذه هي الركن والمستند الوحيد لبقاء الدنيا وهي تؤدي بجانبها الملكوتي هذا مهمتها ووظيفتها هذه. أي لو فقدت الكعبة غاية وجودها في يوم من الأيام عادت ورجعت إلى أصلها. وأود هنا تقديم مشاهدة تؤيد هذه الحقيقة، وتعود هذه المشاهدة إلى قطب من مريدي الإمام الرباني فنراه يقول: "كنت أطوف بالكعبة، وفجأة شاهدتها وهي تتعالى نحو السماء... كانت تتعالى من جهة ومن جهة أخرى تشكو من

(*) الضفيرة والشعيرة: نتوءان فوق البندقية لتسهيل التصويب نحو الهدف. (المترجم)

(١) مسلم، الفتن وأشراط الساعة ٨.

عدم قيام الناس بوظيفة العبودية الحقة... أمسكت بطرف ستارها وتوسلت إليها أن ترجع" فهل رجعت بروحها وسرها وهل بقيت في مكانها أم لا؟ يصعب الإجابـــة على هذا الســـؤال دون وجود مشاهد من ذلك النمط والمستوى.

ولا أظن أن الوضع الحالي يختلف عن ذلك. ولكننا نأمل في اللطف الإلهي الواسع. ومن يدري فلعل الوضع الأليم الحالي للمؤمنين ينبع من تعرض الكعبة إلى مثل هذه الاستهانة وعدم التوقير!

٢- يستطيع الإنسان أن يعيش الإسلام في حياته الفردية والشخصية كذلك، ويمكن أن ينجح في أداء الفرائض المكلف بها، ولكن لا يمكن أن يكون مظهراً للألطاف الإلهية بالمعنى العام وأن يمثل هذا المظهر بالمعنى الكامل إلا بالجماعة. والكعبة في موقع قَيُّوم مثل هذا التجمع وتكوين الجماعات وصيانتها والمحافظة عليها، اعتباراً من توجه ملايين الناس إليها في الصلاة وانتهاءً إلى قيامها بجمع الملايين في الحج والعمرة فتكون وسيلة وواسطة لتمتين شعور الجماعة وتقويتها وإدامتها. ويجب ألاّ ننسى هنا حكمة كون الحج مؤتمراً عالمياً عاماً. أجل إن أداء الحج على وجهه الكامل يعد عقداً لمؤتمر عالمي للمسلمين. ولو كان للمسلمين هذا الشعور لكان من الممكن العثور على حلول لبعض مشاكل العالم الإسلامي. وإذا كان الحج لا يستطيع اليوم أداء هذا الدور فهذا ينبع من نقص الوعي عند المسلمين، والا فهناك مثل هذه الإمكانيات وهذه القدرة على الدوام في الحج. وهكذا يتبين أن الكعبة بامتلاكها هذا الوصف وهذه الميزة تعد قياماً للناس ومصدر قوة للناس واقتدار لهم.

٣- تعد الكعبة قياماً لكل مؤمن على حدة من ناحية قيامها بتقوية قواه المعنوية. لأن كل مؤمن متوجه للكعبة يرى توجه الملايين من الناس -ومن ضمنهم مئات الآلاف من الأولياء والأصفياء ومن الذين تفتحت قلوبـــهم

وعيونـــهم على الحقائق- حجة بالغة ضد الشبهات التي قد تحوك في صدره فيصل إلى الراحة النفسية ويطمئن قلبه. بل يستطيع الإنسان أن يسكت صوت النفس والشيطان في داخله الذي يوسوس في صدره بأن الكعبة لا تملك أي قدسية لأنـــها ليست سوى بناء من حجر وتراب. أجل! فهو يقوي إيمانه ويقول في نفسه إنه لو لم يكن للكعبة مثل هذه القدسية فهل كان في إمكانـــها أن تكون مركز جاذبية واهتمام لمئات الآلاف من كبار المرشدين المعنويين والعبقريين؟.

٤- وللكعبة -بوصفها قياماً للناس- علاقة وثيقة جداً بحركة الإحياء والتجديد أيضاً. ووحدة القياس لمعرفة مستوى تحقق حركة الإحياء هذه تتناسب طردياً مع فهمها لحقيقة الكعبة. فإن بلغ هذا الفهم الذروة في يوم من الأيام سيكون البعث والإحياء في الذروة أيضاً.

والخلاصة إن الكعبة كانت على الدوام نور العيون وشفاء الصدور ومنبع الحماسة والقوة. وبها حافظ المؤمنون على التناغم بين الدين والدنيا وقامت على الدوام بمهمة التوازن في قلوب المؤمنين. والذين توجهوا لله توجهوا بها إليه، وبها تتم فريضة الصلاة والحج. وهي وما حولها ملاذ الذين يبحثون عن طمأنينة القلب وسكونه. هي مؤنسة القلوب التي تئن من ألم الغربة، ومزيلة وحشتها. وفي الخط الموصول بين القلب وسدرة المنتهى هي المحراب وما وراء المحراب، وهي مجمع أفضل الأصوات وأغناها بالتضرع والدعاء الذي يكاد يسمع بأذن الروح من بنائها وأحجارها القائمة في أبرك بقعة على الأرض.

ندعو الله تعالى ألا يحرمنا من وصايتها علينا.

سورة الأنعام

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

ولادة الإسلام ورسالته في مكة ثم انتشاره في أرجاء العالم بعد ذلك مبنية على حكم عديدة. وكما يمكن تقييم الآية الكريمة ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ من هذه الزاوية أيضاً، يمكن تقييمها أيضاً من الناحية الإنتروبولوجية والجغرافية والتاريخية والإنسانية ومن ناحية المكان واللغة وسائر الأبعاد الأخرى للمسألة. أجل! إن الله تعالى هو أعلم بمن يختاره لنبوته ولرسالته، وفي أي مجتمع يظهر رسوله. كما أنه هو الأعلم متى يظهر رسالته وفي ضمن أي جو من الصراع الدولي والديني والإنساني وبعد بلوغ هذا الصراع أي مستوى يرسل رسولاً جديداً وديناً جديداً. والآن لنتفحص هذه الأمور:

١- البعد الإنساني للرسالة:

تشير هذه الآية إلى أن الله تعالى هو الأعلم بالرسول الذي يختاره ويودع إليه أمانة تبليغ هذه الرسالة الإلهية، ولمن يتم توجيه هذه الرسالة. وفي العهد النبوي كان هناك من يظن أن وليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي أولى بالرسالة وأنسب. وقد ذكر القرآن رأي هؤلاء في هذين الشخصين في آية أخرى فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١). ورد القرآن عليهم فقال ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الزخرف: ٣٢). ولا شك أن قضية خطيرة جداً وأمراً خطيراً جداً مثل أمر النبوة لا يمكن تركه لرأي هذا أو ذاك. فاذا كان الله تعالى يعلم -وهو يعلم دون شك- اللطائف الإنسانية الموجودة في روح الإنسان وقلبه

ويهدف إلى إحيـــاء هذه اللطائف فيه فهو الأدرى بلاشك بانسب شخص للقيام بـــهذه المهمة. لذا فالشخص الذي يشرفه الله تعالى بالرســـالة هو أنسب الأشخاص.

إن قيام الوليد بن المغيرة وغيره باستصغار نبينا ﷺ والنظر إليه باعتباره غير أهل للرسالة يُعدّ اقترافاً لجرم كبير، وهم بـــهذا العمل هبطوا في نظر الله تعالى إلى أوطأ درجة ومنـــزلة واحقرها. والله تعالى يخبرنا بالهوان والصغار الذي سيصيب هؤلاء في سياق الآية نفسها ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والله تعالى يقول:﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥) فما علينا إلا توقير واحترام من اصطفاه الله تعالى واطاعته. وإلا فابداء أي تذمر ضد من اختاره الله يهبط بمنـــزلة ذلك الإنسان ويجعله حقيراً ومهاناً، ويكون محروماً من الفيوضات والبركات التي يتمتع بها الأنبياء والأولياء والأصفياء والمقربون.

أجل! مثل هذا الشخص -مهما كانت منـــزلته- سيكون حبيس الهوان والصغار، ويحرم من كل الفيوضات الربانية.

ثم أن عظمة رسولنا ﷺ ولياقته وقابلياته معروفة ومسلم بـــها في جميع العصور والعهود ومن قبل الجميع. ومع أن الكتب المنـــزلة القديمة حرفت، فإن علماء أجلاء من أمثال العلامة رحمة الله الهندي والعلامة الجسر وجدوا في هذه الكتب أربع عشرة ومئة بشارة ونصاً حول مجئ هذا الرسول الكريم. أجل! فقد أجمع الأنبياء -اعتباراً من داود وسليمان وموسى عليهم السلام وانتهاءً إلى يحيى وزكريا وعيسى عليهم السلام- على البشارة بقدوم هذا الرسول الكريم، واخبروا أممهم وأقوامهم بأنه سيكون جامعاً لجميع فضائل الأنبياء عليهم السلام. وبـــهذا الاعتبار فالرســـول ﷺ هو صاحب "مقام الجمع".

أجل!... لقد تجلت فيه وحدة الأنبياء العظام، أي أن الرسول ﷺ كان برسالته العالمية الشـــاملة جامعاً لأفكار جميع الأنبياء العظام للإنسانية ورسالاتهم. لـــذا فهو يعد من جهة تأسيس جميع قضايا الإيمان الضرورية مؤسساً، ويعد من جهة تصحيحه للتحريفات مصححاً، ويعد مجدداً في الأمور التي احتاجت للتجديد والتكميل، لذا فلا رســـول ولا نبي بعده. لأن قضايا العقيدة وصلت إلى وحدة متكاملة، فمن يأتي بعده سيمزق هذه الوحدة المتكاملة. لذا فهو الرســـول والنبي الأخير، أي هو خاتم الأنبياء والمرسلين. لأن الإنسانية وصلت بـــه في الفكر والشعور وفي الدين والعقيدة وفي الإدارة والسلوك والطريق إلى جميع مفاتيح المغاليق في العقيدة والفكر والحياة بحيث لم تبق هناك حاجة لرسالة جديدة. لذا كان على الإنسانية جمعاء تنظيم جميع قضاياها الحيوية في ضوء هذه الرســـالة الأخيرة وعلى هداها.

والجانب الآخر لهذا الموضوع هو أن نبوة محمد ﷺ ورسالته كانت قبل جميع الأنبياء والمرسلين. فقد ورد في أحد الأحاديث: "أول ما خلق الله نوري"،[1] وفي حديث آخر "كنت نبياً وآدم منجدل في طينته"[2] أي أن تخطيط إرساله نبياً كان قبل الجميع، وقد تناول المتصوفة هذا الأمر تحت عنوان "الحقيقة الأحمدية" ووقفوا عندها كثيراً. وهم يرون أن الحقيقة الأحمدية هي في الوقت نفسه حقيقة الكون، وأرادوا به اظهار عظمة الرسول ﷺ وانه كان مظهراً لأعظم رسالة.

من المفيد هنا أن نقف لحظة أمام هذا الأمر الآتي: إن الرسول ﷺ وصل إلى مرتبة لم يصل إليها أحد. إذا أخذنا بنظر الاعتبار النور الذي نشره من ناحية الكم ومن ناحية الكيف أيضاً، ولا يستطيع أحد الوصول إليه. وهذا

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ١/٢٦٥.

(٢) كشف الخفاء للعجلوني، ٢/١٢٩-١٣٠، ١٣٢.

من الناحية العملية أكبر دليل وبرهان على عظمة الرسالة التي حملها ونشرها.

ذلك لأن مئات الأديان كالبوذية والبراهمية والطوطمية وغيرها وحتى الأديان السماوية كالمسيحية واليهودية قد أصابـــها التحريف والتبديل بنسبة ما باستثناء الإسلام. قد تكون المسيحية اليوم أكثر انتشاراً من الإسلام، غير أنه من الصعب اليوم العثور على المسيحية الحقيقية حسبما جاء بـــها السيد المسيح عليه السلام، ومن الصعب اليوم أن تفهم المسيحية التي غرقت في لجة تأويلات وتفسيرات معقدة. ولو لم نطلع في القرآن الكريم على الهوية الحقيقية للمسيح عليه السلام، لما كان بامكاننا قبوله بالشكل المقدم في الكتاب المقدس في خضم التناقضات العديدة الموجودة حوله. لأن عيسى عليه السلام الذي يظهر أمامنا في انجيل يوحنا وفي إنجيل متى ولوقا لا يختلف في شيء عن الله تعالى "حاشا لله"، فهو على العرش بجانب الله ويتقاسم معه الربوبية، ولا تتخلص الإنسانية من خطيئتها المتوارثة -حسب زعمهم- ولا تستطيع أن تدخل الجنة التي فقدتها إلا بفضله. أجل!... إن ماهية المسيح عليه السلام معقدة ومضطربة وبعيدة عن التصديق إلى هذه الدرجة في النصوص الحالية للكتاب المقدس. ومثل جميع الحقائق الأخرى، فلم نعرف حقيقة المسيح عليه السلام إلا بفضل رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم....؟

٢- البعد المكاني للرسالة:

﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، بنشأة رسولنا صلى الله عليه وسلم في مكة حكم عديدة أيضاً من ناحية الرسالة. فمعلوم أن مكة المكرمة تحيط بسرة الأرض. والكعبة ســـرة الأرض وقلب الوجود. ويقول بعض الأولياء من أرباب الكشف أن الكعبة والرســـول صلى الله عليه وسلم خلقا معاً، وإن حقيقة الكعبة والحقيقة الأحمدية مترافقتان ومتقارنتان. ففي نـــزول الحقيقة الأحمدية اخطأ بعض الأولياء عندما قالوا إن حقيقة الكعبة متقدمة على الحقيقة الأحمدية. بينما الحقيقة الأحمدية لم تتأخر عن حقيقة الكعبة ابداً.. وهاتان الحقيقتان وجهان لوحدة واحدة. ولو

أريد لأي دين عالمي أن يمثل في الأرض لكانت مكة المكرمة -التي نشأ فيها الرسول ﷺ- هي أفضل مكان له. ثم ألا يصفها القرآن الكريم بأنـــها "أم القرى"؟ أجل إنـــها أم المدن وأم القرى وقد عملت كحاضنة للرسول ﷺ في نشأته، بل غذته كما يغذي رحم الأم الجنين. إن النبي موسى عليه السلام لم يتلق رسالته إلى بني إسرائيل من "الأيكة"، بل من الأرض المباركة طور سيناء. وكما رنّت هذه الأرض بالدين الموسوي، وكما تلقى موسى عليه السلام رسالته الأولى إلى بني إسرائيل من هذه الأرض حسب مستواهم، كذلك ما كان لرسالة القرآن العالمية الشاملة في الزمان والمكان أن تنطلق إلا من البلدة التي توجد فيها الكعبة... وهكذا كان.

والجانب الآخر من المسألة هو أن مكة كانت بلدة استراتيجية من وجوه عدة، إذ كانت ملتقى عدة دول آنذاك... كانت كالساحل الذي تضربه الأمواج تتكسر عليه. كما كانت مكة والمدينة مهداً لمدَنيات قديمة مثل مدَنية سبأ وحضرموت وصنعاء، ويقال إن المسافر الذي كان يخرج من المدينة متوجهاً نحو حضرموت كان يسافر في ظلال وارفة ولا تمسه الشمس حتى وصوله إلى حضرموت. وألا يذكر القرآن هذه الجنان ويصفها بجنة الأرض أو جنة عدن؟. وهكذا كانت مكة والمدينة مهدين لمثل هذه الحضارات القديمة كما كانتا على علاقة بمدنية بيزنطة في روما ومدنية الساسانيين في إيران. وقد التقت ثقافة روما بواسطة مدينة انطاكيا، مع ثقافة مصر القديمة "أنتجت" أو "أتجبت" مدينة الإسكندرية التاريخية.. كانت روما تعد آنذاك القوة العالمية العظمى، وقد نـــزلت سورة "الروم" في حق القوى العظمى في تلك الأيام. وفي سنوات الولادة أسست الإمبراطورية الساسانية حكمها في اليمن لفترة معينة. وقامت أحياناً بتحريض اليمن ضد أهل مكة. ولم يكن مجئ جيش أصحاب الفيل إلى مكة لتخريبها إلا نتيجة تحريض الساسانيين ولكن الله تعالى لم يسمح أن يصيب مكة أي ضرر، وأبقاها بلدة آمنة.

لذا يمكن القول من هذه الزاوية بأن الجزيرة العربية كانت أرضاً ملائمة لتقديم رسالة الإسلام العالمية. أجل إن رسالة تخاطب العالم أجمع يجب أن تنبثق من مكان بحيث ما أن تظهر هذه الرسالة للوجود حتى يكون بالإمكان نشرها في العالم. وكانت مكة والمدينة صالحة من الناحية الإستراتيجية لهذا الأمر. فما أن وقفت دعوة هذه الرسالة على قدميها في هذه الأرض المباركة حتى واجهت هاتين الحضارتين وهاتين الثقافتين. ثم بواسطة هاتين الحضارتين وهاتين الثقافتين استطاعت هذه الرسالة الوصول إلى أمم وشعوب عديدة. فبواسطة إحداها وصلت إلى أبواب اوروبا، وبواسطة الأخرى وصلت إلى أقاصي آسيا لكي تؤدي مهمتها العالمية الشاملة.

كانت مكة آنذاك مركزاً تجارياً مهماً يأتي إليها التجار من مختلف البلدان للاستيراد وللتصدير وكانت مكة مدينة صالحة للتجارة صيفاً وشتاءً، وكما جاء في القرآن فإن قوافل التجارة كانت تسير إلى الشام وإلى اليمن من مكة، حتى إن مكة اصبحت قلب التجارة في تلك المنطقة، حتى إن المسلمين عندما هاجروا من مكة إلى المدينة نافسوا تجار اليهود الذين كانوا يحتكرون التجارة في المدينة، وبعد فترة عجز التجار اليهود عن منافستهم. وهذا يرينا أن التجار المكيين كانوا بفضل تمرسهم بالتجارة الدولية على علم بالبنية الاجتماعية والثقافية للدول العظمى. ونعرف اليوم بشكل أفضل بأن فهم الطابع الاجتماعي والخصائص الاجتماعية العامة لأمة والاطلاع على اهتماماتها، ومعرفة بنيتها الاقتصادية من أهم الأسس في إقامة العلاقات معها. كان أهل مكة في ذلك العهد على علم بثقافة وعادات الأمم المجاورة بفضل العلاقات التجارية التي اقاموها معها. وكان هذا الأمر ملائماً لتشكيل أساس مناسب للدعوة إلى الرسالة التي ظهرت هناك فيما بعد. أجل!... إن ظهور الرسول محمد ﷺ برسالته العالمية الشاملة في ذلك المكان المبارك، في مكة المكرمة أمر هام جداً. ولو قمت بتغيير هذا المكان أي لو أخذت هذه الرسالة من مكة ومن المدينة ونقلتها إلى الطائف أو إلى الرياض أو إلى عمان

لتغيرت موازين عديدة وخسرنا جميع المميزات التي كانت تتميز بها مكة، وهذا يعني أعاقة نمو هذه الرسالة وانتشارها. أجل!... إن مكة والمدينة كانتا مدينتين ضروريتين للدعوة وللرسالة.

ويجب أن نذكر أيضاً إن ظهور هذه الرسالة في جو صحراوي ملتهب يعد شيئاً إيجابياً. فمثل هذه الصحارى بلعت غزاة عديدين مثل نابليون وهتلر وقواد الرومان وغلبتهم. أما المجاهدون المسلمون الأوائل الذين كانوا قد تعودوا على مشاق هذا المناخ فقد انتصروا في كل معركة دخلوها. بينما كان الآخرون يتقدمون بصعوبة في هذه الربوع، أما المجاهدون المسلمون فقد كانوا -متأقلمين مع هذه الطبيعة المناخية والجغرافية- يستطيعون التقدم بكل سهولة وبكل سرعة كما كانوا يملكون تفوقاً لوجستيكياً. فمثلاً لو أن جيشاً متعوداً على مناخ تركيا أو مناخ الشام دخل معركة تبوك لكان من المحتمل أن يكون التلف مصير مثل هذا الجيش.

وهناك مسألة أخرى، وهي أن جزيرة العرب لما كانت صحراء قاحلة لم تكن الدول الكبرى تطمع فيها، كما لم يكن البترول ولا الثروات الأخرى معروفة آنذاك. وكانت نباتاتها وأشجارها وأراضيها الخضراء قليلة جداً. لذا لم تكن مكة ولا المدينة -خارج أمور التجارة- مدناً يطمع فيها الآخرون أو يحبون استكشافها. لذا بقيتا مصونتين من احتلال الدول الأخرى. ومع أن الدول الكبرى آنذاك كانت تبعث من حين لآخر بعض الولاة إلى هذه الأماكن المباركة. ولكن هذه الدول كانت تعلم أنه لا يوجد لها ما تنتفع به في هذه الأماكن. لذا لم تنفذ ثقافات هذه الدول إلى هنا ولم تقم بإفساد فطرة الناس فيها. لذا وجد الإسلام الفرصة لكي يقوم بنشر عقائده الصافية والمصانة من تأثير المدنيات والثقافات الأخرى، في ربوع العالم بأسره. ولو حدث العكس، أي لو تعرضت مكة والمدينة لاحتلال فكري وثقافي اجنبي، لصادفت رسالة الإسلام صعوبات اضافية. لقد وجدت الثقافة الإسلامية في هذا المركز

الأمين مهدها مثلما يجد المطر أرضه الصالحة التي تتفجر منها الينابيع الثرة التي لا تستطيع الدلاء تكديرها. لذا لم تستطع لا عقيدة الساسانيين ولا عقيدة روما الوثنية تكدير النبع الصافي لهذه الرسالة، فحسب مثل "لا تكدره الدلاء" لم تكن الدلاء المدلاة إلى هذا النبع الصافي -المستند إلى الفيض الأقدس وإلى الوحي والمحفوظ تحت أمن الجناح الألهي- قادرة على تكديره.

وهكذا فإن مكة الحائزة على صفة مميزة وهي كونها بمثابة مسقط لسدرة المنتهى،[1] وكذلك بسبب موقعها الجغرافي المتميز كانت تملك أهمية كبيرة كمكان صالح للرسالة. وانتقلت أمانة حمل هذه الرسالة فيما بعد إلى مدن أخرى بعد تغير الموازنات الدولية والخصائص الاستراتيجية، ولكننا ننظر الآن إلى فترة ظهور الرسالة، وهي الفترة التي تشير إليها الآية الكريمة. لأننا نعلم أن مدينة بغداد والشام واستانبول اصبحت في عهود مختلفة مركزاً لانتشار الإسلام زمنا طويلاً. وحتى في العهد الذي كانت فيه استانبول تمثل الرسالة كانت مكة والمدينة محافظتين على مكانتيهما المباركتين كقرة عين للعالم الإسلامي وتاجاً على رأسه.

٣- البعد اللغوي للرسالة:

يأتي في عدة آيات موضوع نـــزول القرآن باللغة العربية. وهذا يبين كمال اللغة العربية ولاسيما في ذلك العهد. أجل!.. كانت اللغة العربية تعيش عهدها الذهبي الزاهر في ذلك العهد. إن لكل لغة عهدها الذهبي، فمثلاً كان عهد الملكة اليزابيث والكاتب شـــكسبير العهد الزاهر للغة الانجليزية والظاهر أنـــهم لم يقعوا في اخطاء في موضوع اللغة مثل ما وقعنا نحن. كما أن الانفتاح على علم التكنولوجيا وعلى الثقافات المختلفة يكسب

---

(١) عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: "... ثم البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل بيت الله الحرام، لو سقط لسقط عليه..." المعجم الكبير للطبراني ٤١٧/١١؛ شعب الإيمان للبيهقي ٤٣٧/٣؛ المصنف لعبد الرزاق، ٢٨/٥.

اللغة غنى وثروة. وقد نظر الانجليز على الدوام باحترام وتوقير إلى هذا العهد. ويعد العهد الذي نـــزل فيه القرآن العهد الذهبي للغة العربية إلى درجة أن أبسط بيان آنذاك كان يصاغ في آية من الروعة. لقد نـــزل القرآن بلغة قريش ولكنه كان مفتوحاً أيضاً على لهجات القبائل الأخرى كذلك.

لقد بحث العديدون وكتبوا حول الناحية الأدبية للقرآن الكريم، وقد ظهر عباقرة عديدون في هذا الموضوع من أمثال عبدالقاهر الجرجاني والسكاكي والزمخشري في الماضي وحتى مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب في عصرنا الحالي والعلامة سعيد النورسي صاحب كتاب "إشارات الإعجاز".

لقد تحدى القرآن معارضيه منذ نـــزوله وحتى اليوم ببلاغته وإعجازه، فكم من أديب وبليغ حاول الإتيان بمثله أو تقليده، ولكنهم خابوا وفشلوا. وكم من محب له زين مقالاته واشعاره بآياته وببليغ بيانه. ولكن لم يكن بمقدور أحد الوصول، أو الاقتراب من قمته، ولا يزال القرآن حتى اليوم – وهو يقرأ من قبل البلايين– يهمس لنا وهو يبتسم من سماء الوحي باستحالة الوصول إلى بلاغة اسلوبه وبيانه. وفي عهد الجاهلية كم من شاعر وأديب استسلم للقرآن الكريم عند سماعه له مرة واحدة، بل إن الوليد بن المغيرة – على الرغم من عداوته للإسلام– بُهت أمام بلاغة القرآن.

كما سحرت بلاغة القرآن اعدى أعداء الإسلام من أمثال عتبة بن أبي ربيعة وأبي جهل، و لم يجرأ أحد على تحديه. انظروا مثلاً إلى عمر بن الخطاب ﵁ الذي كان مطلعاً على الأدب الجاهلي وعلى الشعر الجاهلي إلى درجة أنه قال مرة بانه يستطيع أن يقرأ ألف بيت من شعر العرب.. هذا العقل الكبير بُهِتَ وسُحِر عندما استمع إلى سورة طه فاستسلم للقرآن مع أنه كان قد قرر قتل الرسول ﷺ.

وحسب بعض الروايات والنقول لو اوقفت في ذلك العهد أي شخص ماراً في درب من دروب مكة وطلبت منه قراءة بعض أبيات من الشعر

لاستطاع أن يقرأ لك شعراً طوال أربع أو خمس ساعات... كان هذا هو مبلغ انتشار الأدب بينهم. وعندما نـــزل القرآن، نـــزل بهذه اللغة الغنية. وقد نـــزل بآيات يستطيع البدوي الإعتيادي فهمها، كما يستطيع الشاعر الفحل تذوق جمالها الأدبي. أجل!... فكما كان البدوي يحدو بايات من القرآن وهو يسوقُ أبله، كان أفصح البلغاء والأدباء يقرأونه بلذة ونشوة روحية وأدبية كبيرة.

هذا هو ضمن ما تعنيه آية ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فهو الأعلم بأي لغة ينـــزل هذه الرسالة. لقد نـــزل القرآن بلغة تُمكّن القانوني من مراجعته من زاوية علم القانون فيجد فيه بغيته بسهولة، ويستطيع الإداري والمختص بعلم الكلام والمفسر مراجعته كل في ساحة اختصاصه فيجد فيه كل دقائق ساحة علمه واختصاصه ويستفيد منه. مع أنه من المعلوم أن لغة القانون شيء ولغة التفسير ولغة علم الكلام ولغة الأدب ولغة العقائد شيء آخر، وهذه اللغات يختلف بعضها عن البعض الآخر. ولكن القرآن يراعي جميع دقائق اللغة في جميع هذه الساحات المختلفة ولا يخل بأي قاعدة أو أساس فيها. وهاكم التاريخ الإسلامي وهاكم العلوم الشرعية وهاكم المدارس الفقهية "القانونية" المختلفة، وهاكم العشرات من المدارس الأدبية وهاكم آلاف المحققين والمدققين والمفسرين الذين انجبتهم هذه المدارس المختلفة... كل هؤلاء على آلاف مشاربهم وأذواقهم عدوا القرآن أهم مرجع لهم فكتبوا الآلاف من الكتب على ضوئه.

إذن فالله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته... لمن يعطي هذه الرسالة، وفي أي بلد وبأي لغة ولا نقول أن الله أعلم بهذا من ناحية النسبة، بل نقول هذا ونعنى به أنه العليم الوحيد، ولا يكون لأي أحد آخر أي نصيب من هذا العلم، ولا يملك أي أحد آخر مثل هذا التقدير، ولا يحقق له هذا أبداً، ومن يدعي هذا يكون له الخزي في الدنيا وفي الآخرة.

سورة الأعراف

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٥-١١٦]

أعتقد أن هنا أمراً كثيراً ما يخفى عن الأنظار، وهو أن السحر كان من أهم الأمور التي كان الناس يهتمون بها، وهذا ما نفهمه من اجتماع الناس لرؤية الألعاب السحرية في ميدان في يوم العيد. وقد أراد موسى ﷺ للسحرة أن يكونوا هم البادئين باظهار سحرهم. وعندما ابطل موسى سحر هؤلاء ذُهل الناس وفي مقدمتهم السحرة الذين أدركوا -وهم الذين بلغوا الذروة في السحر- أن ما جاء به موسى لم يكن سحراً فآمنوا على الرغم من فرعون وسطوته. وقدم السحرة بايمانهم الفوري هذا خدمة كبرى، لأن الناس -الذين كانوا يثقون بهؤلاء السحرة وأخذوا أماكنهم في صفهم- آمنوا بايمان هؤلاء السحرة.

إذن فقد كان هناك فئة من المشعوذين الذين أسسوا عالمهم على الكذب وعلى خداع الناس وكان هناك حكم فردي مطلق يجبرهم على سلوك هذا الطريق، ثم هناك الجماهير المساقة على الدوام حسب أهواء هاتين الطبقتين، لذا فعندما بدت حبالهم وعصيهم وكأنها حيات تسعى[1] فترة قصيرة، إذا

(١) سواءً أكان ذلك الأمر صورة خيالية بدت للناس نتيجة سحر أعينهم، أم أن السحرة قاموا بملء أغلفة

بعصا يابسة تنقلب إلى حية وتبتلع كل ألاعيب السحرة. أما الجماهير التي كانت تتابع بكل فضول وذهول ما يحدث أمامها فقد أفاقوا ولم يكن أمامهم إلا أن يقولوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢١) جنباً إلى جنب مع رموز الباطل الذين كانوا أول من هتفوا بهذا الاعتراف الكبير بكل وضوح ودون أي تردد، بعد أن انفتحت قلوبهم فجأة للنور الآتي اليهم من وراء الآفاق...

يكرر القرآن هـــذا المشهد في عدة مواضع وبأســـاليب مختلفة وملائمة للسياق، وهو بذلك يسوق لنـــا العبر من خلال فرجة بـــاب التاريخ الذي يكرر نفسه... يعرض هذه العبر وكل واحد منا يستطيع أن يأخذ منها حسب قابلياته وسعة أفقه.

جلود وغيرها بالزئبق، وبدت للانسان من انعكاس أشعة الشمس عليها ومن حرارتها انها تتحرك وتسعى فالأمر لا يهم كثيراً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]

هناك حقيقة واقعية وهي أن بعض المؤمنين يدخلون أحياناً في دائرة الشرك وإن لم يكن هذا الدخول بقطعية أهل الشرك. وكما تبين هذه الآية الكريمة فإن الحب المفرط للأولاد درب من دروب الشرك. فبدلاً من النظر إلى أولادنا وأحفادنا بأنــهم نعمة ولطف وأمانة من قبل الله مودعة في رقابنا، ننظر إليهم وكاننا مالكون لهم، بل يقوم البعض بترك الصلاة والعبادة بسببهم فكأن حبهم للأولاد أكثر من حبهم لله تعالى. وبدلاً من حبنا للأولاد من أجل الله، نقوم بحبهم دون التفكير في الله "إن كان هذا التعبير جائزاً" ونحس بمستوى من العلاقة ومن العاطفة والحب يؤدي إلى درجة شرك ضمني دون قصد. إذن يجب التصرف حسب قاعدة "لا يسع قلب واحد حبين".(١) ونكون على أهبة دائمة ضد الشرك. طبعاً إن هذا سهل جداً من ناحية القول ومن ناحية مجرد الكلام، ولكن تطبيقه في الحياة أصعب مما يبدو. ومع ذلك فيجب أن نفعل كل ما في وسعنا للتطهر من الشرك، وبذل كل عناية لعدم الإقتراب من أماكن تشم على البعد منها رائحة الشرك. فإن فعلنا هذا يأتي دعاء الرسول ﷺ كوصفة مهمة وضرورية "اللهم

(١) أو حسب ما جاء في القرآن ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب: ٤).

إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم".[1]

ويمكن النظر في موضوع حب الأولاد من زاوية مختلفة: قد لا يؤاخذ الإنسان في المسائل العاطفية. غير أنه مكلف من الناحية الدينية بتعديل مشاعره الفطرية. فمثلاً قد يكون أحدهم نــهما في الأكل والشرب وقد يتمنى عيش حياة ارستقراطية، ويظهر رغبة وحرصاً شديدين في هذا الأمر، فيتصرف دون أن يحسب حساباً لعواقب هذا السلوك. لأن الإنسان بفطرته خلق ضعيفاً أمام رغباته وبخيلا وعجولاً. فهذا موجود في فطرته. كما أنه يحمل بين جنباته بجانب مشاعر الحقد والكره والعداء مشاعر محبة ومشاعر إنسانية. وهذه الخصال بمثابة ممرين يؤديان إلى الشر وإلى الخير. لذا كان عليه القيام بسد المنافذ والأبواب المفتوحة في ماهيته على الشر، وأن يسيطر على مشاعره العدوانية بأفكاره وبمشاعره الدينية، وهذا ما ندعوه بالتعبير الديني "إكتساب الفطرة الثانية"، لكي يصل إلى الكمال المقدر له. أي أن يجعل من فطرته -التي يفتح لها الباب على كل شيء- باباً واحداً فقط مؤدياً به إلى الله تعالى وتقوية صلته به.

وحب الأولاد من هذا القبيل، فهو موجود في فطرة الإنسان، ولولا هذا الحب لما تلقى الأطفال أي رعاية، ولما اهتم احد بهم وبتربيتهم وتعليمهم. ولما تقدم لا البلد ولا الإنسانية. نرى حوالينا العديد من الأولاد الشقاة والعصاة، ومع ذلك يبقون في رعاية آبائهم وأمهاتهم. ولولا هذا الحب الموجود في فطرة الإنسان نحو الأولاد لامتلأت الشوارع بالاولاد المطرودين من البيوت. ولكن يجب ملاحظة ضرورة تعديل القلوب من ناحية هذه العاطفة -كغيرها من العواطف الأخرى- بعاطفة حب الله تعالى لكي يتم الوصول إلى الإستقامة المطلوبة. لأن الإرتباط بالله إن لم يكن هو محور الحياة فلا مناص من الإنحراف. لذا وجب نمو حب الله تعالى وتجذره في كل قلب.

---

(١) مسند أبي يعلى ١/٦٠؛ الأدب المفرد للبخاري ١/٢٥٠.

وهذا مرتبط برياضة وبتدريب معينين. أي إن قال أي إنسان لم يعرف في حياته أي رياضة روحية "إنني أهب مالي وولدي في سبيلك يارب!" كان هذا أحياناً رياءً وأحياناً كذباً. لأن من الضروري قبل هذا طرد الخصال القبيحة من الروح واستنبات الخصال الحميدة خصلة خصلة مكانها لكي تتشرب اعماق نفوسنا بالاسلام ويصبح قطعة من طبيعتنا ومن فطرتنا فتكون تصرفاتنا الجميلة طبيعية آنذاك. وإلا لما استطعنا التخلص من الثنائية في التفكير ومن الثنائية في العيش وفي التصرف.

والآية تنتقل من آدم عليه السلام إلى بني آدم فرداً فرداً وجماعة جماعة، وتمتد كسلسلة طويلة حيث تظهر ضمن وحدتها العامة وضمن نوعها تمايزاً واختلافاً، وغنى في محتواها. هذا الإنسان الذي إن أفلح في بلوغ الهدف سبق وبزّ بثوابه الملائكة، وإن أخلد إلى الأرض كان أدنى من الشيطان الملعون وأحقر. وعندما تذكر الآية هذه الحلقات الصالحة أو الفاسدة من هذه السلسلة للسلالة الإنسانية تستعمل أسلوباً معيناً في شرح هيئتها العامة لذا عندما ندرك هذا لا نحتاج إلى طرح سؤال: من هذه الأزواج؟ أهي آدم عليه السلام وزوجته حواء؟ أم قصي وزوجته من قريش؟ أم غيرهم؟

إن هذا الإنسان بروحه واستعداداته ومحتواه وخلقه وغناه مخلوق مع زوجه من نفس واحدة نستطيع أن نطلق عليها اسم "الفرد الحقيقي"، ثم خلق من هذا الإنسان -أو من جنسه- مخلوقات أخرى، بشكل أزواج. أي أنه خلق زوج الإنسان وشكّله من العناصر الرئيسة لماهيته، وجعل أحدهما محتاجاً للآخر. ومتمماً له، ويجد الطمأنينة والراحة معه، يفهم أحدهما الآخر ويشعر به ويستطيع أن يبثه ما يعتلج في قلبه... أي كل منهما وجه لوحدة واحدة من الخلق، فيتم التذكير هنا بوحدة الخلق، ويتم التذكير باننا كنا مظهراً للخلق ونعمته، أي عندما تمتليء قلوبنا بمشاعر الشكر تمتليء كذلك عقولنا وإدراكنا بأحاسيس الحمد أيضاً.

سورة الأنفال

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنفال: ٤٢]

والحقيقة أنه حسب آية ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (يونس: ٩٩) كان من الممكن أن يكون هناك نظام معين آخر في الدنيا. غير أن الإرادة الإلهية قضت بوجود صراع أزلي بين الإيمان وبين الكفر طوال الحياة في الدنيا. ويمكن مشاهدة هذه الحقيقة السافرة عند النظر إلى التاريخ الإنساني منذ آدم عليه السلام حتى اليوم. لذا فما دمنا نريد العيش في دنيا الإيمان علينا ألا ننسى لحظة أننا سنتعرض إلى أذى الكفر وجبروته وتسلطه وخيانته وعدائه. إن عداء الكفر المتأصل ضد الإيمان يدفع جبهة الكفر إلى ممارسة العدوان على المؤمنين بشكل مستمر، يجب ألاّ يحصل لديهم احساس أنـــهم يمشون بين أموات لا يحسون ولا يشعرون بشيء ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة لكي لا يكون لأحد أي عذر عندما يمثل أمام الله تعالى، ولا يستطيع أن يقول: لماذا؟ ولأي سبب؟

وقد يحدث عكس ما عرضناه آنفاً. أي يكون المؤمنون مغلوبين على أمرهم، وتكون دنيا الكفر هي الغالبة. ولكن النتيجة لا تتغير مع هذا. ولا يملك أي طرف من هذين الطرفين أي عذر يقدمونه أمام ربهم، لأن كفاحا ونضالاً معيناً قد تم عيشه وممارسته وفيه هلك من هلك و حيّ من حيّ.

لنوضح الأمر أكثر فنقول: إن الله تعالى جعل الفئتين تلتقيان في موضع لو تواعدتا لاختلفتا في الميعاد، وهيأ مناخ المواجهة وجوها والشروط التي جعلت هذه المواجهة ضرورية. وتم تخطيط هذا الأمر تخطيطاً تجاوز الإدراك الإنساني حتى تم الوصول إلى مرحلة القتال وجهاً لوجه، فظهر بكل وضوح وضع من استحق الحياة عن بينة ومن استحق الموت عن بينة. فتساقط الضعفاء بكل ما يحملونه من حقد ونفور وغيظ وبُعد عن الإستقامة وعن المشاركة في الخير، ولم يبق لديهم أي عذر في هذا. أما الذين لم يقترفوا أي جريمة أو جناية بل قاموا فقط بتأديب من يستحق التأديب في بدر وفي غيره فقد لمسوا أفق الحياة الحقيقية بكل الإطمئنان القلبي والروحي والوجداني.

والخلاصة أن ما جرى في بدر وفي جميع المواجهات من أمثال بدر لم يبق هناك شيء يمكن الحديث عنه خارج التشخيص الصحيح للأمر... لا عند الذين قُتلوا ولا عند الذين عاشوا... لا عند المؤمنين، ولا عند الكافرين... لا عند الفائزين، ولا عند الخاسرين... لم يبق هناك شيء لأن الأمور جرت حسب ما خططه السميع العليم.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

[الأنفال: ٤٤]

حدث هذا في معركة بدر. فالذين اشتركوا من المسلمين في هذه الحرب لم يكونوا حتى ذلك اليوم قد شاهدوا حرباً حقيقية. ويجب ألاّ ننسى أنهم عندما خرجوا من المدينة لم تكن نيتهم الدخول في حرب، بل تعقب القافلة. لذا فلو رأى المسلمون الأعداء بكامل قوتهم وعددهم لربما خافوا وارتعبوا. ولكن عندما بدأت الحرب و لم يعد هناك أي مجال للتراجع أراهم الله الوضع الحقيقي لاعدائهم، لكي يتوكلوا على الله ويلتجئوا إلى عنايته. ولو دام المسلمون في رؤية أعدائهم قلة لاستهانوا بـــهم و لم يأخذوهم مأخذ الجد، لأن الإنسان عادة ما ينسى العناية الربانية في أوقات الراحة والرخاء والإرتخاء.

من المفيد هنا التعرض لأمر آخر. إن الملائكة الذين ارسلوا للمساعدة في معركة بدر لم يقاتلوا مقاتلة البشر، لأنـــهم أرسلوا من أجل تحطيم الروح المعنوية للجبهة المعادية وتقوية الروح المعنوية لدى المسلمين. ولو اشتركت الملائكة في الحرب اشتراكاً فعلياً لاختل عالم الأسباب، ولما كان يتاح لأحد الوصول إلى مرتبة "الغازي" ولفترت الهمم واعتمد الناس على العناية الإلهية ومساعدتـــها. أما العناية الإلهية في هذه الدنيا التي هي دار إمتحان فهي تأتي تحت نقاب وتحت ستار.

إن تقليل الله لعدد المشركين في أعين المسلمين قبل بدء الحرب واشتداد أوارها لمنع حدوث أي يأس في القلوب وكذلك لتحقيق التهيئة الروحية والشوق الروحي للشهادة في القلوب... كان هذا هو العناية الربانية الأولى

والرحمة الربانية الأولى. كما كان تقليل عدد المسلمين في أعين الأعداء ضرباً آخر من العناية الربانية. وبذلك فقط تيسر استخدام أصحاب رسول الله ﷺ لبلوغ المرام الإلهي. ثم شاهد كل طرف العدد الحقيقي للطرف المقابل، ولكن القدر الإلهي كان قد بدأ، حيث وجد المؤمنون أنفسهم في خضم الحرب وفي وسطها. وبينما وصل المؤمنون -بعناية من الله وتأييده وبخطة إستراتيجية جيدة للحرب- إلى النصر، ذاق المشركون -البعيدون عن التأييد والنصر الإلهي- مرارة الهزيمة وانقلبوا على أعقابـــهم خائبين خاسرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]

من الممكن فهم ما يأتي من "ذكر الله":

١- يشار في هذه الآية إلى أن القلب يجب أن لا تطغى عليه الغفلة أبداً في الحياة العادية واليومية ولاسيما عند الدخول في صراع مع الأعداء. ويجب تنبيه أصحاب القلوب الغافلة إلى هذا الأمر بين الفينة والفينة، فينتبه المؤمن إلى ذكر ربه الذي يجاهد في سبيله بقلبه ولسانه، ويتحول المكان الذي يموت فيه الناس ويقتلون إلى مكان قدسي وإلى معبد.

٢- والذكر في الوقت نفسه صيحة متكررة في الحرب: الله، الله، الله. هذه الصيحة مهمة لأنها تؤثر سلبيا على معنويات العدو، وتزيد من معنويات جبهة المسلمين حيث تبعث فيهم الشوق والحماس. وإذا كان مجرد قولنا اليوم "الله الله" بطرف اللسان يثير فينا الحماس والرعب في صفوف أعدائنا، فخمن إذن ما يستطيعه الذكر الهادر من أعماق القلوب، وماذا يستطيع أن يكسبه للإنسان.

٣- إذا أتينا إلى موضوع أن النصر مرتبط بذكر الله وبالثبات فهو موضوع مهم يجب الوقوف عنده بكل عناية.

إذن هناك أمران يقعان على عاتق المؤمنين الملاقين للأعداء هما:

أ- في حالة الدخول في أي مواجهة حربية -مهما كانت أبعادها الكمية والكيفية- يجب رفع الحالة المعنوية لجبهتنا بإظهار الصبر والاقدام والثبات والعزم، ثم إظهار الجسارة والجرأة -داخل نطاق العقل- لإحداث هزة نفسية وتضعضع وتفكك في الجبهة المعادية.

ب- ذكر الله كثيرا لتمتين حالتنا الروحية والمعنوية وتقويتها، وهز الطرف المقابل بمشهد اللاّمُبالاة الموجودة لنا عندنا حيال الموت، وربط حركاتنا وسكناتنا بنبض قلوبنا المتصلة بالله.

أجل! لابد أن كل هذا مفاتيح مهمة للنصر. وإلا فانه عند عدم إظهار الصبر والثبات لا يمكن الوصول -حسب السنن الإلهية- إلى الفلاح، كما لا يمكن إدراك النصر في القتال في حالة الغفلة عن ذكر الله. وحتى لو تم ذلك فلا يتم نيل الثواب، أي لا يكون الفلاح الأخروي واردًا في حق أمثال هؤلاء.

إذن فعلى الذين يحاربون ويجاهدون في سبيل الله أن يثبتوا بكل عزم من جهة وأن يتوجهوا لذكر الله من جهة أخرى، وأن يتبرأوا من كل حول وقوة -حتى في أكثر أحوالهم قوة وقدرة- وأن يذكروا الله ويلتجئوا إلى حوله وقوته وأن يكرروا الدعاء الآتي:

"اللّهم تبرأنا من حولنا وقوتنا ولجأنا إلى حولك وقوتك".

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ ﴾ [الأنفال: ٧٣]

في الآيـــة السابقة "الأنفال: ٧٢" جاءت الآيـــة بقرار أن الأنصار والمهاجرين يرث أحدهم الآخر على الرغم من عدم وجود آصرة القربى فيما بينهم. ثم تأتي هذه الآية التي نريد شرحها بحكم أن المسلمين والكفار لا يجوز أن يرث أحدهم الآخر، وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض أي يرث أحدهم الآخر. وهناك حديث شـــريف يشرح فيه الرسول ﷺ هذه الآية: «وقال: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا يا رسول الله لِمَ؟ قال: لا تراءى ناراهما».(١)

أي على الرغم من إيمانـــهم فإن النار التي يوقدونـــها لا تنير، ولا يتميز العالمان المختلفان بعضهما عن البعض الآخر.

نستطيع تقديم التقييم الآتي:

للنار الموقدة في الصحراء أهمية كبيرة من ناحية الاستدلال على الأثر ومعرفة المكان... الخ. وقد يقيّم هذا المثال من زاوية عدم التمييز بين نار العدو ونار الصديق.

إن كان موقدا الكافر والمؤمن -أو منابع الضوء عندهما- معاً، صعب التمييز بينهما، مع العلم أنه يجب أن يكون موقد المؤمن على حدة وموقد الكافر على حدة، لكي لا تختلط الأمور على طلابـــهما.

والأهم من كل هذا أن الملحد والمؤمن -خارج نطاق التسامح المتقابل

(١) أبو داود، الجهاد ٩٥؛ النسائي، القسامة ٢٧.

وقبول أحدهما لوضع الآخر- إن بـــهتت الخلافات الأساسية الموجودة بينهما في النواحي الملية والأخلاقية والفكرية غابت الفروق التي يجب وجودها بينهما. ولو استمر هذا الوضع لأصاب التعفن كلا الطرفين، ولاسيما الطرف الذي يرغب بإنشاء وتطوير عالمه الخاص على مكتسباته التاريخية.

كما أن التوارث لا يجري بين المؤمن والكافر من زاوية قانون المواريث بسبب "اختلاف الملتين". ولو قمنا بالتعبير عن هذا بلسان الفقهاء لقلنا بأن اختلاف الدار واختلاف الدين يمنع التوارث. ففي جانب المحبة الإنسانية والتفاهم إن لم تتم المحافظة على تمايز الخطوط، وإذا تم الاختلاط دون أي حساب أو ميعاد وغض الطرف عن بعض المبادئ القانونية نكون -بافعالنا وتصرفاتنا التي رجونا منها الإصلاح- ســـببا في الفتنة وفي الفساد بينما يعدّ اكبر فتنة وفساد هي الفتنة والفساد النابع عن الأعمال التي تمت في الأصل بنية الإصلاح والخير. لأن الشرور الناتجة من النيـــات الحسنة قد تكون لها صفة الدوام، والجماهير غير الواعية عندما تدخل في هذه الدوامة يصعب عليها التراجع.

سورة التوبة

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠]

يرد الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس في القرآن الكريم على الدوام عدا في آية أو آيتين. أجل! يخيل لي أن الإنسان ما دام حياً يفضل ويعز ماله على حياته على الدوام. والحديث الشريف يقول: "من قُتل دون مالِه فهو شهيدٌ".[1] وهو بينما يعلمنا حكما معينا، يشير من طرف آخر إلى هذه الجبلة الإنسانية. وما المثل الشعبي عندنا من أن "المال شقيق الروح" إلا تعبير عن الحقيقة نفسها بشكل آخر.

غير أن هناك أناساً تركوا الدنيا قلبياً وليس عملياً أو كسبياً منهم أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ. وهناك أناس لم يملكوا مالاً في الدنيا منذ البداية، في حالة هؤلاء تأتي النفس قبل المال، هذا طبعاً إن لم يصلوا إلى إدراك البديل الحقيقي لها.

أجل! ليس من السهل كما يتبادر إلى الذهن الإيمان وعمل كل ما يقتضيه هذا الإيمان. فالعيش ضمن أحاسيس ومشاعر العادات التي تشكلت وترسخت ضمن سنين طويلة عندما تضاف إليه الفطرة يكون من الصعب جداً على الإنسان التضحية بماله ونفسه. وهاكم سيدنا حمزة رضي الله عنه -عم

(١) البخاري، المظالم ٣٣؛ مسلم، الإيمان ٢٢٦؛ الترمذي، الدية ٢١.

الرسول ﷺ وأخاه في الرضاعة- فقد تردد لبعض الوقت قبل إعلان إيمانه. وبدلا من الغضب على الذين لا يجتازون الإمتحان الصعب في موضوع التضحية بالمال وبالنفس، وهو امتحان صعب بالنسبة للجميع... علينا أن نبدي اهتماما كبيراً بـــهم، وأن نعينهم في الدعاء بظهر الغيب.

أجل!... إن كان الإيمان هو تجاوز العقبة الأولى للشيطان، فإن ترك الإنسان لقومه وقبيلته وأهله وأقربائه والهجرة إلى بلد آخر تجاوز لعقبة أخرى لا تقل صعوبة عن العقبة الأولى. إن القيام بـــهجر الوطن والديار ثم عدم الإكتفاء بـــهذا بل الجهاد في سبيل الله في الموطن الجديد يعد تجاوزا لعقبة صعبة أخرى، ومن يوفق في هذا يكون قد تجاوز نفسه ووصل إلى النجاة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]

إن جنة عدن كما تبدو في هذه الآية الكريمة وكما وصفت في أحاديث نبوية عديدة،(١) جنة فيها بعض النعم الروحانية ولكن أكثر نعمها جسدية ومادية.

أجل! هناك قسم من الناس تقوى عندهم الرغبات المادية وتغلب عليهم المطالب الجسدية. ولمثل هؤلاء تكون جنة عدن الجامعة لكل النعم مكافاة جيدة. أما البعض الآخر فتقوى عندهم الملكات الروحية لذا لا تعني النعم المادية كالأكل والشرب والحور العين.... الخ شيئا كثيرا، لأنــهم يتطلعون للإشباع الروحي وللأذواق المعنوية. لمثل هؤلاء هيئت جنة "الفردوس" وآية ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر﴾ تشير إلى هذه الحقيقة.

ونظراً لتمييز جنة الفردوس فقد أرشدنا الرسول ﷺ في حديث له: "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس".(٢)

أولا وقبل كل شي فجَنة الفردوس ببِنيتها المخروطية نقطة إشــراف ومشاهدة مركزية على جميع الجنات الأخريات. ثانياً: إن لم يكن "الإيمان بالغيب" متوسعا ومتطورا في الأمم السابقة، لــذا لم تتطور هذه الأمم في الأمور المرتبطة بالغيب وبالمعاني المجردة ولم تتعمق عندها هذه المعاني. أما

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/ ١٥٥.

(٢) الترمذي، الجنة ٤.

الأمة المحمدية فبسبب تعمقها أكثر من الأمم السابقة في موضوع الإيمان بالغيب وبما يتعلق به من أمور فلا تشبع أرواحها إلا بالنعم واللذائذ الروحانية، لذا أوصى الرسول ﷺ أمته بأن تطلب في دعائها جنة الفردوس. أي يمكن القول بأن جنة عدن، هي أفق نعم الأمم الأخرى، أما جنة الفردوس فهي جنة أمة محمد ﷺ.

لا شك أن رضوان الله متحقق لكل من دخل الجنة، ولكن الرضوان الأكبر -الذي يعد أسمى نِعَم الجنة وأعظمها- أفق آخر من الوسعة والشمول والغنى الذي يجعل نائله مستغنيا عن كل شيء، ولن يتيسر هذا إلا لأمة صاحب المقام المحمود وصاحب الحمد. أن تقدم الرسول ﷺ وهو يحمل لواء الحمد والثناء للذات الجليلة ووصوله إلى المقام المحمود، الذي يكون فيه كل شيء تسمعه ويسمعه حمدا وثناء، متناغماً ومتوافقاً مع تشريف أمته المستحقة للفردوس وتكريمها بالرضوان الأكبر.

اللّهم عفوك وعافيتك ورضاك اللّهم وفقني إلى ما تحب وترضى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]

معنى هذه الآية أن الله يطلب الأنفس والأموال الزائلة للمؤمنين مقابل بدائل باقية لا تزول!.. إنه يطلب أنفسهم وأموالهم لكي يعطي لهم مقابلها الجنة في الآخرة. ولكن كما يلاحظ فإن الأنفس متقدمة على الأموال في هذه الآية. ذلك لأن النفس تكون أكثر أهمية في الآخرة ويأتي من بعدها المال المنفق في سبيل الله، والذي زاده هذا الإنفاق قيمة وثمنا. أي انني إن لم أدخل الجنة ولم أستطع الولوج فيها فماذا يعني المال الذي ليس إلا زينة بسيطة من زينات الجنة؟ لذا فالتعبير عن هذه الحقيقة يكون بتقديم النفس على المال هنا خلافا لما جاء في مواضع أخرى.

والحقيقة إن كل ما يبدو أنه ملك مؤقت للإنسان هو في الحقيقة ملك لله تعالى. فمنذ الوجود الأولي للإنسان وكذلك جميع الوسائل الضرورية المهداة لإدامة هذا الوجود ليس إلا لطفاً جبرياً وإحساناً. كما إن إظهار كل هذه الألطاف والهبات وكأنها ملك للإنسان مع منحه صلاحيات قانونية وحقوقية معينة للإفادة منها ليس إلا إحسانا ثانيا. أما القيام بشراء ماله وملكه وكأنه مال وملك خاص في يد صاحبها المؤتمن ليعطَى بدل هذا المال والملك الزائل والفاني ألف ضعف فهو كرم فوق كل إحسان. هو كرم كبير بحيث أننا لو فرضنا عدم وجوده فإن المؤتمنين إما أن يستعملوا هذه الأمانة الموجودة في أيديهم في إتجاه أهوائهم وشهواتهم، فيخونون بذلك الصاحب الحقيقي للمال، أو تزول هذه الودائع وتفنى متى ما جاء أوان هذا الفناء فيخسر هؤلاء أفضل تجارة وأكبر كسب وأكثره بركة.

أجل، عندما يتحقق هذا العقد المتسم باللطف والكرم، يترك الأحياء الفانون أماكنهم ليصلوا إلى الوجود الأبدي. ويزول المتاع الدنيوي الفاني، لتحل محله النعم الخالدة في دار البقاء... ترمى الدنيا ذات العمر القصير تحت التراب، لتخرج سنابل جنات خالدات في عالم أبدي... تترك النفس رغباتــها ولذائذها بشكل متوازن، لتفوز في المقابل برضا الله تعالى. وفي أثناء تحقيق هذه المبادلة التي تتم ضمن إطار الإرادة الإنسانية الحرة يتم الإعتناء بإظهارها في شكل بيع وشراء أو كأخذ وتحصيل قسري.

إن مثل هذا الميثاق الممتد من الأزل ميثاق بشري وكوني عميق إلى درجة أنه ورد في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن وتكرر في هذه الكتب وتم التأكيد عليه وإن كان في أساليب مختلفة.

سورة يونس

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١]

من لطف الله تعالى بنا أنه لا يستجيب بسرعة لأدعية الشر، مع أن ألسنتنا تعودت على أدعية الشر في كل آن على أنفسنا أو على غيرنا أمثال "قاتله الله" أو "ليصبّه الله بالبلاء". ولكن الله تعالى وهو الرب الكريم والحليم لا يتعجل –مثلنا– في قبول هذه الأدعية. ولو تعجل في إستجابة كل دعاء وقبوله لانتهى أمر الجميع في لحظة واحدة. ولكن هناك فترات وأزمنة معينة يستجاب فيها للأدعية فيمكن أن يقول الله تعالى "سأستجيب لكل دعاء في هذه الساعة". أي تكون تلك الساعة ساعة إستجابة لكل دعاء يدعوه العبد آنذاك.

ولا ينحصر هذا في الدعاء القولي فقط، بـــل يشمل أحيانـــا الدعاء الفعلي(١) أيضا. أي تدخل الأفعال والأعمال المنفذة في ساعة الإستجابة هذه ضمن إطار الدعاء. لذا يجب الإنتباه إلى هذا على الدوام. والرسول ﷺ ينبهنا ويحذرنا على الدوام عندما يقول: "لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يسأل فيها عطاء

(١) الدعاء الفعلي، هو اتباع العبد للقوانين والسنن الإلهية السارية في المجتمع وفي الكون. مثلا، مَن يبذر الحب يحصد الزرعَ. (المترجم)

فيستجيب لكم"[1] ومع هذا فإن بعض المعارضين للأنبياء ولخلفائهم وورثتهم قالو لهم في مجال التحدي والإنكار:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢). أو يرددون عبارات من أمثال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٤٨؛ الأنبياء: ٣٨؛ النمل: ٧١)

وقد يدعو بعضهم في لحظة مؤقتة من لحظات ضيقهم وغضبهم، وبعد نفاد صبرهم على أعدائهم المعتدين عليهم والظالمين لهم. بينما يشرع الله تعالى بمعاقبة هؤلاء المعتدين الظالمين عندما يحين الوقت المناسب. لذا كان على المؤمنين أن يصبروا ويصروا على أسنانهم أمام المصائب والبلايا المؤقتة. وعندما يدعون، عليهم أن يدعوا لرفع البلاء، وأن يفوضوا أمر عقاب أعداء الدين والإيمان إلى علام الغيوب، وألا يستعجلوا ولا ينفد صبرهم في أمر إيقاع هذا العقاب والجزاء بـــهؤلاء. لأن الله تعالى لو شاء لعجل لهم العقاب، أو يؤجله حسب عظم الجرم الواقع وحجمه، أو يؤخر عذابه الأليم إلى يوم القيامة، أو ييسر لهم سبل الهداية فيهتدوا ويصبحوا إخوانا لك.

لذا يجب على المؤمن ألا يدعو بالشر على أحد، بل يكون شخصا محتاطا ويقف باحترام وتوقير أمام حكم الله وقضائه حتى يطفح به الكيل ولا يبقى مجال للصبر عليه. وعليه أن يدعو على الدوام:

يا قاضي الحاجات، يا دافع البليات إقض حوائجنا وادفع عنا البلايا

يقول هذا ويشكو حاله وعدم قدرته على مزيد من التحمل إلى ربه ومولاه.

---

(١) مسلم، الزهد ٧٤؛ سنن الدارمي، الوتر ٢٧.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

[يونس: ٨٧]

نستطيع فهم ما يأتي من آية ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾:

جعل البيوت متجهة نحو القبلة، أي نحو الجنوب، وبذلك تحل مشكلة أشعة الشمس وحرارتـــها أيضا.

جعل البيوت ملائمة لمهمة المساجد، فمن جهة تم التأكيد على:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (النور: ٣٦). ومن جهة أخرى تمت الإشارة إلى بيوت تقوم بأداء مهمات ووظائف هامة.

إذا تناولنا موضوع صدور الأمر بإتخاذ كل بيت قبلة ومسجدا نفهم وجوب إتخاذ كل إنسان البيت الذي يسكنه معبدا، ويجعل نفسه عابدا دائما فيه ويحيي بيته بالعبادة، ولا يجعله كالقبور الخالية من الحياة.

صحيح أن الآية تبدو وكأنـــها توصية خاصة بموسى وأخيه هارون عليهما السلام ولكن الآية تقوم بعد ذلك بتوصية عامة ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أي إن كانت الظروف والشروط غير ملائمة ولا تسمح بالعبادة العلنية فاجعلوا بيوتكم معابد سرية. أو عليكم أن تقيموا معابد لذكر الله تعالى في كل حال من الأحوال.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

[يونس: ٨٨]

قام بعضهم بتفسير ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ كما يأتي:

يارب أأعطيت فرعون وملأه زينة وثروات وأموالا لكي يضلوا عن سبيلك؟ ولكن هذا المعنى ليس تاماً.

اللام في ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ هو "لام العاقبة" وموسى عليه السلام أفضل من يعرف أن الله تعالى أعطاهم هذه الأموال الطائلة لغاية سبحانية وأن العاقبة التي سينتهي إليها أعطاء هذه الأموال عاقبة معلومة. لذا يتساءل موسى عليه السلام: أأعطيت لهم هذه الأموال لكي يضلوا الناس عن سبيلك؟ صحيح أن الله تعالى لا يحب الكفر والضلال والمعصية ولا يريدها، ولو فرضنا العكس لكان معنى هذا أن هؤلاء عندما يقترفون هذه الأمور يكونون قد أطاعوا الله. بل يبدو وكأن إرسال الأنبياء قد تم من أجل هذا الغرض. ولكن الأمر ليس كذلك أبدا فهناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم فيها "لام العاقبة" مثل: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ (القصص: ٨)

ولو لم نفهم الآيات بهذا الشكل لكان معنى الآية أعلاه أن فرعون التقط موسى عليه السلام لكي يكون لهم عدوا ومصدر حزن. وهذا تفسير غير مقبول.

ثانيا: لكون القدر متعلقا بكل من السبب والنتيجة، تمت الإشارة هنا

فقط إلى النتيجة المتعلقة بإرادة الله دون الأخذ بنظر الإعتبار هنا رغباتــهم وإرادتــهم. بينما أصل المسألة هو أنــهم وجهوا إرادتــهم النسبية المكتسبة وجعلوا أموالهم وأولادهم وسيلة إضلال وإفساد وكفر. أي أن ماملكوه من أموال أصبحت وسيلة لسوء عاقبتهم. ولكن كان من الممكن اعطاء الإرادة الإنسانية حقها. أي أنــهم بدلا من طلب الهداية قاموا بطلب الضلالة قولا وعملا، فخلق الله تعالى مايريدون وما يطلبون. أو أن المال والولد يمكن أن يكونا طريقين إما إلى الجنة أو إلى جهنم. أما هؤلاء فلم يفكروا في الإحتمال الأول "أي إحتمال الجنة" فانقلبت النعمة إلى نقمة. وعندما يقف شخص فقير مثل موسى عليه السلام أمام فرعون صاحب الأموال والأولاد والأتباع، وتعمل كل عوامل الكبر والغرور والطغيان والإنحراف عملها فالنتيجة معلومة، وطريق الضلال يبقى هو الطريق الوحيد أمامهم. والنبي موسى عليه السلام يدرك هذا لذا فهو يعلم النتيجة المحتومة لوجود المال والولد والعاقبة التي لا مفر منها إن لم تسعف الإنسان رحمة الله ورحمانيته.

أما هلاك الأموال وطمسها: يجوز أن جميع الأموال التي كانوا يملكونــها قد هلكت، أو أن الله تعالى أعطاهم الأموال وزينة الدنيا، ولكن لم يعطهم إمكانية الإستفادة منها. لنفرض مثلا أن غنيا مصاب بالداء السكري فهو لا يستطيع أكل وشرب مايشتهي. وفي مثل هذه الحالات يكون وجود النعمة أو عدم وجودها سيان. وبــهذا المعنى لا يكون هلاك الأموال هلاكا حقيقيا بل مجازيا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: ٩٠]

ورد في بعض الأحاديث بأن كل إنسان سيدرك الحقيقية واضحة جلية لا محالة قبل موته. أي يمكن القول بأنه لن ينتقل إلى دار الآخرة شخص لم يؤمن. ولكن الإيمان بعد مرحلة معينة لن يكون مفيداً. وهكذا كان إيمان فرعون من هذا النوع الذي جـــاء بعد فوات الأوان. أجل!.. لقد قال فرعون: "آمنت.." ولكنه قال هـــذا في وقت لم يعد هناك فيه أي فائدة عملية. لذلك نرى في دوام الآية سؤال: "آلئن؟" وهو أوجز تعبير لإيضاح هذا الأمر أي: آآمنت الآن؟ أتبادر هذا إلى عقلك الآن بينما: "وقد عصيت من قبل"؟ ونفهم من الإســـتفهام: "آلآن؟" إنه كان عاصيا حتى اللحظة السابقة لقوله هذا... لقد كنت عاصيا عندما هيأت حصانك وجيشك لتعقب موسى ﷺ. ولو قلت آنذاك بأنك آمنت ورجعت وارجعت جيشك لوجدت فرصة العيش كعبد صالح. ولكن فات الآوان.

والخلاصة إن الله تعالى لم يمنع إيمان عبد توجه نحوه، ولم يمتنع عن قبول هذا الإيمان. كل ما في الأمر هو أن آوان التوبة كان قد فات وانقضى. وهذا من أسلم طرق تقييم الآية وفهمها.

هل قال فرعون بلسانه وهو يغرق بانه آمن؟ أم خطر ذلك على قلبه آنذاك؟ حسب عقيدة أهل السنة والجماعة فإن مجرد ورود خاطر التوبة بشكل صحيح وفي الوقت الصحيح يعد تلفظا. بـــل إن التلفظ يعد ظرفا للمعنى المظروف داخل قلب الإنسان. غير أن فرعون حسب آية أخرى كان قد فاتته الفرصة: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (المؤمن: ٨٥) أو

أنه قال هذا ليخلص نفسه من ذلك الوضع الحرج. لذا نجاه الله ببدنه ليكون عبرة للعالمين. وعدا هذا فإن فرعون وهو في تلك اللحظة الحرجة الرهيبة لم يلتجئ إلى الله تعالى وإلى الذات الجليلة الموصوفة له من قبل موسى وهارون عليهما السلام، بل قال بتعبير فج بأنه آمن بما آمنت به بنو اسرائيل. أي توجه نحو فهم لا يزال ضبابيا في إدراكه لمفهوم الإيمان عند بني إسرائيل فهو حتى في إيمانه الذي جاء متأخراً لم يصب حقيقة الإيمان.

وإذا نظرنا إلى التاريخ رأينا أن فرعون كان دهريا ويجوز إن نقول أنه كان "مادي النظرة". والإيمان السريع الفجائي يكون صعبا عند أمثال هؤلاء. هذا علما بأن شرط الإيمان الصحيح إن كان الإيمان بنبوة موسى عليه السلام والتصديق به إلى جانب الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، فإن إيمان فرعون في تلك اللحظة الحرجة لم يكن إيمانا كاملا خالصا بل كان يرتكب كفراً وهو يقول بأنه آمن.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

[يونس: ٩٨]

كشف العذاب عن قوم يونس:

١– قد تكون معاملة خاصة من قبل الله لهذا القوم لم يعامل الله بــها قوما غيرهم من قبل ولا من بعد.

٢– قد تبدو أمارات قدوم البلايا ووقوعها بظهور أسبابــها، ولكن عمل خير وبر ومعروف ما في تلك الأثناء يكون سببا وعاملا في رفع غضب الله وعذابه. وعندما رأى قوم يونس أمارات العذاب، رجعوا إلى أنفسهم وتوجهوا إلى الله وأعلنوا توبتهم وإنابتهم إلى الله. وفي رواية ضعيفة أنــهم بدأوا بقول وتكرار "سبحانك لا إله إلا أنت إنا كنا من الظالمين". وحسب بيان أحد المتقين –بطريق الكشف وليس بطريق الرواية– فقد كان تسبيحهم وتحميدهم وتكبيرهم وحوقلتهم هي: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله" فدفع الله تعالى عذابه عنهم ومتعهم حتى حين ووهبهم حياة فيها مكان ونصيب للإستعداد للآخرة.

٣– وحسب العادة السبحانية لله تعالى فالله تعالى يأمر نبي أي قوم كتب عليهم العذاب مغادرة بلدته. ولكن يونس عليه السلام ترك بلدته بإجتهاده الخاص قبل أن يأتيه أمر المغادرة. لذا فكأن العتاب الموجه من الله تعالى لهذا النبي الكريم –بشكل مناسب وملائم لمقام نبوته– كان هو السبب الكامن وراء كشف العذاب عن قومه تماماً مثلما تمتص مانعة الصواعق خطر الصواعق، ثم تتابعت الحوادث التي جابهها والتي يعلم الجميع تفاصيلها.

وكلمة "هلاّ" الواردة في القرآن مرادفة لكلمة "فلولا" وتأتي بمعنى: "يا ليت" وتكون خلاصة معنى الآية "ياليت كانت هناك قرية آمنت قبل رؤية العذاب ونفعها ايمانها من بين القرى التي أهلكناها" وفيها معنى ضمني لتشويق التوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه قبل وقوع العذاب، أو حالما تظهر علامات وقوع العذاب أو إقبال البلايا.

وكون هذا القوم قرب مدينة الموصل وفي قرية نينوى، ليس مهماً ولا يغير من جوهر الحقيقة أو نتيجتها. فالمهم هنا التقييم الصحيح للتقديرات الإلهية والنبوية، وتفسير الأمارات والإشارات التي ينير طريقها "تأويل الأحاديث"، والعيش في يقظة وإنتباه ضد جميع الأخطار المحتملة والتوجه نحو الله في جميع الأحوال: ربنا أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه. وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا إجتنابه.

سورة هود

﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

[هود: ٧٠-٧١]

كان عدم مد الضيف يده إلى الطعام المقدم إليه من قبل مضيفه علامة تنذر بسوء نية الضيف وسوء نية الزيارة حسب تقاليد وأعراف ذلك الوقت. والحقيقة أن الرسالة التي أتى بـــها الضيوف كانت غريبة ومذهلة ولا سيما لنبي حليم وأواه مثل إبراهيم عليه السلام. صحيح أن الضيوف كانوا ملائكة ولم يكن الأكل والشرب من طبيعتهم لذا نراهم يخففون وطأة المفاجأة باسلوبــــهم الملائكي وتقديم أسباب الزيارة بشكل تدريجي ومناسب مع اللقاء الذي بدأ بالسلام المتقابل من الجانبين. عاش إبراهيم عليه السلام لحظات خوف من الإيماءات والإشارات التي تلقاها ولاحظها، وكان هذا نتيجة لفراسة النبوة وتأويل الأحاديث. فقد أحس -بأفق المعرفة التي يملكها- أنّ أحداثا غريبة ستحدث، لذا سرت مخافة بعيدة عن الرعب في أوصاله. وبعد لحظات تخلص من دهشة الصدمة، وحل المنطق النبوي محل المشاعر الثائرة، وبدأت صفة الحلم والسلم عنده تعبر عن نفسها في الكلام والخطاب ولكن بعد أن عاش لحظات البداية كما ذكرنا آنفاً.

أما بالنسبة لكون إمرأته سارة عليها السلام قائمة فنستطيع ذكر ما يأتي:

كانت قائمة لأنـــها كانت تريد خدمة الضيوف. وحتى لو فرضنا وجود خدم عندها، إلا أنـــها فضلت القيام بخدمتهم بنفسها تعظيما للضيوف وتكريما لهم.

أو أن الأطوار الغريبة للضيوف جعلتها قلقة ووجلة فبقيت قائمة وهي تترقب وأن قلقها ووجلها إستمر حتى تقديم الضيوف البشرى لها، أو حتى إحساسها بالتغيير الذي طرأ عليها وعلى بدنـــها.

أو أنـــها أصبحت حاملاً منذ رؤيتها الملائكة بمعجزة من الله تعالى مثلما حملت مريم عليها السلام عندما رأت الملك أمامها. وإنـــها عندما أحست بذلك في نفسها إنقلب قلقها إلى ضحكة حيرة وفرح.

والإحتمال القوى أن سارة عليها السلام كانت آيسة، "أي في سن اليأس"، أي منقطعة عن الحيض لأنـــها كانت مسنة. ولم يكن من الممكن -حسب الأسباب السارية- لإمرأة منقطعة عن الحيض أن تحمل، لذا فيحتمل أن الحيض بدأ آنذاك وخرج الدم. والمرأة تشعر بذلك في الأكثر وهي قائمة وواقفة لذا ضحكت سارة عليها السلام عندما شعرت بذلك وعندما بشرتـــها الملائكة باسحق ويعقوب، لأن علامات البشرى تحققت. وفي اللغة العربية تأتي جملة "ضحكت المرأة" بمعنى "حاضت المرأة" وهذا يقوي هذه الملاحظة وهذا الإحتمال والله اعلم.

سورة يوسف

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: ٢٠]

يأتي "الزهد" بمعنى عدم الرغبة، وعدم الطلب وعدم إظهار الإهتمام والترك والنبذ، وكما يعلم الجميع فإن "الزاهد" هو الشخص المعرض عن الدنيا والمقبل على الآخرة. لذا فمعنى الآية ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ فهم كانوا زاهدين فيه ومستغنين عنه.

ولكن من الذي باع يوسف عليه السلام بثمن بخس دراهم معدودة؟ أأخوتة أم أصحاب القافلة؟ لعدم تعيين الآية فالإحتمالان واردان. لذا نرى المفسرين مختلفين حول هذا الموضوع. فإن كان اخوته هم الذين قاموا ببيعه، فقد فعلوا ذلك لأنهم لم يعرفوا أنه سيكون شخصا هاما في المستقبل، بل سيكون نبيا كريما، لذا أرادوا التخلص منه بسرعة فشروه أي باعوه وهو إنسان حر وشخص لا يستطيع مال الدنيا بأسره أن يعدله، لقد باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وحملوا وزر هذا العمل وعاشوا ندمه كل تلك السنوات حتى يوم لقائه. وعندما اقترف إخوته هذا العمل لم يكونوا في وضع يستطيعون فيه التفكير الهادئ، فقد كانوا غارقين في الاضطراب وكانت الحيرة والتردد يلفهم، لذا ارادوا التخلص منه بسرعة فباعوه بثمن بخس دراهم معدودة. وهذه الصورة النفسية المرسومة هنا تشير إلى أن الذين باعوه كانوا أخوته وليس احدا غيرهم. لأن بيع العبيد كان مباحا، وبيع أصحاب القافلة للعبد

الذي اشتروه لكي يبيعوه في مصر ويتاجروا به كان أمرا طبيعيا، لذا لا تنطبق هذه الحالة النفسية مع أصحاب القافلة، ولكن هناك وجه إحتمال واحد فقط، وهو أن أصحاب القافلة عندما عثروا على يوسف في تلك البئر العجيبة عرفوا أن مثله لا يمكن أن يسقط هناك، فلا بد أن يكون ضحية حادثة غريبة، وهذا هو ما تفسره آية ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ (يوسف: ١٩) تفسره كلاما وصوتا وموسيقى. لذا كان عليهم أن يسرعوا في بيع هذا الغلام لكي يتفرغوا لأعمالهم الأخرى. وقد خشوا إن لم يفعلوا هذا وطلبوا وبحثوا القيمة الحقيقية للغلام أن يخسروا حتى ذلك الثمن البخس الذي باعوه به.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[يوسف: ٢٤]

يرتكب في العادة خطأن عند تقديم مآل وتفسير هذه الآية:

١- يتم تقديم شخص صالح ومخلص في جميع أحواله وأعماله مثل يوسف ﷺ وكأنه شخص أسير لمشاعره وأهوائه كأي شخص عادي. لذا نرى هؤلاء يحسبون عند تفسير هذه الآية بأن امرأة العزيز مالت إليه وأن يوسف ﷺ مال إليها، ولكنه رأى برهان ربه. ولكن طراز حياته السابقة المتسمة بالصدق والصلاح، وكذلك المعنى الموجود في دوام الآية، أي صرف السؤ والفحشاء عنه وكونه من العباد المخلصين، حيث جاءت العبارة بصيغة اسم المفعول أي كونه شخصا مخلصا وواصلا إلى الإخلاص بالهبة الربانية وباللطف الرباني الذي لا خيار له فيه. لذا نفهم هذه الآية بهذا المعنى الذي يمنع الذهاب إلى أي ظن سلبي في حق هذا النبي الكريم.

٢- أما الذين يتناولون هذه الآية في صيغة معاكسة للفطرة الإنسانية وللطبيعة البشرية فيقولون بأن يوسف ﷺ لم يكن يملك أي رغبة شهوية.

لا شك في وجود نواقص في طراز هذين الفكرين. فالأنبياء أيضاً بشر ولكن من زاوية كونهم معصومين ومصانين فهم فوق البشر من هذه الزاوية، أي من زاوية العصمة والصيانة. توجد الشهوات لديهم ولكنها شهوات تحت قيادة الإرادة النبوية الحازمة وقهر سيطرتها وعزمها. والآية هنا تريد تسجيل براءة يوسف ﷺ، لذا فعلى الرغم من وجود الشهوة لديه فانه التجأ إلى الصيانة الإلهية والحفظ الإلهي واستعمل إرادته القوية فلم يمل إلى المرأة أبدا.

وعندما يرسم القرآن الكريم ما حدث هناك يستعمل تعبير ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وهو يدل صراحة على ميل المرأة نحوه، ولا يمكن تفسير هذا الميل بالدعابة أو بالامتحان. أي أن المجال كان مفتوحاً ليوسف ﷺ حتى النهاية في ذلك المكان المقفل. ولكنه كان على الدوام ضمن برهان ربه... أي كان ضمن دائرة الإيمان والمعرفة والإتصال المخلص بالله مع مخافة منه ومهابة تلف كل كيانه، فقدم أفضل انموذج للإرادة القوية الصلبة. مع أن كل الظروف والشروط كانت مواتية وتغوي الجسد إلا أنه سد كل منافذ هذه الظروف بقوله ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ (يوسف: ٢٣). وسما فوق كل تلك الظروف وبددها وفتتها مظهراً عمقه الخاص اللائق بالعظماء. إن ما صانه في تلك اللحظة التي توافرت كل الشروط لجر الإنسان إلى هاوية الإثم لم يكن سوى عفته وعصمته وإرادته المتوجهة -بفكره المخلص- نحو الإنسان الكامل. ثم إنه كان إماماً مختاراً في موضوع طاعة الله ودعوة الناس إلى هذه الطاعة، ورجل دعوة ورسالة. والحقيقة أنه عندما حان الوقت المناسب شهدت زلَيخا بعفته وعصمته فقالت ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢).

وعندما يرسم القرآن الكريم ما حدث هناك يقول: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢)

كان يوسف ﷺ مثالا للشاب الوسيم الممتلئ رجولة، كما كان يملك -مثل سائر الإنبياء الآخرين- جمالا نفسيا وجمالا داخليا أي كان جماله الخارجي متمما ومكملا وموازيا لجماله الداخلي العميق.

أما زليخا فلم تستطع الوصول إلى مستوى الناس الذين يحولون نظرهم من الفاني إلى الباقي، ومن الزائل إلى الخالد، بل غلبت من قبل أهوائها ورغباتها، وبقيت هذه الرغبة المشتعلة والحب المضطرم منحصرا في إطار الجسد فقط. فاذا أضفنا إلى هذا الجمال الداخلي والخارجي ليوسف ﷺ،

نرى أن الخطأ الذي استمر منذ آدم ﴿عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ﴾ تكرر وانخدع به ابن آدم مرة أخرى. وفي الآية أعلاه نرى أن إمرأة العزيز بعد أن رأت كيف قطّعت النسوه أيديهن، قالت مدافعة عن نفسها ومبررة ضعفها ولائمة هؤلاء النسوة اللواتي تناقلن فيما بينهن من أنـــها قد شغفت به حبا، فقالت ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (يوسف: ٣٢). وكانت حال هذه النسوه شاهدة على الجمال الخارجي الذي يأخذ بالألباب ليوسف ﴿عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ﴾ وأول إعتراف نسائي. أما الإعتراف الثاني فكان من قبل إمرأة العزيز عندما قالت ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢). وهو أيضا شهادة على عفة هذا النبي ورصانته وعصمته وطهارته.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

[يوسف: ٣٥]

يمكن تفسير هذه الآية من عدة زوايا:

١- إن هذا الموضوع الذي تناقلته هؤلاء النسوة في ذلك اليوم قد شاع وانتشر في مصر. لذا كان من الضروري لقطع هذه الشائعات في ذلك المجتمع القيام باتهام يوسف عليه السلام وسجنه وإن كان بريئا، وذلك على حساب البراءة الظاهرية لامْرأة العزيز وقد اعتادت النظم القانونية في كل عهد أن تنحني أمام قوة الطبقة الحاكمة.

٢- لم يدافع يوسف عليه السلام عن نفسه عندما قاموا بسجنه. لأن أي دفاع عن نفسه كان يعني في الوقت نفسه رسم علامات استفهام كثيرة حول شرف الطرف المقابل وعفته. بينما على كل نبي أن يصون شرفه وعفة الطرف المقابل وكرامته من الهوان أيضا. أي بينما يصون نفسه من الزنا يصون لسانه من الغيبة. وقد فعل هذا فعلا. وبعد أن قضى في السجن من عمره خمساً إلى عشر سنوات كانت تلك الشائعات قد نسيت منذ مدة طويلة، كما لم يكن الجيل الجديد على علم بها. وعندما خرج يوسف عليه السلام من السجن لم يكن أي اثر من تلك الشائعات. وبتعبير آخر فضّل يوسف عليه السلام قضاء خمس أو عشر سنوات من عمره في السجن في سبيل الحفاظ على سمعة وعرض الطرف الآخر.

وفي النتيجة، وبعد عشر سنوات قال الذين اتهموا يوسف عليه السلام ظلما ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١) واعلنوا براءته. وكما يسلم به الجميع فإن هناك فرقا كبيرا جدا بين قيام الشخص بإعلان براءته وبين قيام الآخرين

بإعلان هذه البراءة، وكانت براءة يوسف عليه السلام تعلن من قبل الطرف الآخر. هذا الإعلان الذي كان أكثر تأثيرا ومفعولا بين الناس.

وعلى الرغم من توافر الأدلة على برآءة يوسف عليه السلام حسب تقييمهم من كون القميص قد قدّ من قبل أو من دبر، والنساء اللائي قطعن ايديهن وشهادتهن ببراءته فيما بعد... على الرغم من هذا فقد سجن هذا النبي الكريم كمثال وقدوة للمسجونين الأبرياء لكي يقاسي الآم السجن وينضج هناك، ثم يخرج من السجن الذي دخله كأسير وخادم حسب الظاهر وكحبيب للقلوب والأفكار وكحبيب للشعب المصري في الواقع. والحقيقة أنه في اللحظة التي دخل فيها السجن وفقد حريته كان قد دخل مرحلة حكم القلوب والنفوذ فيها. وبينما كانت الأهواء والأنانية تدفعه نحو ظلام السجن، كان يسير نحو بعث جديد لحياة الروح والقلب. وبجانب قيامه بتحقيق كماله الإنساني كان يقوم بنفث روح الحياة إلى مجتمع ميت، وإضاءة درب يمتد إلى موسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام وإلى فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم... اضاءة هذا الدرب من فوق اهرام الفراعنة. وقد تحقق كل هذا وبقي يوسف عليه السلام ذكرى جميلة لمن جاء من بعده.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾

[يوسف: ٦٧]

يمكن تلخيص ما يخطر على البال من هذه التوصية التي وصاها يعقوب بنيه مايأتي:

يقول بعض المفسرين أن أبناء يعقوب ﷺ كانوا جميلي المنظر، حسني الشكل والشمائل بهيي الطلعة ذوي قيافة تجلب الأنظار، وإنهم جلبوا أنظار الملك وأنظار الشعب المصري في زيارتهم الأولى. لذا كان ظهورهم أمام الناس للمرة الثانية قد يجلب لهم حسد البعض.

كما أن زيارتهم المتكررة لمصر وبفترات متقاربة وتأسيسهم علاقة حميمة مع يوسف ﷺ كان من الممكن التأثير على مقام يوسف ﷺ وعلى موقعه الرسمي. وكان من الممكن انطلاق شائعات من أمثال: "لماذا هذه المعاملة المتميزة لهؤلاء؟" أو "لقد جاء الأخوة العشرة مرة أخرى".

كما يمكن توقع أن يعقوب ﷺ خاف أن يعاملوا بنيامين بالمعاملة التي عاملوا بها يوسف ﷺ، فأراد أن يفرقهم اثنين اثنين لكي لا يجمعوا أمرهم في هذا الخصوص.

كان من الممكن لبني إسرائيل وهم يدخلون مصر القيام بأحياء مصر من الناحية المعنوية، لذا كان من الأفضل الإستناد إلى مبدأ السرية لتحقيق هذا الحلم وهذا الخيال. أي عدم التجمع وعدم الظهور كمجموعة، بل التفرق أفرادا.

طبعا كل هذا يعد إتخاذ التدابير في عالم الأسباب، وهذه وظيفة يجب مراعاتها في هذا العالم. ولكن اتخاذ التدابير ووضع الإستراتيجيات لا يعني

بالضرورة قيامه بمنع المصائب والبلايا التي تتخطى هذه التدابير وهذه الإستراتيجيات. لذا عبّر يعقوب عليه السلام عن هذا الأمر بانه مع اتخاذ التدابير والأسباب فهو يعتمد على الله تعالى مسبب الأسباب، لذا نراه يقول: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: ٦٧).

ونحن نقول ما قاله يعقوب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الممتحنة: ٤-٥).

سورة الرعد

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد: ٣١]

كما بينت تفاسير هذه الآية فانه لو كان بالإمكان تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكسيرها، وتكليم الموتى بكتاب ما، فلن يكون هذا الكتاب التوراة أو الإنجيل أو الزبور بل يكون بالقرآن. وهكذا يوجه الله تعالى الأنظار إلى القرآن الكريم.

لو حدثت هذه الأمور كلها لكان معنى ذلك وقوع المعجزة. وأن عدم وقوع المعجزات وحدوثها وتحققها كما يطلبها الأنبياء عليهم السلام أحيانا من أجل هداية أقوامهم يعني أن هذه المعجزات التي تأتي لتصديق النبوات مرتبطة بالمشيئة الإلهية وحدها.

إن آية ﴿بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ تقوم بتوجيه الأفكار المنحرفة وتعلن وتحدد ممن يجب أن يُسأَل ومن أين يُطلب وأن جميع القوى المادية والمعنوية وكل وسائل التاثير بيده تعالى وحده. وأنه متى ما شاء يستطيع أن يفعل ويحقق كل هذه الأمور المشار اليها. وأنه يستطيع هداية القلوب والوصول بـــها إلى شاطيء الإطمئنان حتى من دون إظهار المعجزات والامور الخارقة. وأنه لا يوجد أي شيء محال بالنسبة إليه. فلو شاء لسيّر الجبال، أو لدك الأرض وقطّعها، أو جعل الموتى الذين ماتوا منذ آلاف الأعوام وبليت أجسادهم يتكلمون. والحقيقة إن تأثير جميع هذه المعجزات -ان حصلت- لا يمكن

قياسه بالتأثير الذي يحدثه القرآن في القلوب التي شاء الله هدايتها. لذا فإن هذه الأمور العجيبة والمعجزات التي ترونــها كبيرة تبقى شيئا ضئيلا بالنسبة إلى الثورة العالمية الشاملة التي يحدثها القرآن. وإن أردتم البحث والتنقيب عن سبب لهذه الحوادث والمعجزات التي تبدو أمام أنظاركم وخيالكم خارقة وعجيبة، فإن القرآن هو هذا السبب إن نظرنا إلى الموضوع من زاوية الأسباب العامة والجذرية. فلو شاء الله تعالى لسيّر الجبال وقطع الأرض ونفخ الحياة في الأموات وجعلها تتكلم. ولكن سبب نــزول القرآن ليس لهذه الأمور. فحكمة تنــزيل القرآن هي انشاء نمط جديد من هذا الإنسان الحالي الموجود، والنفوذ إلى القلوب التي لايمكن لغيره النفوذ فيها، وانشاء حاكمية الإيمان فيها، وإظهار وتعيين طرق الخلود والبقاء أمام الإنسان الفاني. ووعده بتحقيق جميع أمانيه وآماله، بل جعله يستطيع التفرج من نافذة قلبه ووجدانه على الخلود وعلى السعادة الخالدة وهو لم ينتقل بعد إلى العالم الآخر. إذن فأن الأهم معرفة هذه النواحي من حكمة تنــزيل القرآن.

أجل إن التأثير المؤقت لتسيير الجبال وقذفها يمينا وشمالا، وتقطيع الأرض وتفتيتها وقيام عظام الموتى بالتكلم، لا يعد شيئا بجانب التأثير الدائمي والباقي للقرآن على الإنسان. بل يبقى تأثيرا ضئيلا وخافتا.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ (الحشر: ٢١)

سورة إبراهيم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]

هناك أربعة مواضع تنتهي بمثل هذه الآية، وهي الآية الخامسة من سورة إبراهيم والآية الواحدة والثلاثون من سورة لقمان والآية التاسعة عشرة من سورة سبأ والآية الثالثة والثلاثون من سورة الشورى. ولو تم تدقيق سياق هذه الآيات سيلاحظ بأنـــها تأتي في أعقاب النعم التي أنعمها الله تعالى على الإنسان ثم يقال بأن هناك آيات حول وجود الله ووحدانيته لكل صبّار شكور، وهما صيغة مبالغة للصابر وللشاكر. وكما يقول القرآن فإن نعم الله على الإنسان كثيرة بحيث لو قمنا بعدها لا نستطيع أن نحصيها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ولكن الألفة والعادة التي يعيش في ظلها الإنسان المرتبط بجسده تجعله لا يحس بقدر هذه النعم وقيمتها إلا عندما تزول عنه. ولكن الأصل هو معرفة الإنسان بقيمة هذه النعم وهي بعد موجودة وقريبة، والتوجه إلى الله بكل جوارحه. وعندما تسلب هذه النعم منّا -بناء على حكم عديدة- تفرض عبوديتنا علينا الألتزام بالصبر الجميل في جميع الأحوال، وعلينا أن نقول على الدوام: "إن لطفك وقهرك يا ربنا سواء" وألا نتصرف أي تصرف سلبي ينافي عبوديتنا لله، وذلك تاييدا للحديث النبوي الشريف: "عَجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابَتهُ سرّاء شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابَتهُ ضرّاء صبَر فكان خيراً له".(١)

---

(١) مسلم، الزهد ٦٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤/٥؛ سنن الدارمي الرقائق ٦١.

صحيح أن القرآن ذكر صيغة المبالغة للصابر والشاكر، ولكن لماذا؟

ذلك لأنه لا توجد هناك نعمة صغيرة من بين النعم التي أنعمها الله تعالى على الإنسان... فأي نعمة تعد صغيرة؟ آلأصابع الخمسة نعمة صغيرة؟ أم الغدد اللعابية الموجودة في أفواهنا وعملها؟ أم النعم المذكورة في هذه الآيات من تسيير السفن في البحار؟ أم الهواء؟... أم الماء... أم الحياة... أم الإيمان؟... أي منها؟... كلا... لا توجد هناك نعمة نستطيع أن نقول عليها إنـــها نعمة صغيرة. إذن يجب أن يكون هناك شكر كثير لهذه النعم. وعندما تذهب هذه النعم -لحكمة من حكم الابتلاء- يستوجب هذا الذهابُ صبرًا جميلاً. والنبي أيوب عليه السلام مثال أنموذجي للصبر الجميل. والأستاذ بديع الزمان النورسي يقول عنه إنه كان "بطل الصبر". فبعد أخذ جميع النعم الدنيوية منه لم تتغير حاله أو طوره أو توجهه نحو الله تعالى. ثم إن بطل الصبر والعرفان هذا الذي كان صبره نتيجة لإيمانه لم ينحرف إلى اليأس امام جميع المحن والشدائد التي تذهب بالصبر لأنه كان يدرك المعنى الحقيقي لأسباب المشقات والمحن، وكان يدرك جيدا أن للشرور جوانب خيّرة. لذا كان قلبه مفعما بالإيمان ولم ينـــزلق إلى القلق بل إلى الشكر والحمد في أوقات صبره على المحن.

ثم إنه يجب أداء الصبر والشكر باحساس وعاطفة، وهذا يتناسب مع قوة إيمان وعرفان الإنسان وضمن اطار وظيفته ومسؤوليته. فالنبي الذي خوطب بـــ ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـــورِ﴾ (إبراهيم: ٥) كان مأموراً بإخراج قومه فقط من الظلمات إلى النـــور. بينما خوطب نبينا ﷺ بـــ ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـــورِ﴾ (إبراهيم: ١) أي كلف بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وعاش ﷺ جو هذه المُهمّة.

سورة الحجر

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾

[الحجر: ٢٤]

بينما يشير علم المستقدمين والمستأخرين إلى القدر الإلهي، يشير من ناحية أخرى إلى التوحيد أيضا. ذلك لأن مَن خلَق الماضي هو الذي يخلق -أو سيخلق- المستقبل. ثم قد يتبادر إلى الذهن الملاحظات الآتية في صدد علم المستقدمين والمستأخرين:

نحن نعلم المستقدمين من الآتين إلى هذه الدنيا مثلا الآتين في زمن آدم عليه السلام، ونعلم الآتين من بعده.

ونعلم المستقدمين منكم من زاوية الدخول في الإسلام والمستأخرين منكم.

ونعلم المتقدمين منكم في صفوف الصلاة والمتأخرين.

ونعلم أوائل حياتكم وأواخرها، أي ذرات أجسادكم وجزيئاتها وأحوالكم الحالية، ثم كيف تتحولون في القبر إلى عظام نخرة.

وإذا عبرنا عن هذا بتعبير أشمل وأوسع نقول: اننا نعلم أصحاب الصفوف المتقدمة في الإيمان والإسلام والإحسان وأصحاب الصفوف المتأخرة والمتعثرين في هذه الأمور. وهناك من دخل في تفصيل وفروع هذا الأمر حتى وصل إلى القول بالمبكرين في القدوم إلى الجامع -أي اصحاب الصفوف الأولى في الصلاة- والمتأخرين في القدوم إليه من أصحاب الصفوف المتأخرة.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]

تعفن الطين الذي خلق منه الإنسان قد يكون بسبب البكتريات الموجودة فيه كانت البداية طينا لزجا متعفناً، ثم تقلب من حال إلى حال ومن شكل إلى شكل بمرور الزمن حتى تحول من "حمأ مسنون" إلى فخار مطبوخ يرن إذا نقرت عليه، أي تحول إلى "صلصال" وقد يكون العكس صحيحاً أيضاً ولكن النتيجة لا تتغير كثيراً. فمن جهة هناك طين معرض للتبدل وللتغير نتيجة وجود أحياء مجهرية فيه، أي كأنه خليط بروتيني ومن جهة أخرى طين جاف يابس لا توجد فيه أي أحياء مجهرية. وحتى توجه العلم الإلهي وقدرته وإرادته لتفريغ هذا الطين في قالب وإعطائه صورة إنسانية وتوجيه نفخة إلهية إليه كمعجزة خلق لكي يكون هذا الإنسان محوراً للأسماء وللصفات الإلهية... حتى ذلك الحين بقي الإنسان في برزخ بين الماء والطين بعيداً عن الحياة.

ثم صار هذا الطين إنسانا... إنساناً لا يستطيع أفراد منه أن يتجاوزوا الملائكة، ولكنه إلى جانب هذا حمل معه قابلية التعفن حتى اليوم، وإمكانية الخلوّ من أي خير. ومع أنه يحمل إمكانية الخير بنسبة علاقته بالصفات وبالأسماء الحسنى الإلهية، فإنه في الأدوار التي يخلو من هذه الصفات، يعكس جميع خصائص نشأته الأولى من حمأ مسنون.

أجل إن الإنسان إن لم يسع لتحقيق الهدف المنشود من خلقه، ولم يبذل جهده في هذا السبيل لكي يعلو إلى أعلى عليين ولم يظهر هذه القابلية فإنه لن يستطيع التخلص من العفونة ومن التعفن أبداً.

سورة النحل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠]

هذه الآية الكريمة آية جامعة تحتوي على ستة اسس منها اسس ايجابية، وأخرى سلبية.

العدالة نظام حيوي جدا في الدين، وعدها بعضهم أحد الأسس الأربعة المهمة في الدين. وهذا المفهوم الذي يرد في القرآن وفي السنة الصحيحة تحت تعبير العبودية واحيانا العدالة مفهوم عام يرد اليه الكثير من الأشياء. فمثلا يمكن ارجاع جميع وجوه الخير المذكورة في هذه الآية من الإحسان وإيتاء ذي القربى إلى العدالة. علما بأن العدالة بمعنى العبودية إن لم تكن موجودة في الإنسان ومستقرة في المجتمع استقرارا صحيحا فلا يمكن توقع وجوه الخير الأخرى لا في الإنسان ولا في المجتمع. فلا إحسان دون عدالة، ولا يمكن إسداء الخير لذي القربى من دونها، ولاسيما إن قرأنا التعريف المدهش للإحسان الوارد في الحديث النبوي الشريف "أنْ تَعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فهو يراك".[١]

---

(١) البخاري، تفسير القرآن ٣١؛ الترمذي، الإيمان ٤؛ ابن ماجه، المقدمة ٩؛ مسلم، الإيمان ٥٧؛ أبو داود، السنة ١٦.

أي فالإحسان أن تكون عبداً لله كأنك تراه. ولكن هذا الشعور والتفكير والتصور يجب أن يكون مبنيا على إيمان متين وراسخ، وأن يتعمق هذا الإيمان بالاسس الإسلامية لكي يستطيع شعور الإحسان إعطاء ما يؤمل وما ينتظر منه.

إن إيتاء ذي القربى، وبشكل اشمل عمل المعروف للناس جميعا، يعني انتشار مبدأ الإحسان وفلسفته. وإذا قمنا بتحليل هذه الآية من هذه الزاوية نرى أن العدالة هي منبع الاحسان وقاعدته، والإحسان هو منبع الخير والبر وقاعدته.

وإذا انتقلنا إلى الأسس السلبية نرى أن النهي الأول هو عن الفحشاء.

وقد يكون السبب في هذا أن الفحشاء هي بداية جميع المنكرات عند الإنسان كفرد وعند المجتمع ككل، لذا تم تقديمه. فكما يعلم الجميع أن أي مجتمع تسود فيه الفحشاء تبدأ جميع المنكرات الأخرى بالانتشار فيه واحدة تلو الأخرى فينحرف هذا المجتمع انحرافا كبيرا. لذا لا يمكن التقليل من خطورتها في أي وقت من الأوقات.

ومعنى المنكر هو إتيان ماحرمه الله تعالى واقترافه بشكل علني. وهو ياتي بمعنى العصيان على منظومة الحقائق الكونيه والتمرد عليها وهو شيء مردود في كل دين وفي كل أمة وملة.

أما البغي فيعني تجاوز الحد. وتظهر هذه الخصلة السيئة في الحياة الفردية وفي الحياة الاجتماعية أيضاً في اشكال وصور مختلفة من ظلم الإنسان لنفسه إلى عصيان الوالدين، إلى رفع راية العصيان ضد الدولة والاخلال بطمأنينة المجتمع، إلى انكار الله تعالى والجحود به.

وكما رأينا في موضوع العدل والإحسان وايتاء ذي القربى والبر فإن الفحشاء هي اساس ومنبع المنكر، والمنكر هو اساس البغي ومنبعه.

ولكن المذهب الحنفي يرى أن الواو هنا يفيد الجمع المطلق، والعطف

بحرف الواو في الآية الكريمة للصفات الإيجابية وكذلك للصفات السلبية، لذا يجوز أن الترتيب والتقديم والتأخير قد لا يكون واردا هنا. بينما يرى المذهب الشافعي أن الواو هنا يفيد الترتيب أيضا، ومن هذه الزاوية فإن تسلسل السبب والنتيجة -الذي ذكرناه آنفا- قد يكون واردا ومثل هذا الارتباط قد يكون موجودا.

والخلاصة أن هذه الآية هي أجمع آية في القرآن الكريم حول الخير والشر كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.[1] وهي تتضمن معاني يمكن شرحها في مجلدات.

---

(١) جامع البيان للطبري، في تفسير هذه الآية.

سورة الإسراء

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣]

هذه الآية تذكّر الإنسان بصورة المحكوم عليه بالإعدام الذي يعلق على رقبته فرمان الإعدام وسببه وهو يساق إلى حبل المشنقة. ونستطيع ذكر بعض المسائل في تفسير هذه الآية:

الطائر المذكور هو عمل الإنسان وهو -كما ورد في الأحاديث النبوية- يظهر أمام الإنسان بشكل إنسان حسن الوجه إن كانت أعماله حسنة وبشكل إنسان قبيح الوجه إن كانت أعماله قبيحة.

إن أراد الله تعالى فضْح عبدٍ من عباده، أي أراد عقابه بسبب ما اقترفه من الآثام حسب ما تقتضيه العدالة، علق كتاب اعماله في عنقه وأفشى سره. أما إن أراد الصفح عن عبد من عباده ستره وستر ذنوبه و لم يظهرها لأحد.

وقد يقال -من وجه آخر- إن هذا الطائر المعلق في عنق الإنسان هو ضميره الذي لا يفارقه أبدا، والذي يحسه في اعماقه على الدوام والذي يظهر نفسه -كما يرد في التعبير الشائع- بـــ "راحة الضمير" أو "عذاب الضمير" حسب ما يعمله من خير أو من شر. والخلاصة فإن قدر الإنسان المحاك حول ارادته النسبية والجزئية، وحظه وارتباط روحه بجسده كإرتباط الظل ببدنه... كله معلق في عنقه ومحمل على عاتقه، ويكون مصدر انشراح

وفرح له، أو مصدر عذاب وألم لا يفارقه... لا يفارقه ويظهر يوم القيامة كسجل وككتاب يوضع أمامه ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤). أما من يقرأ نفسه كل يوم ويحاسبها فانه سيكون آمنا مطمئنا يوم القيامة وهو يتوجه نحو الجنة ونحو رضوان الله تعالى لانه كان يحاسب نفسه في الدنيا. أما من فرط في محاسبة نفسه في الدنيا فانه سيذهل يوم القيامة ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقّة: ٢٥-٢٦).

سورة الكهف

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٣-١٤]

أصحاب الكهف أي أصحاب المغارة. ومع أنه قيل إنهم من أتباع النبي عيسى عليه السلام وأتباع الإنجيل، أو أتباع نبي آخر. إلا أننا نستطيع القول -انطلاقا مما جاء في القرآن الكريم- بأن أصحاب الكهف جماعة تمثل رمز البعث والإحياء حتى يوم القيامة. لأن جميع حركات البعث والإحياء مرت بفترات الضيق وفترات العيش في المغارات أو تحت الأرض، وسيتكرر هذا في المستقبل أيضا.

وإذا أتينا إلى عددهم، فالقرآن ينفي أنهم كانوا ثلاثة، أما الادّعاء بأنهم كانوا خمسة فيصفه بأنه رجم بالغيب، ويسكت عن كونهم سبعة ثامنهم كلبهم. أي يدع الباب مفتوحا للعدد سبعة. ويحمل علماء التفسير هذه القناعة استنادا إلى أسلوب التعبير القرآني هنا. وهنا توجد نكتة لطيفة، فالقرآن الكريم بعدما يذكر أن عدد أصحاب الكهف كان سبعة يستعمل واو العطف فيقول ﴿وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (الكهف: ٢٢) مشيرا إلى أن الإنسان والكلب لا يجمعان معا. إذن فلو دخل هذا الكلب الجنة مع أصحاب

الكهف -كما ورد في روايـــة- فالناس يدخلون بوصفهم أناساً والكلب بوصفه كلبا.

والآن لنرجع إلى البداية ولنطالع معا هذه الآية مرة أخرى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

إنـــهم فتية شجعان... شجعان بأفئدتـــهم... شجعان بأفكارهم... شجعان بضمائرهم... شـــجعان بسلوكهم وتصرفاتـــهم... إنـــهم فتية أقوياء الإيمان إلى درجة قيامهم بشق عصا الطاعة ضد الباطل. ومع أنـــهم كانوا فئة صغيرة فلم يترددوا في بدء هذه الحركة النابعة من اهتدائهم وإيمانـــهم بربـــهم الذي زادهم هدى من عنده على هداهم الذي كسبوه بجهدهم... زادهم هدى اعمق برحمته الواسعة الشاملة وجعل منهم عصبة من الفتية المؤمنة حق الإيمان. ونعلم حسب آية ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِـــهِمْ﴾ أن التأييد الرباني لإيمانـــهم وتقوية ربهم لهذا الإيمان وترسيخه في قلوبهم كان بنسبة إيمانهم السابق وبنسبة نيتهم الصالحة. بل إن تلقيهم مساعدة ومعونة واضحة وصريحة من الله تعالى وارد أحيانا، وهذا وسيلة مهمة للاطمئنان القلبي، لأنه يعني الارتباط مع الله تعالى. وهناك حديث نبوي شريف يشير إلى حال نوع من إيمان الفرد يكون ذكر الله تعالى عنده في كل آن... يذكره أبدا... يحس به على الدوام بقلبه، ويراه على الدوام بروحه، ويشعر بقوته وقدرته، ويبحث عن رضاه على الدوام.... ففي أحد الأحاديث يورد رسول الله ﷺ حالات خاصة كالتوضؤ في شروط صعبة، والذهاب إلى مساجد بعيدة بحيث يكثر عدد خطواته، وانتظار الصلاة بعد الصلاة في المسجد ويختم الحديث بقوله ﷺ: "فذلكم الرباط... فذلكم الرباط... فذلكم الرباط".(١) والرباط هو المرابطة في الثغور. إذن فمعنى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى

---

(١) مسلم، الطهارة ٤١؛ النسائي، الطهارة ١٠٦؛ الترمذي، الطهارة ٣٩؛ الموطأ للإمام مالك، السفر ٥٥.

قُلُوبِهِمْ﴾ هو أننا أيدنا قلوبهم بالرباط الإلهي. ومن الطبيعي أن من وصل إلى مثل هذا الرباط وهذا الاطمئنان يكون متبعا للحق شجاعا غير وجل.

مثل هؤلاء الناس المجهزين بمثل هذا الإيمان ﴿إِذْ قَامُوا﴾ قاموا ليرفعوا صوت الحق ضد موات القلب وضد الانحراف عن المنطق. وقد وَجَدَ سارتر وكامو وماركوس مكاناً لهم في الأدب العالمي بأدب التمرد المعبّر عن الفلسفة الوجودية التي اعتنقوها. تمردوا على جميع عادات وأعراف المجتمع وجميع القيم الدينية والأسرية واصفين إياها بالعبث. ولكن تمرد أصحاب الكهف لم يكن من هذا النمط. لقد تمردوا ولكن بعد أن عيّنوا البديل ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. أي لم يكن تمردهم عملية هدم وقطع للجذور كما فعل الوجوديون. بل عملية إنشاء وتعمير وعملية ربط مع رب السماوات والأرض الذي خلق كل شيء في السماوات والأرض وقدره فاحسن تقديره. أي كانوا رواد حملة تجديدية بديلة. ومن ثم ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾. إذن:

١- لا نستطيع النظر إلى انفصالهم عن مجتمعهم ولجوئهم إلى الكهف كأنه عملية هروب. أجل... إن ابتعادهم وانفصالهم عن مجتمعهم لم يكن كابتعاد وانفصال الجبناء. بل يحتمل أن هجرتهم من مدينتهم كانت مثل هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما ذهب إلى الكعبة قبيل هجرته وقال للقوم: «من أراد أن يرمل امرأته وييتم أولاده فليتبعني».(١)

أجل لقد كان فرارا، ولكنه فرار من النوع الذي ذكره القرآن الكريم ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ (الذاريات: ٥٠)؛ أيْ فِرار إلى الله ولجوء إليه.

٢- إن مثل هذا التمرد الذي أعقبه الابتعاد كان وسيلة لانعكاس جديد لأفكارهم ومبادئهم على مجتمعهم ضمن تفاسير مختلفة لاختلاف عامل

---

(١) إنسان العيون للحلَبي، ٢/١٨٣-١٨٤.

الزمن. لقد أدت صيحتهم الشجاعة هذه إلى هز عقول الكثيرين في مجتمعهم وإلى تليين قلوب العديدين منهم. لقد تنوقلت أفكارهم ومبادؤهم وأنباء سلوكهم الشجاع من لسان إلى لسان ومن قلب إلى قلب حتى أحاطت بالمجتمع كله مثل بذور بذرت في التربة ثم نمت وترعرعت وأصبحت سنابل نضرة.

٣- يروى أن أصحاب الكهف كانوا أناسا من منتسبي قصر الملك و لم يكن قيام أي إنسان منتسب إلى القصر بترك حياة السعادة والرفاهية والترف الذي يعيش فيه لينخرط في طريق مخالف للملك ولكل المجتمع... لم يكن مثل هذا التصرف شيئاً مشاهداً أو مألوفاً آنذاك. ولا شك أن هذا التصرف من أصحاب الكهف قد لفت إليهم الأنظار، وكان لقيامهم بتصرف غير مسبوق من قبل من أجل دين معين وفكر معين وتقبلهم بكل رحابة صدر تضحيات ما كانت تدور بخلد أحد منهم مما أحدثَ هزةً عنيفة في ذلك المجتمع، فحول الأنظار والانتباه إلى دعوتهم وإلى رسالتهم.

٤- إن كان أصحاب الكهف قد قرروا الالتجاء إلى الكهف والبقاء فيه حتى يموت الملك ويزول ظلم الدولة وإرهابها ليرجعوا بعد ذلك إلى الناس من جديد والدعوة إلى دينهم الحق فإن مدة بقائهم في الكهف (أي مدة ٣٠٩ سنوات "ثلاثمائة سنينَ وازدادوا تسعاً") بمثابة عبادة لهم ينالون ثوابها بسبب نيتهم الصالحة وعمق هذه النية، لذا يعدون فائزين على أي حال من الأحوال. لأن الشخص المتعب الذي ينام على نية القيام لأداء صلاة العشاء بشكل أفضل وفي حالة راحة فإن نومه يعد له عبادة. لذا يجب النظر إلى قيام أصحاب الكهف بالاختفاء بأن نيتهم كانت الرجوع مرة أخرى إلى نشر دعوتهم بعد انكسار حدة الكفر. فلو كنت متعودا على الحياة المرفهة للقصر والنوم على الفرش الوثيرة الناعمة وتركت تلك الحياة وفضلت عليها النوم على الصخور الصلدة، وفضلت صحبة كلب على صحبة أناس عديدين

رجالا ونساء يقفون لك تحية وتبجيلا... إن كنت هكذا أليس من الطبيعي أن تنتظر مثل هذا الثواب؟... بلى.... لذا فمن الطبيعي أن يهبهم الله تعالى جزاء مكافئ عمق نيتهم الصالحة.

٥- والحقيقة أن الكهف هو مكان لإتمام عملية الشحن، وموضع لاكتشاف الإنسان لنفسه... لِمَ؟ ذلك لأن النضال ضد الكفر (ولا سيما في الأوقات التي لا يوجد هناك أي توازن بين قوة الكفر وقوة الإيمان) وهزه ثم الانتصار عليه لا يتم إلا بعزم يقارب عزم الأنبياء.

تأمل حياة الرسول ﷺ: ألم يقض مدة ستة اشهر في تأمل وتحنث في مغارة لأجل استكمال الاستعداد اللازم لتلقي الوحي؟ ونجد أن من جاء من بعده ﷺ ممن ساروا على نهجه لا بد وأن في حياتهم فترة غار أو كهف. أجل هناك فترة غار في حياة الإمام الغزالي والإمام السرهندي ومولانا خالد والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.... فترة شحن، وفترة رجوع إلى النفس... فترة انـــزواء لتجميع الطاقة والقوة لمواجهة الإلحاد والكفاح ضده أما مقدار هذه الفترة فقد كان ستة اشهر عند رسولنا ﷺ وخمس سنوات أو عشر سنوات عند الأولياء والأصفياء بل كان منهم من عاش حياة انـــزواء مدة ستين سنة.

والحقيقة أن الشيء نفسه وارد بالنسبة للجماعات التي تقوم بحركات التجديد وبإعادة الإنسانية إلى رشدها وإلى خط سيرها الصحيح في الحقب التاريخية المختلفة.

أجل نحن نشاهد فترة الانـــزواء الكهفي عند جميع من مثلوا روح الفتوة هذه... إن الإنسان لكي يكون مظهرا لبعض النعم الإلهية، والإلهامات السماوية فلا بد له من فترة كهفية.

وبعد هذا الذي عرضناه آنفاً في هذه المسألة لم يعد من الصواب إثارة تساؤلات أو الدخول في متاهات لم يشر إليها الكتاب أو السنة في هذه

المسالة مثل تعيين موقع معين للكهف، أو تعيين أسماء الحكام الظالمين الذين ظلموا أصحاب الكهف وقومهم إنّ مثل هذا يُعَّد رجما بالغيب وفتات معلومات لا تكسب الروح والإيمان أي معرفة روحانية أو قلبية أو شوقية.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّئْ لَنا مِن أمرِنا رشَدا. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أبداً.

﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ [الكهف: ١٨]

كان أصحاب الكهف فتية أبطالا وضعوا أرواحهم في أكفهم من أجل تبليغ دينهم. وعندما يتناول القرآن الكريم موضوعهم بأسلوبه الخاص المتميز يعطي إشارات وإيماءات مختلفة لأصحاب الدعوات حتى يوم القيامة. أجل.... على الدعاة والمرشدين أن يُشحنوا في البداية شحنات روحية مثل أصحاب الكهف، وأن يمروا بمثل هذه المرحلة. وكما يمكن أن يتم هذا بقضاء فترة في الكهوف والمغارات، كذلك يمكن أن يتم على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم، الذين مروا بفترة شحن وشحذ لقواهم الروحية في دار الأرقم. طبعا ليس من الشرط وجود تشابه حرفي في هذا الموضوع، لأن الحوادث التاريخية تجري في أنماط متشابهة ضمن إطار عام. لذا فالأشياء المهمة بالنسبة إليهم بمقياس كبير مهمة بالنسبة إلينا كذلك.. بعد الفهم الجيد للدعوة المراد نشرها وتبليغها وهضمها والقيام بـــهذه الدعوة بكل تجرد وإخلاص.. بعد قضاء فترة اعتكاف وخلوة وتوجه إلى الله للوصول إلى المستوى الروحي المطلوب الذي يحقق لهم قدرة التمثل والتشرب بالدعوة وقدرة على تمثيلها.

وإذا أتينا إلى الآية نرى أن كلبهم قابع في مدخل الكهف يقوم بوظيفة حراستهم وحفظهم من الأخطار، ولكنه ليس واحدا منهم، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الفرق الطبيعي بأسلوبه المتميز فيقول ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُم كَلْبُهُم﴾ (الكهف: ٢٢) أي عندما يذكر عددهم ومجموعهم يذكر الكلب على حدة. وعلاوة على هذا فانه عندما يتم إيضاح حال الكلب ووضعه وهو واقف للحراسة وقفة مهيبة تنخلع لها قلوب الآخرين، إلى درجة أنه لو

اطّلع على حالهم أحد عن بعد لولى منهم فرارا من الرعب. وهذه لمسات من التصوير المعبر جدا.

١- والآن لنحاول إلقاء نظرة سريعة على النكت التي تلهمها هذه الآية الكريمة: سيكون هناك في كل عهد صناديد من أمثال أصحاب الكهف، وسيكون هناك من يلتحق بهم، وسيستمرون في السير معا ضمن إطار عام من الفكر والشعور وإن لم يكونوا على الخط نفسه في جميع التفاصيل.

٢- يوجد على الدوام في كل عهد من يعيش حياة الكهف هذه، أو يجبرون على مثل هذا العيش. لذا عليهم إلا يهملوا حراسة أنفسهم، لأن من المحتمل -بعد مرحلة معينة- بدء الهجوم عليهم وعلى بيوتهم وعلى مؤسساتهم. لذا عليهم أن يتخذوا التدابير اللازمة، بل وضع الكلاب المدربة أمام بيوتهم.

٣- يجب ألاّ تكون مثل هذه الكلاب كلابا عادية بل من النوع الذي يستطيع مجابـــهة جميع الأخطار الآتية من الخارج ومواجهتها، وأن يكون وضعهم ومنظرهم كافيا لإلقاء الرعب في النفوس الشريرة.

إن الإنسان إنسان بمقياس تبنيه للقيم الإنسانية. وعندما يفقد هذه القيم يكون ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

وهذ الموضوع وارد في آيات عديدة تعطي إيضاحا أكثر.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾

[الكهف: ١٩]

كنا قد شرحنا بطولة أصحاب الكهف عندما تناولنا شرح الآية الرابعة عشر من هذه السورة. أما هنا فسنتناول بطولتهم الثانية. وتتلخص في أن أحدهم عندما نــزل للتسوق من سوق المدينة جلب إليه الأنظار سواء بزيه أو بنوع دراهمه فقام أهل المدينة -وفي رواية قام الوالي- بتعقبه حتى عثروا على أصحاب الكهف في كهفهم. كان هذا مدعاة لزيادة إيمان الآلاف ومئات الآلاف من الذين تناقلوا روايتهم أبا عن جد أو قرأوها في الكتب، فانقلب هذا الإيمان من علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين، أو إلى ما بعده، وهزت هذه الحادثة ذلك المجتمع هزا عنيفا، وبدأ الناس يتسابقون نحو الدين. وهكذا كان القدر الإلهي يهيئ لهؤلاء الأبطال مهمة ثانية في الدعوة. وبينما كانوا يتركون هذه الحياة الدنيا كانوا قد رفعوا الآلاف من الناس إلى أفق دعوتهم وفكرهم.

والشيء الثاني الذي يجلب النظر في هذه الآية الكريمة هو المال والنقود. فمهما كانت النتيجة فإن النقود -أي مال الدنيا وزينتها- هي التي كشفت عنهم وعن مكانهم. لأن أهل المدينة عرفوا (يمليحا) -إن كان هو المشتري- من نقوده. أما كون النتيجة إيجابية فلطف الهي. ولكن النقود هي التي دلت عليهم. إذن فرجل الفكر والدعوة إن كان لا يرغب في التعرض للقبض عليه

من قبل الأعداء أو من قبل الأصدقاء أو من قبل مجتمعه فيجب عليه ألا يبتعد عن حب الربح والكسب فقط، بل عن أي ضعف دنيوي في هذا المجال. فكم شهد الماضي من رجال ومن سلاطين كبار اصبحوا أسرى للمال الغدار. وكم من مرة أُستُغِلَّ هذا الضعف الموجود في فطرة الإنسان فمحيت مجتمعات وذلت أمم. ولكن مع هذا فإن انتشار الدين في العالم معتمد الآن على النقود، أي على الرأسمال أيضا وعلى قوة تمويل المشاريع الدعوية. ويرجى ملاحظة أن أصحاب الكهف عندما خرجوا إلى الخارج ببضعة دراهم حدث انفجار ديني ثان في ذلك المجتمع لذا فهذا جانب مهم في هذا الموضوع، أي يجب ألاّ يهمل موضوع التمويل المادي، ولكن بشرط أن تكون النصوص الإسلامية من آيات وأحاديث وتصرفات الرسول ﷺ قدوة ونبراسا لنا. أجل يجب أن يكسب المسلم ويكون غنيا، لكن على شرط ألا يستولي حب المال على قلبه. بل يضع ذلك المال في مكان "حرز" بتعبير الفقهاء بعيد عن يد اللصوص ثم يصرفه في وجوه منافع الأمة. فلولا هذا التمويل هل كان يمكن تحقيق هذه المشاريع الكبيرة؟... إذن فالقوة المادية كان لها دور كبير في نشر الدين الإسلامي المبين. لذا فمن هذه الزاوية فكل جهد يبذل في سبيل الحصول على المال يعد عبادة... يعد عبادة إن تم صرف هذا المال الذي جمع بكل مشقة مادية أو فكرية، في سبيل الدعوة السامية وليس في سبيل الأهواء والشهوات.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ٢٤]

إذا كان السبيل المراد للهداية إليه هو سريان الدين ونفوذه إلى قلب الإنسان وروحه وقبول وجدان الإنسان له بكل معطياته.. إذا كان هذا هو السبيل المشار إليه فقد تحقق هذا في اليهودية والمسيحية والإسلام في عهود مختلفة، فمثلا وصل اليهود خلال سنوات التيه أي خلال أربعين سنة إلى هذا المستوى الروحي. أما المسيحية التي لاقت الاضطهاد طوال عصور ثلاثة فقد قُبلت كذلك وانتشرت. أما إن جئنا إلى الإسلام فنحن نرى أنه تُقُبِّل قبولاً حسناً في مدة أقل هي مدة ثلاث وعشرين سنة، أي كان -كما جاء في الآية- أقرب من هذا رشدا. ولعل هذه الآية تشير إلى هذا من باب الإخبار الغيبيّ. أما الأمر الوارد في هذه الآية ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فهو لتنبيه الذين ينسون ذكر "إن شاء الله"، أو الذين ينسون التأمل في آيات الله ويغفلون عن ذكره ويذكرهم بآية ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ليعودوا إليه ويرجعوا عن غفلتهم ويستيقظوا منها، ويلتجئوا اليه، ويقول له بأن كفارة النسيان والغفلة هي ذكر الله تعالى.

وهكذا وبمثل هذا الذكر لله والوصول إلى المستوى الرفيع لأصحاب الكهف المشحونين بذكر الله يظهر -بلطف من الله تعالى- اقصر طريق للوصول إلى وجدان المجتمع، ويدخل النجاح ضمن دائرة الصلاح. وهذا ما تشير إليه خاتمة هذه الآية.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]

كان مشركو قريش قد طلبوا من الرسول ﷺ أن يطرد الفقراء من أصحابه عن مجلسه وأن يجعل لهم ميزة وأولوية في الحضور. وكان من الممكن إن أخذنا خصائص البنية الاجتماعية آنذاك بنظر الاعتبار التفكير بأن تحقيق هذا الطلب سيؤدي إلى هداية هؤلاء وإلى إسلام العديدين اتّباعاً لهم. ولكن الوحي السماوي نـــزل على الرسول ﷺ (الذي لم يكن وصل إلى قرار في هذا الموضوع) ليعاونه ويساعده في اتخاذ القرار الصحيح، وليؤكد مرة أخرى بأن استحصال رضا الله تعالى هو الأساس، وأن الكثرة والكمية لا أهمية لها، وأن الذين ساقوا الشروط له لحضور مجلسه غافلون ولا يبتغون سوى الدنيا وأهوائها. ونحن نعلم أن الإسلام يستطيع أن يقف على قدميه دون أن يستند إلى عكّازة أي نظام أو شخص، ولن يكسب شهرة أو مجدا باتباعه هذا الشخص الغني أو ذاك أو هذه الطبقة الأرستقراطية أو تلك. انه يكتفي بالديناميكية الذاتية التي يملكها، لقد وجد بها وسيوجد دائما بها، لأنه يأخذ قوته التي لا تقهر من الله تعالى. لذا كان من استمسك به عزيزا، ومن هجره ذليلا. وفي التاريخ الإسلامي شواهد عديدة على هذا.

كانت قريش هي صاحبة هذا الطلب بدافع الغرور والكبرياء والأنانية والظلم. أما أصحاب الرسول ﷺ الذين كان من المفروض أن يستبعدوا عن مجلسه ويحرموا منه فهم صهيب وبلال وعمّار وياسر رضوان الله عليهم وكانوا من فقراء المسلمين. وكانت قريش تذكر بأنـــها لن تحضر مجلس

الرسول ﷺ إلا إذا طرد هؤلاء من مجلسه وحرم عليهم حضوره... ما أسخفه من شرط، وما أسخفه من طلب!!

النظر بازدراء إلى المسلمين الفقراء يمتد ويرجع حتى إلى عهد النبي نوح عليه السلام فقد وصفوا بأنـــهم "أراذل" وطلبوا من النبي نوح عليه السلام إبعادهم عنه، ولكنه أجابهم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٤). لذا فلم يكن من المتوقع أن يقوم فخر الكائنات محمد ﷺ بتصرف مخالف، بل قال معبراً عن حبه لهم: "المحيا محياكم والممات مماتكم". قال هذا حتى التِحاقه بالرفيق الأعلى.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٠]

استند بعضهم إلى عبارة "ذريته" فقالوا إن للشيطان زوجة وأولاداً. لذا أرى من المفيد ذكر موضوعين صغيرين:

١- حتى لو كان للشيطان زوجة وأولاد فهذا متعلق بعالم آخر مختلف تمام الاختلاف عن عالمنا. فكما نرى أنفسنا في المنام ونحن نأكل أو نشرب أو نمرض أو نتزوج، ويحصل هذا في عالم المنام والأحلام وهو عالم آخر. لذا يجب فهم ذرية الشيطان على ضوء هذا المنطق. ألا يذكر الرسول ﷺ بأن العظام رزق الجن؟ حين يقول: "لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن"[١] هذا مثال على وجود عالم آخر ذي أبعاد مختلفة عن عالمنا.

٢- ليس من الضروري حمل كلمة "الذرية" على معناها الحقيقي والحرفي. فكما يمكن أن يكون معناها الذرية حسب معناها الذي نعرفه، كذلك يمكن أن تأتي بمعنى نسل وذرية الإنس. وهناك أحاديث نبوية وحقائق اجتماعية وتاريخية تسند هذا المعنى. فمثلاً عندما يقوم الرسول ﷺ بتوجيه الأزواج إلى دعاء معين في أثناء الجماع، يقول بأن الطفل المولود منه سيكون في حرز من الشيطان. ومن المحتمل أن المسلمين في عهد من العهود عندما كانوا يقرأون هذا الدعاء جاء نسل طاهر خدم الإسلام والمسلمين والقرآن. ثم عندما غفلوا عنه أو عندما ابتعدوا عن الإسلام وعن الحياة الإسلامية نشأ جيل شيطاني، أو بالتعبير الشعبي الشائع نشأ جيل يستطيع خداع الشيطان نفسه.

---

(١) مسلم، الصلاة ١٥٠؛ الترمذي، الطهارة ١٤.

لذا نرى حمل عبارة "ذرية الشيطان" على المعنى المجازي لأنه من الممكن أن نفهم هذا المعنى على أساس أن الإنسان مع كونه إنساناً إلا أنه يستطيع أن يفكر تفكير الشيطان ويتصرف تصرف الشيطان، والقرآن الكريم يشير إلى هؤلاء بأنـــهم ﴿كَانُوا إخْوانَ الشَّيَاطِين﴾ (الإسراء: ٢٧) .

﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: ٨٥]

أعطيت لذي القرنين القوة الممكّنة المنفّذة وكذلك القوة الميسّرة. فقد وهبت له القوة التي تمكنه من تجاوز جميع العقبات والقوى التي تظهر أمامه بكل سهولة.

ونفهم من الآيات التي تتحدث عنه انه كان يمثل الإسلام أمام التوازن العالمي، وانه كان يتوجه بجيشه إلى المناطق التي تسود فيها الاضطرابات والقلاقل والفساد، وانه كان يضع السدود أمام الفساد في تلك المناطق القلقة ويؤمن التوازن والسلام. أي كان ممن ورث الأرض، وكان عنصر توازن بين الدول. لذا جهّزه الله تعالى بكل الأدوات والأسباب التي تمكنه من أداءِ هذه المهمة وآية ﴿وآتَيْنَاهُ مِن كُلّ شَيّ سَبَباً﴾ (الكهف: ٨٤) تؤيد هذا المعنى.

وقد أدرك ذو القرنين حكمة إعطائه هذه القدرة وهذه الإمكانية الكبيرة فاستعملها حتى مداها الأخير في تحقيق الرضا الإلهي وفي سبيل تحقيق التوازن في الأرض فكان رجل فكر ومبدأ استعمل ما سخر له في هذا السبيل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠﴾ [الكهف: ٩٠]

عندما توجه ذو القرنين ﵁ من الغرب إلى الشرق وصل إلى أفريقيا كما هو ظاهر من وصف القوم الذين رآهم هناك، فهؤلاء لم يكونوا يملكون مساكن ولا يعرفون ستر أجسادهم ويتجولون عرايا، أي كانوا بعيدين عن جميع مظاهر المدنية.

ويمكن استنباط المعاني الآتية أيضاً من هذه الآيات وهي أن ذا القرنين عند سياحته نحو الشرق وصل إلى موضع لا يوجد فيه أي حائل أمام أشعة الشمس من تل أو جبل أو شجر، أي كانوا يجابــهون الشمس وحرارتها منذ طلوعها حتى غروبــها... أو لم يكونوا يملكون الملابس التي تقيهم أشعة الشمس وحرارتــها. ولا تزال هناك أقوام في خط الاستواء أو في الأماكن الحارة من الصحارى يتجولون شبه عرايا أو عرايا. أي لم يكونوا يملكون لا سترا طبيعيا، ولا مساكن وأبنية ولا ملابس كافية بالمعنى المعروف، بل كانوا أقواما بدائيين.

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف: ٩٤]

قد يكون هذا السد سد الصين أو سد "دَمِير قَابِي" في قفقاسيا أو سداً في مكان آخر. ولكن بعد ورود تعريف هذا السد في الآيات القادمة يصبح من الصعب الكلام عن سد معين. وحتى لو كان موجودا فإن تعيين مكانه يحتاج إلى بحث دقيق. لذا يجب توجيه الأنظار إلى القوم الموجودين وراء السد اكثر من توجيه الاهتمام إلى السد نفسه. فالظاهر أن هؤلاء القوم سيبقون في خير وعافية ما داموا متعلقين بقيمهم المعنوية ويستطيعون منع مفاسد يأجوج ومأجوج وفتنهم في الأقل يستطيعون تحييد تلك الأضرار.

ونحن نرى بأن علينا البحث عن أحكام كلية في قصة ذي القرنين. مثل شروط بقاء الدولة ودوامها وشروط رئيس الدولة... الخ، وبعكس هذا فإننا نكون قد قمنا فقط برواية حادثة من ثنايا تاريخ بعيد، وهذا يعني أننا نستطيع الاستفادة من القرآن استفادة كبيرة، أو أن هذه الاستفادة ستكون ضئيلة جداً.

وشيء آخر نود الإشارة إليه وهو قيام ذي القرنين –الذي كان يمثل العدالة والاستقامة في الأرض– بمساعدة العاجزين والمسحوقين. ويجوز أن هؤلاء المظلومين والعاجزين كانوا أتراكاً أو أمة مظلومة أخرى. وكان الظالمون والمفسدون هم قوم يأجوج ومأجوج. ولم يتردد ذو القرنين من الوقوف أمام هؤلاء المفسدين الطغاة أعداء الدين والعرض والملة. وسيتكرر التاريخ في هذا الخصوص وسيقوم مَنْ يرثون الأرض بإيقاف أمثال هؤلاء عند حدهم في كل عهد ﴿حَتّى إذَا فُتِحَتْ يَأجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ

حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٦). أي أن ذلك السد القوي المتين سينهار وسيقوم المفسدون الظالمون من ذرية هذا القوم الظالم بالانتشار في جميع السهول والبراري والبلدان.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]

أي لا يوجد فرق بيننا من ناحية الخلق ومن زاوية النسبة إلى المعبود، وبتعبير آخر إلى الذات الإلهية من ناحية قربه وحكمه علينا، ومن زاوية بعدنا عنه وعبوديتنا له.

أجل!... ليس هناك موجود آخر غير الله سبحانه وتعالى لــه من العلو والاستغناء بحيث ندين له بالعبودية، ولا يوجد أي مخلوق من الصغار والمهانة بحيث يقوم بالانحناء والتذلل أمام أي موجود آخر غير الله وبالتعبير الدقيق لبديع الزمان النورسي: "يتساوى ما ســواه تعالى في البعد عن "المعبودية" وفي نسبة المخلوقية".[١]

وهذه الآية رد وجواب في الوقت نفسه على الغلو الذي حدث لأنبياء كرام مثل عيسى وعزير عليهما السلام حيث تم رفعهما إلى مقام الألوهية. ولا شك أن من الطبيعي أن يكون لإنسان -ولاسيما إن كان نبياً كريماً- قرب من الله تعالى ولكن هذا القرب لا يكون مبررا ولا مسوغا لرفع أي إنسان إلى مقام الألوهية. ومن أجل التنبيه على هذا الأمر الدقيق يقول الرسول ﷺ -على الرغم من كمالاته العديدة- "إنني بشر مثلكم". ولكن هناك فارق واحد بيني وبينكم وهو انه "يوحى إلي" ولكن إلهكم اله واحد. أي تم التأكيد على المساواة في العبودية أمام المعبود الواحد ضمن هذه الفروق. وهكذا نرى أن هذه الآية بجانب الرد على من قام بتأليه عيسى وعزير عليهما السلام فإنــها تنبه المسلمين إلى الوضع الحقيقي لرسولنا الكريم ﷺ.

---

(١) اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثانية.

سورة مريم

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: ٥]

ليس من الصحيح تفسير طلب زكريا عليه السلام ولداً من ربه وكأنه عدم رضا وكراهية للقدر الإلهي. لأنّ هناك أموراً مبنية على هذا الطلب. فزكريا عليه السلام أولاً نبي مرسل إلى بني إسرائيل. وكان بنو إسرائيل حتى ذلك اليوم يمثلون من قبل الأنبياء في أمور الدين والدنيا، ويكفي أن نتذكر سلوك وتصرف بني إسرائيل عندما اختير طالوت ملكاً وقائداً لهم[1]. لذا فقد خشي زكريا عليه السلام ألا يعترف بنو إسرائيل بالشخص الذي سيأتي من بعده ولا ينقادوا له، وهذا يعني انفراط عِقْدِ الوحدة بين بني إسرائيل.

ونستطيع أن ننظر إلى هذه الآية من زاوية أخرى:

إن الإنسان ممتحن بكل أمر دنيوي. ونستطيع إعطاء مثال النبي إبراهيم عليه السلام والنبي زكريا عليه السلام. فقد كانت للنبي إبراهيم عليه السلام رغبة مكبوتة في نفسه، وهذه الرغبة ظهرت واضحة من فرحه ببشرى الملائكة له بالولد. أما زكريا عليه السلام فقد دعا ربه دعوة واضحة وطلب منه العقب ويورد القرآن هذا الدعاء. وحسب الحكمة الإلهية فقد أُمتحن هذان النبيان بابنيهما. كأن الطلب الخفي كان أهون لذا امتحن النبي إبراهيم عليه السلام بطلب ذبح ابنه. أما زكريا عليه السلام فلأن طلبه كان ظاهراً فقد امتحن امتحاناً اشد -وإن كانت

---

(١) انظر: البقرة: ٢٤٧.

عاقبته خيراً- وهو ذبح زكريا وابنه يحيى عليهما السلام من قبل قومهما. وشدة الامتحان متناسبة مع درجة القرب من الله. وهذان النبيان كانا من المقربين، لذا كان امتحانهما شديدا كل الشدة.

وفي هذه الآية نرى دعاء زكريا ﵇ وطلبه ذرية تخلفه لخشيته البقاء وحيداً دون معاون أو نصير من أهله في أمور الدين والدنيا. لذا نرى سورة آل عمران وهي تسجل دعاءه ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: ٣٨)

ويرد هذا الدعاء أيضاً في سورة الأنبياء: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩). أي طلب ذرية من صلبه يكون وارثاً له في النبوة وفي آل يعقوب.

ورسولنا الكريم ﷺ يقول: "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة".[1] أي أن الأنبياء لا يحملون أي هم من هموم الميراث لأولادهم أو لأقربائهم. لذا فالدعاء هنا من أجل ميراث النبوة. وقد قبل خير الوارثين هذا الدعاء واستجاب له بإحسان منه وفضل. وقد جعل الله تعالى -إظهاراً لعزته وعظمته- شيخاً كبيراً وامرأة عاقراً ستاراً لإحسانه وفضله.

ولكي يُشْعِرَ بأنه هو الوارث الحقيقي فقد استرجع بطريقة غير اعتيادية ما اعطاه بطريقة استثنائية وغير عادية.

---

(١) البخاري، الاعتصام ٥؛ مسلم، الجهاد ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٦.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: ١٧]

اعتزلت مريم عليها السلام عائلتها واعتكفت مكاناً شرقياً. ولم تكتف بالعزلة والاعتكاف، بل اتخذت ستراً وحجاباً بينها وبين عائلتها. وكما يمكن أن يكون سبب هذا الستر والحجاب تأمين عدم إحساس الآخرين بأحوال المرأة في هذا المكان المنعزل الصامت وحاجتها إلى التطهر، كذلك يجوز أن يكون السبب رغبتها في أداء عبادتها في جو هادئ وساكن بعيداً عن الضجيج لكي تستطيع التركيز في عبادتها وصلاتها.

ونتيجة هذا الطهر المادي والروحي الذي كانت تشعر به في أعماق روحها وحسب منطوق "الطيبات للطيبين" وفي ذلك الجو الطاهر النقي جاءها وتمثل لها الروح. كانت الإنسانية تحيا بهذا من جديد، وهذه الحياة المتجددة ستستمر حتى يوم القيامة.

ماذا كان هذا الروح؟ تقول معظم التفاسير بأن كلمة "روحنا" الواردة في هذه الآية تشير إلى جبريل عليه السلام. وهناك خلاف في تعيين المقصود من الروح. وحدود الاحتمالات تتجاوز إطار الخلاف، وهي واسعة إلى درجة أنها تستوعب روح رسولنا ﷺ أيضاً. أجل!... هذا محتمل أيضاً. لأن مريم العذراء عليها السلام كانت امرأة عفيفة جداً ونزيهة جداً. لذا لم يراود مخيلتها أيُّ خيال يمكن أن يقدح بهذه العفّة والنزاهة، وما كان يجوز لها ذلك. وما كان يجوز أن ينظر لها إلا محرمٌ لها. وهذا المحرم هو نبينا ﷺ لأنه أشار في أحد أحاديثه أنه عقد نكاحه على مريم.[1] لذا كان ضمن

(١) كنز العمال لعلي المتقي ١١/ ٤٢٤.

الاحتمالات الواردة أن هذا الروح المتمثل لها كان روح نبينا. ولكن هذا ليس شيئاً قطعياً. وما لم تتقو الاحتمالات بالأدلة فهي تبقى مجرد احتمالات لا غير.

﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣]

هناك بعض التعابير يستعملها كل إنسان -حسب تقييمه الخاص- في المسائل التي يراها خطيرة وكبيرة ومهمة جداً. فمثلا هناك دعاء لأبي بكر الصديق ﷺ -وإن كان ضعيفاً من حيث علم الحديث- يطلب فيه من الله تعالى أن يجعل جسمه ضخماً إلى درجة بحيث تمتلئ به جهنم فلا يبقى هناك مكان لغيره.

أو مثلما يقول بديع الزمان النورسي: "لو شاهدت سلامة إيمان أمتي، فإنني أرضى أن أحترق في نار جهنم لأنه بينما يحترق جسدي فإن قلبي سيمتلئ سعادة وحبوراً".[١]

مثل هذه المسائل تصبح عندهم فكراً وشعوراً. ولما كانت العفة لدى مريم عليها السلام قد أصبحت فكراً وشعوراً قويين فقد آلمتها الإشاعات والأقاويل التي قيلت في حقها ألماً كبيراً حتى تمنت لو أنها ماتت وأصبحت نسياً منسياً.

أجل!... لقد كانت مثالاً للعفة ولم تكن تستطيع تحمل أن يرميها أحد بزهرة فكيف وهي تتعرض للافتراء على شرفها وعفتها!!. لذا تمنت هذه الأمنية وهي في خضم الثواني الأولى من الهزة العنيفة التي جابهتها والتي لم تستطع آنذاك أن تستعين بمنطقها في تخفيف وقع هذه الهزة عليها، كما لو كان لقاء الله تعالى ضمن تلك الأمنية ونتيجة لها.

والحقيقة أن مثل هذه الأقوال كقول أبي بكر الصديق ﷺ وهو يشاهد طائراً على شجرة انه يتمنى لو كان هو مثل هذه الثمرة التي ينقرها هذا

---

(١) السيرة الذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.

الطائر، وقول عمر بن الخطاب ﷺ وهو ينظر إلى قشة أخذها في يده أنه كان يتمنى أن يكون تلك القشة، وقول آخر بأنه كان يتمنى لو كان شجرة يقطعها الناس... هذه الأقوال ليست إلا أقوالاً قيلت في لحظات يشعر فيها قائلها أنه واقع تحت ضغوط هائلة لم يعد قادراً على تحملها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]

هؤلاء المؤمنون العاملون للصالحات سيكونون هم المحبوبين من قبل الإنس والجن والملائكة، حتى وإن لم يعملوا شيئاً من أجل كسب حب الناس لهم.

الفعل في اللغة العربية يفيد التجدد ويدل عليه و﴿آمَنُوا﴾ فعل. إذن فالمؤمنون بعد إيمانهم لا يعرفون الركود، بل يجددون أنفسهم وإيمانهم على الدوام بكشف جديد وفكر جديد وتأمل جديد، فيتوجهون على الدوام إلى آفاق جديدة ومتقدمة. ولا يكتفون بهذا بل ﴿وَعَمِلُوا﴾ أي يعملون ما يوافق إيمانهم هذا. أي يقضون أعمارهم في عمل الصالحات. إذن فهؤلاء الناس المؤمنون ثم العاملون ما يرضاه وما يريده ربهم منهم سيفوزون أولا بحب الله تعالى ثم بحب الناس، أي ﴿سَيَجْعَل لَهُم الرّحْمَنُ وُدّاً﴾. والحديث الآتي يوضح هذا الأمر إيضاحاً تاماً، حيث يقول الرسول ﷺ: "إذا أَحَبَّ اللهُ العَبدَ نادى جبريلَ إنّ اللهَ يحبُّ فلاناً فأَحْبِبْه فَيحبُّه جبريل فيُنادي جبريل في أهل السماء إنّ اللهَ يُحِبُّ فلَاناً فأحِبُّوه فيُحَبُّه أهلُ السماء ثمّ يُوضعُ له القَبولُ في الأرض". (١)

والحقيقة أن الحب يبدأ دائماً منه ثم يتدلى منه إلى السماء ثم إلى الأرض ويحيط بـــهما. ويكون هذا إما بخلق الله تعالى وسائل المحبة أولاً ويبنى عليها المحبة. أو يحبهم أولاً -لما سيكونون عليه في المستقبل- كأجرة عاجلة، ثم ييسر أمام قلوبهم الاتجاه نحو الخير ونحو الجمال ونحو الحسنات. وفي كلا

(١) البخاري، بدء الخلق ٦؛ الأدب ٤١؛ التوحيد ٣٣؛ مسلم، البر ١٥٧؛ الترمذي، تفسير سورة مريم (١٩).

الأمرين نرى أنّ الأساس هو النية الصالحة، وأن النبع الأساسي هو المودة الإلهية.

واليوم وإن كان الحديث عن مثل هذا الإنعام زعماً مشكوكاً فيه، إلا أن جنود الإيمان الذين يقدمون خدماتهم في العديد من بلدان العالم[1] يستحقون هذا الإنعام، وهو بالنسبة لهم عين الحقيقة. ولو تم تدقيق حسن القبول التي يتمتع بها جنود الخدمة هؤلاء في مختلف بلدان العالم لما شَكَّ أحدٌ في كوني محقاً في وصفهم. كيف لا وأنفاسهم تتردد من سهول آسيا الوسطى إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ومن أوروبا إلى شمالي أفريقيا وإلى الباسفيك واستراليا. إن المستقبل كفيل بالحكم على هذه الخدمات التي يحققها هؤلاءِ الجنود من ناحية الكم ومن ناحية الكيف باسم امتنا ولصالح الإنسانية أيضاً. ولو قمت بتقويم أمرهم من ناحية إنتشارهم الجغرافي فقط لما ملكت نفسك من قول: "لولا أن الله تعالى ألقى محبة هؤلاء في قلوب أهالي تلك البلدان لما قبلوهم هذا القبول الحسن".

إن أصدقاءكم هؤلاء وفي هذا العهد العصيب المليئ بالكوارث المتتابعة والمشاكل المتتالية تمسكوا بدينهم و لم يعلموا لهم غاية سوى خدمة هذا الدين ونظموا حياتهم وفقها. فهم عند قيامهم وقعودهم، وعند تنـــزههم وتجولهم أو عند أكلهم وشربهم يقولون: "يا رب!... كيف أستطيع نيل رضاك؟!" ويفكرون في هذا على الدوام. لذا فالعديد من أمثال هؤلاء بمستوياتهم ودرجاتهم المختلفة... برجالهم ونسائهم... بشبابهم وكهولهم وشيوخهم عندما اجتمعوا واتحدوا حول فكر واحد ونشاط واحد، أي حسب تعبير الآية الكريمة عندما آمنوا وعملوا الصالحات أنعم الله تعالى عليهم بحسن القبول في الدنيا. وشخصيا لا أستطيع سوى تقويم هذا التفسير حول وصول

---

(١) يقوم الذين استفادوا من محاضرات وكتب المؤلف بوظيفة التعليم والتثقيف والإرشاد في المدارس العديدة التي فتحوها في أكثر من مائتيَ بلد في العالم.. وإلى هذا يشير المؤلف. (المترجم)

هؤلاء إلى هذا المستوى من مستويات الخدمة الإيمانية في ظل كل هذه العوائق التي يحفل بها هذا العهد. وأقول والشعور بنعمة الله وفضله يحيط بقلبي وجوارحي: "كل هذه النعم منك وحدك يا إلهي!"... أقول هذا وأنحني بخشوع.

يقول الله تعالى في تكملة هذه الآية: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ (مريم: ٩٧).

حيث يذكر تيسيراً تحف به الأسرار. ولو قمنا بتقويم المسألة ضمن سياقها وسباقها، نرى أن القرآن يتحدث عن أمر يتصف بالصعوبة... أجل!... إن التبشير صعب، والإنذار صعب، والأصعب منهما هو النفوذ إلى القلوب. وعندما تكون الشروط والظروف غير موافية وغير ملائمة، ويكون القادرون على الأمر والقائمون به قلة عند ذلك تبلغ الصعوبة درجة الاستحالة؛ لأن تحريك شيء راكد، وتحويل أمر سلبي إلى أمر إيجابي يحتاج إلى بذل طاقة كبيرة. فعند تحريك طائرة، يصبح التحريك الهدف الوحيد، وعند تشغيل السيارة تطفأ المصابيح والراديو والمسجل لتجنب أي ضياع للطاقة. ولكن بعد أن تطير الطائرة، وبعد أن تشتغل السيارة وتتحرك يعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي ويتحرك كل شيء بانسيابية. وهكذا الأمر بالنسبة للخدمة الإيمانية -على اختلاف مدارسها ومفاهيمها- فمع أن المرحلة الأولى تتطلب جهوداً شاقّة، إلا أن الأمور ما أن تبدأ بالجريان في سياقها الطبيعي حتى تبدأ ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الدائرة الخيرة" -ضد "الدائرة المفرغة"- أي الدائرة الولودة هذا ما نشاهده الآن كل يوم في العديد من وجوه خدماتنا الإيمانية. وهو ما تذكره آية قرآنية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩).

أجل إن هذه الخدمات الإيمانية المقدمة اليوم، وأصحاب هذه الخدمات الذين نالوا شرف الدخول ضمن دائرة الرضا الإلهي من الأفراد والجماعات

والأمم والدول سيأخذون طبعاً نصيبهم من هذا التيسير، بل نالوه فعلاً. ولو دققنا التاريخ من هذه الزاوية لرأينا ألف دليل ودليل على هذا. فمن عهد الراشدين إلى الدولة الأموية والدولة العباسية ثم الدولة السلجوقية والدولة العثمانية، إلى هذا العهد الذي تبدو فيه بشائر البعث من جديد يمكننا رؤية أمثلة عديدة على أصحاب هذه الخدمة.

كما يمكننا النظر إلى هذا الموضوع من منطلق آخر، فالله تعالى يقول في سورة الليل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل: ٥-٧).

إذن فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى -نتيجة للفطرة السليمة التي يحملها المرء- كلها أمور ضمن الأعمال الصالحة، وكلها تؤدي إلى تيسير الأمور وتسهيلها. وهذا هو ما يعمله أصدقاؤنا الآن. فهم يعملون ليل نهار، وقد تركوا منازلهم وهاجروا إلى أواسط آسيا أو إلى مناطق أخرى في العالم غير آبهين بالضيق المادي، وحاضرين حتى للتضحية بالفيوضات المعنوية. فلا نبالغ إن قلنا بأن أمثال هؤلاء يكونون مظهراً للـ"ودّ" المذكور في الآية. لأن إيفاء حقّ الخدمات التي تصدوا لها وحملوها -على أحسن وجه ودون أي نقص- ليس شيئاً هيّناً. ولكني أظن أن أصدقاءنا هؤلاء قد عدوا ما يقومون به -والذي يبدو للغير أنه في غاية الصعوبة- جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، لذا تراهم مشغولين به ليل نهار، في قيامهم وقعودهم... في حركاتهم وفي سكناتهم. إذن فلتكن نفوسنا فداءً لصاحب الفضل والمنة الذي يسر لهم الصعب، وهوّن عليهم الشاق.

سورة طه

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ [طه: ١٣]

إن اختيار موسى عليه السلام للنبوة في بني إسرائيل مرتبة مشرفة لا يمكن الوصول إليها من جهة، وامتحان من جهة أخرى. ونال هذا المنصب الرفيع السامي مكافأة مقدمة وأجرة عاجلة على عزمه القوي وشجاعته وإقدامه في المستقبل، وعلى شعور تام بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه ولتواضعه وصدقه وإخلاصه ووقوفه بجانب الحق على الدوام مما خلد هذا الرأسمال الأخروي. فقد نشأ موسى عليه السلام في قصر فرعون كالأمراء تحوطه العناية والاهتمام ويلقى الاحترام والتبجيل.لذا فإن رجوع مثل هذا الشخص إلى الناس الذين كان فرعون يحتقرهم ويعدهم عبيدا له بل لا يتورع عن قتلهم بكل بساطة، ثم التمازج والائتلاف معهم ليس شيئا هينا على النفس أبدا، بل مشكلة كبيرة استطاع موسى عليه السلام تجاوزها، ووصل من هذه الزاوية الإنسانية –التي لم يستطعها أحد سوى أشخاص بعدد أصابع اليد الواحدة– إلى الذروة. وهذه الماهية والصورة الإنسانية التي كان يتمتع بها كانت ضمن أسباب الاختيار للنبوة "وأنا اخترتك" ومن بين أسباب المدح الإلهي له.

لم يكن هذا الاختيار من قبل بطانة القصر ولا من قبل بني إسرائيل، بل كان انتخاباً سماوياً من قبل الله تعالى، ليكون أهلاً للخطاب الإلهي وممثلاً له أولاً، ثم ليؤسس عالماً جديداً تحت رعاية عالم الغيب وإشرافه. ولهذا ذكرت الآية الكريمة ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾. فبجانب المدح واللطف الإلهي هناك توجيه وفتح باب لتشكيل أمة بناء على تلك الهمة الفردية العالية ومتناسبا معها.

في هذا الخطاب نرى أن الانتخاب والاختيار متداخل مع التنبيه للمسؤولية، ومع بشارة الاختيار نرى التذكير بالمسؤولية. وعندما يكون الكلام هو كلام الحق تعالى، والمخاطب هو النبي الكليم يكون من الطبيعي وصول العبارة إلى مثل هذا الظرف واللطف.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤]

يبلغ الله تعالى نبيه هنا بأسلوب يليق بالنبي بأن الداعي إلى الله يجب أن يبلغ دعوته بأسلوب لين حتى ولو كان من يدعوه من الذين سدوا على قلوبهم سبل الهداية والإيمان من أمثال فرعون ونمرود وشدّاد. وهنا يوجد أيضا أمر مهم آخر وهو إن كان هذا القول اللين قد أصبح وصفا وسمة أصلية عند الداعي والمبلِّغ وممتزجا مع أفكاره ومشاعره تماما كان هذا سببا في زيادة تأثيره على الناس وعلى من يدعوه. ولو سلك مسلكا مغايرا لهذا فلا بد من حدوث العديد من المشاكل ومن حالات الفشل. أي إن لم يكن القول اللين ممتزجا في فطرة الداعي والمرشد وفي خلقه الأصيل، ولا يعيش هذا الخلق بشكل طبيعي فإن طبيعته الأصلية ستطفو على السطح -عاجلا كان أم آجلا- عندما يتعرض لأي إثارة، وعندئذ يخرب كل ما بناه من قبل، أي يتحول التعمير إلى تخريب. والذين يتعرضون لغضبه وحدته سيبتعدون عن الفكرة التي يمثلها وعن دعوته.

لذا فجعل القول اللين طبيعة وفطرة مهم جدا، ولن يتحقق هذا إلا بالحال اللين، والسلوك اللين والقلب اللين.

ولكن إن كان الموضوع هو "البغض في الله"، فأنتم حتى ولو شعرتم بالامتعاض نحو أحدهم عليكم أن توجهوا هذا الامتعاض نحو الصفات، على أن تحرصوا على اللين والرقة ولا سيما في أثناء وظيفة الدعوة. ولا تنسوا بأنكم عندما تقومون بدعوة شخص متمرد وقاسي القلب إلى الهداية تكسبون الأجر سواء اهتدى ذلك الشخص أم لم يهتد.

ثم إن الله تعالى يوصي هنا ويأمر بذهاب شخصين إلى فرعون، وهذا إشارة إلى أن بعض الأعمال تُنجز بشكل أفضل في حالة التعاون الجماعي ولا سيما عند مجلس من يدعي العظمة والكبرياء. فهذا يفيد في الإسناد المعنوي وفي معاونة أحدهما للآخر من جهة، ومن جهة أخرى تتم هنا عملية الإشهاد أيضاً. وهو مهم في التخلص من القلق والشعور بالوحدة الظاهرية أيضاً.

وتوصية النبي باستعمال الكلام الليّن –حتى مع كون الشخص المخاطَب متمرّدًا غاية التمرد– تنبيهٌ عليه بعدم تغيير هذا الأسلوب –المتوافق مع الفطرة ومع الطبيعة الخلقية له– لأسباب عارضة، ودعوةٌ بسلوك سبيل نـزيه مع شخص لم يتعود على سماع الكلام الخشن أو الجارح لكي لا يدفعه هذا إلى النفور والبعد. وقد كان هذا الأسلوب اللين والخطاب اللين أوجب لموسى عليه السلام فهو قد نشأ وترعرع عندهم ولهم عليه فضل، لذا كان عليه –اعترافاً بفضلهم– خطابهم بكل رفق ورقة وهو يقوم بواجبه السماوي هذا ولا سيما وهو يريد تذكيرهم بالآخرة وبالحياة الأبدية. وربما كان استعمال هذا الأسلوب الرقيق هو السبب في أن الآية انتهت بـ ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤). فمع أن بعضهم كأفراد لا يرعوون ولا يهتدون، إلا أن هناك أملاً في هدايتهم على مستوى النوع.

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه: ٥٨ - ٥٩]

كم من الأسرار والأنوار تشع إلى قلوبنا من هذه الآيات المتعلقة بسيدنا موسى عليه السلام كليم الله. فقد عاش أولا حادثة محفوفة بالأسرار في الطور. فقد شاهد هناك عصاه وهي تنقلب إلى حية تسعى، ويده وهي تصبح بيضاء للناظرين. فأصبح أفق اليقين الواقعي عنده متطابقا مع أفق اليقين الكامن عند هذا النبي العظيم الذي كانت ثقته ويقينه بربه كاملا. لقد أصبح يقينا كاملا بأنه مهما فعل سحرة فرعون فإنه سيغلبهم ويهزمهم. لذا كان ينظر بالفطنة الخاصة بالأنبياء إلى المسألة هكذا ويحلها بالشكل الآتي:

١- إن هذا الموضوع من القيام بإحقاق الحق وإبطال الباطل يجب ألا يتم خلف أبواب مغلقة، بل أمام كل الناس يحضره ويراه جميع أهالي مصر بسهولة مكانا سوى.

٢- يجب اختيار يوم عيد ومناسبة احتفال، لكي يستطيع جميع الناس الذين يكونون في عطلة آنذاك من حضور هذا المكان.

٣- وأنسب وقت لهذا التجمع هو وقت الضحى، ففيه يكون الجميع قد تخلصوا من حالة النعاس، ويكونون في نشاط ويقظة ويستطيعون إصدار حكم صحيح آنذاك.

وهكذا وفي وقت الضحى جاء المصريون أفواجاً إلى مكان اللقاء ليشاهدوا السباق الذي سيجري بين السحرة وبين موسى عليه السلام. كان السحر في ذلك

العهد مهنة محترمة ذات مستوى عال. لم يكن هؤلاء السحرة أناساً بسطاء أو عاديين. كانوا أشخاصا متصلين بالجن يأخذون منهم الأخبار، ويعرفون تحضير الأرواح ويجوز انهم كانوا يعرفون بعض المبادئ الأولية والبدائية للبراسايكولوجي. أي كانوا يعدون من الطبقة المثقفة في ذلك العهد. لذا فإن هزيمتهم أمام النبي موسى عليه السلام ثم إيمانهم به بعد ذلك كان يُعد آنذاك بمثابة انقلاب في معسكر الإيمان. وهذا هو ما حدث بالضبط. فالسحرة الذين أدركوا وأيقنوا تماما بأن ما جرى على يد موسى عليه السلام لم يكن من أعمال السحر أعلنوا إيمانهم أمام الملأ وأمام جميع الأنظار على الرغم من قيام فرعون بتهديدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وبعد إيمان العامة وجمهور الناس -عدا أناساً من المتعصبين- الذين شاهدوا إيمان السحرة بموسى وتسليمهم له، وانتشار الشك والتردد بين الباقين، كان المقصود قد حصل وتم. لقد انــــهدم الكفر الصراح والكفر البواح. لقد أصبح الناس في وضع يستطيعون الاختيار بين موسى عليه السلام وبين فرعون.

والشيء الأساسي الذي نريد الوقوف عنده في تحليلنا لهذه الآية هو موضوع المكان والزمان اللذين اختارهما موسى عليه السلام لهذا التحدي المهم. ويستطيع المسلمون اليوم استخلاص دروس وعبر مهمة من هذه الحادثة. فالمؤمن يجب ألا يقع في التشاؤم وهو يرى الإمكانيات المحدودة لديه. وعليه أن يستعمل ما أعطاه الله من فضل استعمالا حكيما وألا يستعمله دون حساب. أي يقوم بـــ"ضرب عصفورين بحجر واحد" كما يقال في المثل الدارج. أجل! على المسلم أن يخطط على الدوام ويبرمج كيف يضرب بحجر واحد مئات العصافير، مثلما نرى في العديد من الإجراءات الربانية. فكما نحصل من بذرة واحدة نبذرها في الحقل على سبع، أو سبعين أو سبعمائة من البذور، علينا أن نخطط في كل خدمة نريد تحقيقها في سبيل الإيمان وفي سبيل الملة للحصول على سبع، أو سبعين أو سبعمائة ضعف. وهذا هو ما فعله موسى عليه السلام. فحسب ثقته بالله وتوكله عليه، لم يشأ أن يفعل ما فعله

أمام أنظار فرعون وهامان فقط وخلف أبواب مغلقة، بل اختار مكاناً ووقتاً مناسبين وأمام أنظار الناس جميعاً. فاستطاع بذلك أن يسحب وراءه الآلاف، ومئات الآلاف.

وبينما يذكرنا القرآن الكريم بكل هذا، تقوم السنة النبوية بتعميق هذا الموضوع بمثال آخر،[1] فقد بين النبي ﷺ أنه أريد قتل غلام لم يدخل في دين أحد الملوك. ألقوه من فوق قمة جبل عال، فرجع إليهم ماشياً. أرادوا أن يغرقوه في اليم فتخلص من أمواج البحر العاتية ورجع إليهم سالماً. ومهما حاولوا قتله فلم يفلحوا وتخلص الغلام في كل مرة. وأخيراً "فقال الغلامُ للملكِ إنّك لا تقتُلني حتّى تصلبني وترميني وتقولَ إذا رميتني "بسمِ اللَّهِ ربِّ هَذَا الغُلامِ". قال فأمَر به فصُلبَ ثُمّ رماهُ فقال "بسمِ الله ربِّ هَذَا الغلام". قال فوضعَ الغلامُ يدهُ عَلَى صدغهِ حين رُميَ ثُمّ ماتَ، فقال أناسٌ "لقدْ علمَ هذا الغلامُ علماً ما علمَهُ أحدٌ فإنَّا نؤمنُ بربِّ هَذَا الغلامِ". قال فقيلَ للملكِ "أجزعتَ أنْ خالفكَ ثلاثةٌ فهَذَا العالَمُ كُلُّهمْ قدْ خالفوكَ". قَالَ فخدَّ أخدوداً ثُمَّ ألقى فيهَا الحطبَ والنَّار ثُمَّ جمعَ الناسَ فقال "منْ رجَعَ عَن دينهِ تركناهُ ومنْ لمْ يرجعْ ألقيناهُ في هَذِهِ النَّارِ". فجعلَ يلقيهمْ في تلكَ الأخدودِ".[2] هذا هو المنطق الصحيح للإيمان، فهو سيموت لا محالة في نهاية المطاف، إذن فعندما يذهب إلى الطرف الآخر، عليه ألا يذهب بشكل رخيص ودون مقابل. هذا هو الموضوع. منطق العمل في سبيل الله حتى في الرمق الأخير وهو على أعتاب اللقاء بالله. فإن قمنا بتقييم الموضوع من هذه الزاوية، رأينا أن مثل هذا التفكير والتخطيط يسبق ويتجاوز حتى الرغبة في الشهادة -مع كونها مرتبة عالية-، أي أن الإنسان يستطيع إفادة ملته ووطنه ودينه بخدمات -في عمقها الأخروي أيضاً- قد تتجاوز مرتبة الشهادة نفسها. وعليه أن يفكر على الدوام في الطرق التي يستطيع فيها الحصول على مثل هذا

(١) مسلم، الزهد ٧٣.

(٢) الترمذي، تفسير القرآن، تفسير سورة ٧٦.

الكسب. ومثل هذا العمل قد يسبق الشهادة نفسها على ما أظن. أجل كان الغلام سينال مرتبة لو مات عند إلقائه من الجبل أو عند غرقه في البحر، ولكنه كان يكسب شيئاً واحداً فقط، كان يكسب مرتبة الشهادة في حياته الأخروية. أما في الشكل الآخر من الموت في سبيل الله وأمام أعين الناس بالكيفية التي شرحناها سابقاً فإنه أصبح وسيلة لإيمان مئات الناس.

لذا كان على الإنسان، ولا سيما المسلم أن يعرف قدر نفسه وكم هو مخلوق وكائن ثمين، وأن هذا الكون الهائل مخلوق من أجله، وأن كل شيء مسخر من أجله، لذا فعندما يرحل من هنا، عليه ألا يرحل بشكل رخيص، وأن يقول في نفسه: حسناً أنا راحل، ولكن هذه الدنيا التي أخلفها ورائي لابد وأن تصل من بعدي إلى الخط وإلى الأفق المتوافق مع سر الخلق، وعلى الموت أن ينقلب إلى مفتاح سحري بحيث عندما ينطفئ ضوء صغير يلتمع بدلا منه المئات بل الآلاف من الأضواء القوية.

سورة الأنبياء

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الأنبياء: ١٠]

يبين الله تعالى مخاطباً الأوائل الذين أنـــزل إليهم الكتاب، ثم الذين من بعدهم عن طريق الدلالة والإشارة إلى أنه أنـــزل إليهم كتابا فيه شرفهم ورفعتهم، ويذكرهم بهذا بصيغة تأكيدية ليوجههم إلى آفاق الشكر والحمد.

نستطيع ذكر ما يرد للخاطر من هذا الذكر:

١- التذكير بالوسائل الحقة وبالوسائل الصحيحة كالأوامر والنواهي المتوجهة لأهداف حقة. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

٢- قد يكون الذكر بمعنى الوعظ والنصيحة لأن "الدين النصيحة" كما جاء في الحديث الشريف الشامل الذي يشير إلى هذا الخصوص. والآية الكريمة في سورة الذاريات تؤيد هذا ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

٣- في غياب الأمم المحيطة بكم عن مسرح التاريخ بعد استكمال أعمارها الطبيعية واستهلاكها، فإنكم مرشحون -بفضل هذا الذكر النازل عليكم- للبقاء طوال التاريخ، ﴿أَوَلَم يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِه﴾ (الرعد: ٤١). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧)

ففي هاتين الآيتين إيماءتان إلى هذا.

٤- وهذه الآية الكريمة تشير لمخاطبيها آنذاك بالوضع الذي سيتبوأونه في المستقبل وتقول إنكم ستشغلون في المستقبل موقعا مشرفا لن تستطيع أمة أخرى بلوغه؛ وإن هذا القرآن سيحفظ لسانكم ولغتكم من الضياع والسقوط، ويبقى مرجعا لكل من يريد فهم دينه. ونجد هذا المعنى في كلمة "ذكركم". وهي كلمة لا تفيد معنى الموعظة فحسب، بل تشمل أيضاً معنى بقاءِ ذكركم وعدم نسيانه، وعدم زواله.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

هذه الآية بخصوص النبي يونس عليه السلام. وحسب روايات عديدة فإن هذا النبي الكريم -بعد أن آمن قومه- رأى بعض آيات البلاء التي أهلكت كثيرا من الأمم السابقة وإشارات قدومها فترك بلدته قبل أن يتلقى أمرا واضحا من الله تعالى. ولأن هذا العمل يعد -بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى- من أمثاله هفوة فقد ألقى إلى البحر نتيجة قدر إلهي مخطط ومدبر، وابتلعه الحوت. وبعد أن انقطعت الأسباب كلها ولم يعد لها أي تأثير، توجه يونس عليه السلام بإدراكه النبوي إلى مسبب الأسباب كلها... توجه إليه وبدأ يدعوه ويسأله. والقرآن يخبرنا عنه فيقول ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ﴾، لا شريك لك ولا شبيه، وكل ما يجري في العالم يجري بأمرك وبإذنك... لقد قذفت في البحر بإذنك، ولن يكون خلاصي إلا بإذنك وبأمرك وبمشيئتك ﴿سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالمين﴾.

والحقيقة أن كل نبي صدرت منه هفوة أو زلة سرعان ما كان يتوب أو يؤوب إلى الله ويستغفره. فهذا آدم عليه السلام يقول هو وزوجه: ﴿قَالاَ رَبّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣). وقال موسى عليه السلام متضرعاً: ﴿رَبّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي﴾ (القصص: ٢٨).

ولا أعلم شيئاً في هذا الخصوص عن نبينا الكريم ﷺ. ولكن هناك دعاء علمه ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه استعمل فيه الكلمات نفسها: "اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً".(١)

(١) البخاري، الأذان ١٤٩؛ التوحيد ٩؛ الدعوات ١٦؛ مسلم، الذكر ٤٧-٤٨؛ حدود ٢٣؛ ابن ماجه، الدعاء ٢؛ الترمذي، الدعوات ٩٦؛ النسائي، السهو ٥٩.

إذا تناولنا هذه الآية مرة ثانية نراها تعلن عظمة الله ووحدانيته بكل قوة "لاَ إِلَهَ إلاّ أنْتَ".

وبعد غياب الأسباب كلها وزوالها نرى أنّ يونس ﷺ أيضًا ينبذ هذه الأسباب تماما، وهذا شئ مهم جداً. والحقيقة انه عندما لا تنفع الأسباب يتوجه كل إنسان -شاء أم أبى- إلى الله وحده وهذا هو المعنى الذي تشير إليه الآية ﴿سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِين﴾ (الأنبياء: ٨٧).

هنا يتركز الموضوع حول الاعتراف بعجز الإنسان وبظلمه، ثم التوجه إلى الله وطلب رحمته وشفقته. والحقيقة أن أفضل طريق لجلب رحمة الله ومغفرته هو اعتراف الإنسان بتقصيره، وهذا هو طريق الأنبياء العظام عليهم السلام.

وهنا أمر أشار إليه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو كون جملة "لا اله إلا أنت" جملة مشيرة إلى مستقبلنا. أجل! فلو تناولنا الموضوع ضمن قاعدة "الانطباق مع مقتضى الحال"، فإن الله تعالى وحده هو الذي يستطيع أن ينقذنا -سواءِ على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع- من الظلام إلى النور وأن يوصلنا إلى شاطئ السلامة. ويكون هذا بشعار "لا إله إلا أنت" الذي يحتوي على جميع أنواع التوحيد.

ولكن يجب هنا الإشارة إلى أمر آخر. وهو أن النبي يونس ﷺ نادى "لا اله إلا أنت" بسبب الظرف الخاص المحيط به. أما نحن فنقول "لا اله إلا الله" بدلا من "لا اله إلا أنت" بسبب الظروف المحيطة بنا.

ويحسن كذاك الإشارة إلى الأمور الآتية، وهي أن دعاء النبي يونس ﷺ وتضرعه وقع وتحقق في جوف الليل فهناك ظلمات عديدة كما في آية ﴿اَللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وآية ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٧). فهناك عدة ظلمات هنا عند الابتعاد عن النور. ولكن الظلمة الأولى التي تعرض لها النبي يونس ﷺ هي زلته التي

ضببت عالمه الداخلي، ثم كانت هناك الظلمة الحقيقية لليل وظلمة ووحشة بطن الحوت... أي ظلمات عديدة.

وقبل أن يتعرض النبي يونس عليه السلام لهذه المحنة كان -وهو النبي العارف بالله- عارفا بالتوحيد العميق التجريدي، وكان يعني بتضرعه "سبحانك". يا رب! إنني التجئ إليك وأنا مدرك ومعلن حق ألوهيتك وحكمتها ومقتضى هذه الحكمة، وأعلن عن عجزي وضعفي تجاهك.

أما قوله ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمينَ﴾ فليس سوى عد الأنبياء العظام للهفوات الصغيرة الصادرة منهم أموراً جساماً، وهو مثل قول: "هذه حالي وأنت أدرى بها". وهو مثل قول شاعر كبير:

حاجتي كبيرة   وأنت أعلم بها

صمتي كلام ناطق   وهو خطابي الحقيقي

لمثل هذا النبي المختار، ولمثل هذا التضرع المختار جاء الجواب من وراء السماوات: ﴿وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ﴾ (الأنبياء: ٨٨).

اللّهم كما نجيته فنجنّا من الغمّ بحرمة من أرسلته رحمة للعالمين، وصلى الله عليه وعلى آله أجمعين.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]

إنّ ورود المشركين مع ما كانوا يعبدون من آلهة نارَ جهنم، ودخولهما معاً فيها، وتلاومهما هناك بإلقاء أحدهما اللوم على الآخر، تصويرٌ لعجز هذه الآلهة المزعومة وإنعدام قدرتـــها على النفع أو الضر كلٌّ هذا من التنبيه والتحذير من الوقوع في هذه العذابات الوجدانية العديدة المتداخلة إحداها بالأخرى، تأتي نذر هذه الآية.

وتعبير حصب جهنم -أي حطب جهنم- هنا إلى جانب كونه للإشارة إلى أن المعبودين من دون الله سيتحولون إلى مادة حارقة في جهنم يحترق فيها كل شيء إشارة إلى أن عبادة الأوثان والأصنام خطيئة لا يمكن أن تُغتفر، وأن هذه المعبودات تكون نفسها عين العذاب، وأنهم لا يستطيعون الخلاص من هذا العذاب المحيط بهم.

وكم هو أليم للإنسان -الذي جعله الله أشرف المخلوقات من ناحية الخلق الأولي وما جهزه من قابليات- أن يكون أصماً أبكماً أعمى وأن يشترك في العذاب مع معبودين عاجزين لا يملكون حولا ولا قوة.

ويستعمل فعل "وَرَدَ" في العربية بمعنى أتى وبلغ الماء. وهنا يرد إلى الخاطر صورة أشخاص بيدهم دلاء[١] الماء. واسم الفاعل لهذا الفعل هو "وارد". ولكن عندما نقارن هذا المعنى مع ما جاء في الآية نجد أن الآية لم تستعمل هذا الفعل بهذا المعنى. إذن فهنا نجد تهكما وسخرية. وهذا يشبه ما جاء في

(١) دلاء: جمع "دلو" وهو ما يستقى به. (المترجم)

آية ﴿فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١).[1] أجل كان على هؤلاء أن يأتوا في الدنيا وبيدهم دلاء الماء ليستقوا من فيض الحقيقة المحمدية ومن منهلها العذب، ولكنهم لم يفعلوا هذا ولم يستفيدوا من تلك الفرصة، فكانت خاتمتهم هذه الخاتمة الأليمة. ونفس المحتوى نجده في آية ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١).

إن ذكر كلمة "وَرَدَ" هنا يشير إلى الفرصة الثمينة التي أضاعوها والتي قلبت الماءَ العذب إلى عذاب، وللتعبير عن مشاعر الحسرة والألم.

وقد تكون آية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ جواباً لمن يخطر على باله بأن نار جهنم لن تحرقه. فتقول هذه الآية بأنكم بالنسبة للنار التي ستحرقكم مثل حطب جهنم، فتعطي لهم درسا وعبرة وتضاعف من حسراتــــهم.

---

(١) لأن البشارة تكون في الأمور السارة والمفرحة. (المترجم)

سورة الحج

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]

في القرآن الكريم هناك آيات عديدة في هذا الموضوع. أجل!... إن الله تعالى يمتحن المؤمن والمنافق والكافر على الدوام ليظهر الفروق الموجودة في عالمهم الداخلي. يمتحنهم بالمصائب والبلايا المختلفة وبالتجارب القلبية والوجدانية، بل حتى بالأمور المتعلقة بالخير، ويطلعهم على قيمهم الذاتية. من الثابت من تجارب عديدة بأن العديدين -حتى من المضحين في سبيل الله والمخلصين- تنتابهم أزمات مادية، وقد تبور تجارتهم، ويتعرضون إلى هزات مختلفة في حياتهم. وليس هذا سوى امتحان من قبل الله تعالى لذلك العبد. ولا يعني هذا أبدا أن الله تعالى وهو الغني المطلق سيتخلى عن الذين يحاولون بكل إخلاص وتضحية إعلاء كلمته ويتركهم وحدهم لينسحقوا في هذه الحياة. ولكن الله البارئ الذي له حكم عديدة في كل عمل يقوم به، والذي هو منزه عن العبث يجرب عبده ليظهر في سلوكه وأمام وجدانه مدى إخلاصه ومدى ارتباطه به. ويحتمل أن بعضهم سيخسر هذا الامتحان فيخسر هذه الدنيا ويخسر الآخرة كذلك. وهذا هو ما يطلق القرآن الكريم عليه وصف "الخسران المبين".

والذين يخسرون هذا الامتحان فيخسرون تبعا لذلك الدنيا والآخرة هم

المنافقون في الأكثر. فهؤلاء لم يستطيعوا الوصول إلى وحدة بين اللسان والقلب، أي لم يصلوا إلى الإيمان الكامل، فهم يلوكون بعض كلمات الإيمان بأفواههم، وينظرون إلى آيات الله من طرف أعينهم. لا يكونون موجودين في مركز الدين من ناحية العمل بل في أطرافه، يحاولون تمشية الأمور، بعيدون عن الاستفادة الحقة من جميع إيجابيات الإيمان. وفي بعض الأحيان عندما تبدو أن هناك مسؤوليات وأعباءَ أو أضراراً وخسائرَ تبدو في الأفق في الظاهر، نراهم وقد أخذوا جميعَ الاحتياطات والتدابير للابتعاد والهرب، لذا فهم يقفون على الدوام على هامش العمل الإيماني وفي زاوية منه وقد أخذوا أهبتهم واستعدوا للنكوص على الأعقاب.

وفي موقفهم الحذر هذا يخططون للاستفادة من كل شيء يحصل عليه المسلمون. وعندما يجدون ما يأملونه يتشبثون به ويعضون عليه بالنواجذ، ويظهرون في غاية الأمن والاطمئنان. أما إن كان هناك امتحان وابتلاء فسرعان ما ينقلبون على أعقابهم.

ليس كل المؤمنين يتحلون بجميع صفات المؤمن -ليتهم كانوا كذلك- فبعض المؤمنين يبقون تحت تأثير بعض صفات المنافقين. إذ قد يرغب هؤلاء أن تتجه الرياح حسبما يشتهون وأن تمطر السماء في الوقت الذي يحلو لهم، وأن يجري قدر هذا الكون حسب ما يهوون! وكما وجد أمثال هؤلاء في العهد الإسلامي الأول الحاملين لمثل هذه الآمال الصبيانية، والذين حولوا وجوههم عن الإسلام عندما لم يتحقق ما كانوا يشتهون، كذلك لا مفر من وجود أمثال هؤلاء حاليا، وهذا هو السبب في معظم الانحرافات الداخلية الحاصلة حاليا عندما تكون الأهواء موجودة في بعض النفوس.

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨)

سورة النور

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]

الله تعالى هو الذي أظهر الوجود للعيان، وأخرج الكون بوجهه الحالي إلى الوجود وجعله معرضا أمام الأبصار وكتابا يُقرأ، وهو الذي أعطى النور للأبصار والانشراح للقلوب. بدون نوره لا تبصر العيون، ولا تدرك البصائر، وتختلط الأوهام بالعلوم والفرضيات بالحقائق، وينقلب الوجود كله إلى فوضي لا معنى لها، فلا تحصل هناك فلسفة علوم في الأدمغة، ولا ضياء معرفة في الصدور.

لا يمكن التوصل من نقطة اللقاء بين الآفـــاق والأنفس من العلم إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى الإحساس العميق بالعبودية إلا بالله تعالى نـــور السماوات والأرض ونور من في السماوات والأرض، منور الأنوار.

بهذا النور يتحقق وجود الشمس أو الشموس في السماء، والألوان وصور الجمال على الأرض، وتنمو البصيرة والإدراك في القلوب، والمعرفة والمحبة والعشق والشوق، والتفكير والتحليل والمنطق في العقل وفي الدماغ. والذين يهتدون إلى الحقيقة عن طريق الاستدلال يهتدون بفضل هذا النور.

بفضل هذا النور يبصر الإنسان الألوان والتناسب بينها، والتناغم الموجود بين جميع الأشياء، ويدرك الشعر الموجود داخل هذا التناغم، ثم يحول هذا في قالب علم ومعرفة إلى القلب. وتقوم البصيرة بضم هذه العلوم الجزئية

معا، أو تقوم بإعادة تحليل وتركيب هذه المعلومات الكلية ليحولها إلى معرفة. إن الانتساب إلى الحق، والنظر إلى كل شيء بنور الله ومعرفته، يحول حقيقة الإنسان -الذي كان قطرة من ماء مهين- إلى بحر، ويحول معرفة الإنسان من ذرة إلى شمس، ويحول قلب الإنسان -الذي هو شيء لا يذكر- إلى نبض للكون. وفي مقابل عدم استطاعة الإنسان أن يحيط بأمسه وغده ببصره، بل حتى بكل أبعاد حاضره ويومه، يستطيع ببصيرته أن يدرك نفسه وكل الأشياء المحسوسة جزءً وكلاً. يدرك الأشياء ويدرك حقيقتها ودلالاتها وحقيقتها ثم حقيقة الحقائق وهو ربه تعالى بالإيماءات والإشارات الصادرة من قبله... يدركها ويحسها حسب درجة اليقين عنده، ويدخل في علاقة عبودية مع ربه.

والسبيل إلى تفادي الالتباس في هذا الإدراك العقلي، أو هذه المعرفة التي يمكن أن نطلق عليها اسم البصيرة الوجدانية هي القيام في أثناء السياحة بين الأدلة والإشارات والمؤشرين -علاوة على إلقاء نظرات جانبية على الوجود وعلى الحوادث- بالتوجه نحو منور الأنوار ومصور الأنوار، لكي تستطيع العلوم أن تنقلب إلى معارف، ولكي لا تلتبس على الإنسان مشاعره. والسبيل إلى التوجه والنظر إلى نور الأنوار هو النظر إلى القرآن الكريم الذي هو شمس الشموس ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (النساء: ١٧٤) وإلى مشكاة النبوة لسيد الأنبياء والرسل التي هي قمر أدمغتنا وشمس وجداننا ونظير الشمس والقمر في السماء ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ (الفرقان: ٦١).

أجل!... إن لم نأخذ النور الإلهي بنظر الاعتبار تحول الكون وكل ما فيه إلى ظلام. أما إن أخذناه بنظر الاعتبار تنورت جميع الأشياء -المنظورة منها وغير المنظورة- وبدت بوجهها المشرق وبماهيتها الحقيقية.

والخلاصة أن كل شيء من نوره هو، ومن تجلي هذا النور تكون كل شيء نما وتطور... النور المطلق نوره وحده. وإسناد النور لغيره إما مجاز عند

الخواص، أو جهل من العوام. فإن لم يدرك الجميع هذا فبسبب ظهوره الشديد في الوجدان دون كيف أو كم، وبسبب تجليه الباهر. أجل!... كما يمكن أن يكون الغيب بابا مهما للعلم والإحاطة، كذلك يمكن أن يؤدي التجلي الباهر والشديد إلى منفذ للخفاء.

إن الله نور السماوات والأرض. وجميع الأشياء ليست سوى التجليات المختلفة للأمواج المختلفة من ذلك النور، وألبسها لباس الوجود الخارجي.

وأود كذلك جلب أنظاركم إلى بعض نواحي هذه الآية. بعضهم لا يميز الفرق بين النور وبين الضوء. ثم يقول إن سرعة الضوء معلومة فما هي سرعة النور؟. وأود هنا التأكيد على وجوب عدم الخلط بين النور وبين الضياء. فالله تعالى لا يقول بأنه ضياء السماوات والأرض. إذن فلفهم النور علينا الاقتراب من منبعه ومصدره، ومصدر النور هو الله. والله تعالى منـــزه عن الزمان والمكان. إذن يجب تقييم النور جزئيا من هذه الزاوية. يمكن أن يوجد النور والأشياء النورانية في اللحظة نفسها في مليون مكان، وأن ينتقل في لحظة سيالة من هنا إلى هناك. لذا استطاع رسولنا -الذي تحول جسده الطاهر إلى وضع استطاع فيه مرافقة روحه الذي تحول إلى حالة نورانية- إتمام معراجه في دقائق معدودة والقفول راجعا. بينما كانت هذه السفرة تحتاج في الظروف الاعتيادية إلى تريليون مضروب في تريليون من السنوات. بينما تخبرنا الروايات الصحيحة أن رسولنا ﷺ ذهب ثم رجع وكان فراشه لا يزال دافئا. أي كأنه تم هنا تجاوز الزمن في هذه السياحة.

ويجب ألا يفهم من كلامنا هذا بأننا نقول بأن النور المذكور في هذه الآية مخلوق. ولكي لا أدع مجالا لهذا الفهم الخاطئ استعملت كلمة: "كأن" عن قصد. أجل!... إن الأنوار الأخرى مخلوقة وخالقها هو الله تعالى منور الأنوار.

ونستطيع في هذا الضوء ذكر الحديث النبوي: "أول ما خلق الله

نوري"[1] أي أن النواة الأولى التي قذفت إلى رحم الوجود كانت النور المحمدي.

والخلاصة يجب ألا نخلط بين النور وبين الضوء. يجوز أن منبع الضوء هو النور، وأن الضوء هو تجلي النور في الدنيا، والنور يملك تجليات كثيرة من الثرى إلى الثريا.

اللهم يا منور النور، يا مصور النور، يا مقدر النور! نوّر قلوبنا وحواسنا بنور معرفتك، وأيدنا بروح من عندك. وصل اللهم على سيدنا محمد الذي جعلته قمراً منيراً وعلى آله وأصحابه الذين اقتدَوا به شبراً بشبر.

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ١/٢٦٥-٢٦٦.

سورة الشعراء

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]

كان أصحاب موسى عليه السلام ينظرون إلى الموضوع من زاوية مادية، وعندما كان يخاطبهم، كان يأخذ هذا بنظر الاعتبار. أجل!... كانت النظرة المادية غالبة على هذه الجماعة، فعقولهم كانت محصورة في مجال ما يرونه ويشاهدونه فقط، ومقفولة عن العالم الميتافيزيقي. لذا فجماعة لها هذه الخواص والصفات كانت محتاجة لتعليم وتدريب وفي حاجة لجهد كبير لكي تستطيع تبني طريق النبوة في التفكير. لذا اختار موسى عليه السلام طوال حياته مثل هذا السبيل. فبذل غاية جهده دون كلل أو ملل. وهذه الآية الكريمة تبين هذه الخصيصة لليهود. ففي أثناء تعقب فرعون وجيشه لهم فرق أمامهم البحر بمعجزة باهرة ليقطعوا البحر بأمان. ولكن اليهود حتى في هذه الأثناء تناسوا هذه المعجزة الإلهية الباهرة فقالوا بأنـــهم مدركون، أي سيصل إليهم جيش فرعون، فقال لهم موسى عليه السلام الكلام الذي يجب أن يقال: ﴿كَلاَّ إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

يجري القاضي البيضاوي في تفسيره عند تحليل هذه الآية مقارنة بين موسى عليه السلام وبين محمد ﷺ، فيقول إن موسى عليه السلام قال في لحظة اقتراب الخطر ﴿إنَّ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، أي عبر بصيغة المستقبل. بينما قال رسولنا محمد ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يطمئنه عندما كانا في الغار واقترب المشركون منهما: ﴿لاَ

تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠). فأظهر الرسول الكريم ﷺ ثقته التي لا تعرف الحدود بالله تعالى.

لا شك أن الفرق بين خطاب موسى عليه السلام لقومه وبين خطاب رسولنا ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يعود جزء منه إلى الفرق في موضوع التوكل والتفويض والتسليم بين من خاطبهم موسى عليه السلام وبين من خاطبه رسولنا ﷺ. فلا شك في وجود فرق كبير بين شخص وصل إلى درجة الصديقين، فكان يقبل ويسلم بكل جملة تصدر من فم الرسول ﷺ دون أي تردد، وبين قوم كانوا يناقشون رسولهم ويجادلونه في كل أمر وفي كل شأن.

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٥]

كان إبراهيم عليه السلام شخصا يدرك تمام الإدراك النعم التي أسبغها عليه ربه وألطاف ربه اللانهائية. فمثل صاحب هذا الإدراك السامي كان يعلم أن كل شيء من الله تعالى، فهو الذي يطعم ويسقي ويعطي القدرة على الكلام. أي هو وحده الحاكم المطلق وليس غيره. وإذا كان صاحب مثل هذا الإدراك يدعو فيقول ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ فلا بد بأن الله تعالى هو الذي ألهمه مثل هذا الدعاء. أي كان الله هو لسانه الناطق، وهو الذي أنطقه بهذا الدعاء، ثم هو الذي قبل هذا الدعاء. ولو لم يكن يريد قبول هذا الدعاء لما ألهمه إياه. أجل!... نقول إنه قبل هذا الدعاء، والدليل على هذا أن المسلمين يذكرونه على الدوام ويدعون له في صلواتــــهم.

هنا أمر مهم آخر وهو: كما هو معلوم فإن الأنبياء عندما يتوفون لا يتركون وراءهم أموالا وأملاكا للورثة. دعوتهم هي ميراثهم. وكان إبراهيم عليه السلام الذي وصلت إليه سلسلة النبوة (والذي غير أشياء كثيرة في عهده، أي كان نبيا مجددا ومصلحا كبيرا) يرغب بهمته الكبيرة أن ينفتح على الإنسانية جمعاء. وقد تحققت أمنيته هذه كنتيجة طبيعية لقبول دعائه. أي تحول إبراهيم عليه السلام نتيجة عيشه حياة النفي مرتين مهمتين في حياته إلى ظل وارف للإنسانية. ففي الخط الذي بدأ بابنه اسحق عليه السلام وصل إلى المسيح عليه السلام، وفي الخط الذي بدأ بابنه إسماعيل عليه السلام وصل إلى نبينا محمد ﷺ. وكان في كلا الخطين قدوة وأسوة للجميع. وكان اسمه وذكراه على لسان كل نبي من هؤلاء الأنبياء. ومع أن رسولنا ﷺ كان خاتم الأنبياء والرسل، إلا أن ذكرى إبراهيم عليه السلام استمرت. وكما ذكرنا أعلاه فإن حب إبراهيم عليه السلام

الذي أشربت به قلوب المسلمين بتوجيه وتعليم من الرســـول ﷺ جعل المسلمين يذكرونه على الدوام في أدعيتهم في الصلاة. ويحتمل أن إبراهيم عليه السلام سيكون من ورثة جنة النعيم نتيجة هذه الأدعية والصلوات.

وأمر أخير نود ذكره. إن المهمة التي يقوم الأنبياء بإنجازها، والدعوة التي يقومون بتبليغها ليست مجرد فكر أو مجرد هدف سام، أو مجرد غاية يسعون لتحقيقها. فهذه الأمور تبقى ثانوية جدا تجاه الدعوة العظيمة التي يمثلونها. والأنبياء الذين هم موظفون الهيون –ولا سيما إبراهيم عليه السلام– لم يكونوا يرغبون في انتهاء دعوتهم بوفاتهم، بل كانوا يدعون أن تعيش هذه الدعوة إلى الأبد. ومن هذا المنطلق يحتمل أن إبراهيم عليه السلام أراد أن تذكره الأجيال القادمة بالخير.

أما دعاؤه ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنّةِ النّعِيم﴾ فهو لكي يبين بأنه على الرغم من كونه وسيلة لأنبياء عظام ساروا على هذا الصراط المستقيم، وعلى الرغم من كونه مرشداً ودليلا لهذا الصراط المستقيم، فهو يطلب دعاء الأنبياء الذين جاءوا من صلبه ودعاء ورثة هؤلاء الأنبياء، لأنه يعلم وجوب انتظار كل شيء وكل الآمال من مسبب الأسباب، وأن الجنة لطف من الله تعالى وإنعام منه ولا تستحصل بالأعمال، بل بالرحمة الواسعة لله تعالى ونتيجة الطلب والدعاء المستمر. وهذا أمر مهم يجب التأكيد عليه.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢﴾ [الشعراء: ١٤٢]

خطاب الأنبياء لأقوامهم الكفار بأهم "إخواهم" ليس مقتصرا على النبي صالح عليه السلام. فالخطاب نفسه يرد عند أنبياء آخرين مثل هود وشعيب ونوح ولوط عليهم السلام. فعلى الرغم من كون هؤلاء الأنبياء مرسلين من تلك القبائل وظاهرين من بينها،فهم لم يكونوا منهم من ناحية التفكير والشعور أو القرابة.

يحتمل أن مثل هذا التعبير في الخطاب كان من أجل إظهار عاطفة الشفقة التي تكنها هذه القبائل لهؤلاء الأنبياء الذين ظهروا من بينها، وإظهار الزاوية التي كان الأنبياء ينظرون منها إلى هؤلاء. وإلا لم يكن النبي صالح عليه السلام من هؤلاء الكفار لا من ناحية القرابة والدم ولا من ناحية الأخوة في الدين.

ولكنه كان من ناحية الإنسانية فردا منهم وكان من ناحية الشفقة عليهم كأنه أخ لهم. وكان قومه يعرفونه عن قرب ويعرفون أمانته وصدقه وعفته واتجاه تفكيره، فكانوا يعدونه فردا قريبا منهم، وكأخ لهم.

كان يمكن أن يخاطبهم بـــ: "الأب والوالد أو الخال أو الجد"، ولكن مثل هذا الخطاب قد يظهر نوعا من التعظيم لهم، كما لا يملك الدفء الذي يملكه خطاب "الأخ".

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾

[الشعراء: ٢١٩]

"تَقَلّبَ" من باب "تَفَعَّلَ"، وهذا يشير إلى تكلف شيء وبذل الجهد فيه. أي قيام الإنسان في أمر ما ببذل ما يستطيع وبالإصرار عليه. وهذه هي الصيغة التي يرسمها الله تعالى في وصف سجود رسوله الكريم ﷺ. أي أن الرسول ﷺ كان يبذل غاية ما في وسعه لإظهار عبوديته لربه وهو ساجد أي وهو أقرب ما يكون إليه، ويكاد أن يذوب في سجوده. ولكن هناك أمر تجب الإشارة إليه، وهو إن لم يكن هناك شعور قلبي غامر فلا يمكن الوصول إلى مثل هذه الذرى أبدًا. ومن لا يملك مثل هذا الشعور فتظاهره بالخشوع في السجود ليس إلا رياء.

أجل!... إن هذا الشعور القلبي وهذه المعنويات مهمة جدا ولا سيما في موضوع العبودية لله. فعلى المؤمن أن يتوجه إلى الله في كل أمر بكامل الزهد وبكامل التقوى وبكامل الإخلاص. وأن يكون هذا التوجه الغاية الوحيدة له، على ألا يفهم من هذا ترك الدنيا واعتزالها. فبينما يتم التوجه لتعمير الدنيا وجعلها جَنّة من جانب، كذلك يجب توجيه القلوب إلى الحبّ الإلهي من جانب آخر حتى يجعل من نفحة الإيمان إكسيرًا للحياة. أي بينما تعمر الدنيا وتنظم، يتم التوجه إلى الله لنيل رضاه وفتح باب الوصول إليه على مصراعيه.

وأليس هذا هو ما يقوله القرآن الكريم عندما يذكر: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ اللهِ﴾ (البقرة: ١١٥). وأنا أرى أن هذه الآية مهمة جداً وذات معان عميقة في وصف الوضع العام للمؤمن الكامل، وفي عكس مقاييس علاقة المؤمن بالله تعالى وارتباطه به. يقول الفقهاء بأن الإنسان عندما لا يعرف

جهة القبلة يسأل ويستفسر عنها ويحاول بإمكانياته العثور عليها. وتكون صلاته مقبولة في هذه الحالة حتى وإن صلى إلى جهة معاكسة للقبلة. ولكن ليس من الصحيح قصر معنى الآية على هذا فقط. فالإنسان في جميع أحواله: عندما يأكل وعندما يشرب... عندما يقوم وعندما ينام ... عندما يكون بين أهله... عندما يتنـــزه... في كل أحواله هذه عليه أن يكون متوجها لله تعالى مراقبا إياه، شاعراً به. أجل!... إن الآية تشير إلى هذه المعاني أيضاً.

والحقيقة إن على الإنسان أن يجدد نفسه في كل حين في علاقاته بربه، وتظل نفسه طرية على الدوام. صحيح إن الله تعالى منـــزه عن التجدد والتغير والتبدل، ولكن شعورنا به وعلاقتنا معه يجب أن تتجدّد على الدوام. كان القدماء يقولون عنه تعالى "منظور إليه"، والتجديد المطلوب هو من ناحية الناظرين إليه. وهذا التجديد تجديد من ناحية البحث المستمر عن التجليات الجديدة لهذا "المعبود بالحق" و"المقصود بالاستحقاق"، والتعرف عليه من جديد للوصول إلى أعماق إيمانية أخرى. نحن مضطرون لهذا، وإلا فليس من البعيد تعرض إيماننا للتعفن وللبِلى.

إذا رجعنا للآية الكريمة نقول بأن السجود الخاشع المتبتل يتناسب طردياً مع مقدار الحضور الإلهي في القلب وفي الفؤاد. فقلب الإنسان اللاهي عن الله مع كونه غارقا في نعمه، والقلب الذي لا يحمل مثقال ذرة من الشعور بالامتنان والشكر والحمد، لا يستطيع الاقتراب من مثل هذا السجود مرة واحدة في حياته كلها، أو يكون هذا صعباً جداً.

ثم إن قيام الرسول ﷺ بأداء وظيفة العبودية بعمق نتيجة لعمق شعوره بمراقبة الله تعالى له في قيامه وقعوده وحركاته وسكناته "الذي يراك حين تقوم" أجل!... فهو مع كونه ساجدا بخشوع، ولكنه من ناحية أخرى يقوم بتنفيذ وتطبيق أوامر الحق تعالى، أي هو في حالة قيام روحي. فهو يقوم للتهجد نصف الليل. وهو قائم أيضاً لتنفيذ وتطبيق أوامر الدين بكل وجد

وبكل طاعة وتسليم. وهو يقوم لتلبية الحاجات المادية والمعنوية للمؤمنين بكل إنابة وخضوع لمولاه. أي كان يعيش العبودية لله في كل حركاته وسكناته منتظراً أوامره ومطبقاً إياها. وعندما يسجد ويضع جبهته في مستوى قدميه يكون قد ارتفع إلى ذروة العبودية فهو القائل: "أقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ".[١]

---

(١) مسلم، الصلاة ٢١٥؛ النسائي، المواقيت ٣٥؛ الترمذي، الدعوات ١١٨.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾

[الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]

من أهم خصائص آيات القرآن الكريم هي أن الأشخاص الذين تستهدفهم الآيات مباشرةً، والأشخاص الذين تخاطبهم بصورة غير مباشرة مع كونهم مختلفين إلا أن كلا منهما يستطيع استخراج الدروس والعبر التي تختلف بالنسبة لكل منهما. فمثلاً نرى أن شعراء الجاهلية هم المخاطبون المباشرون بــهذه الآيات. وكان شعراء ذلك العهد الجاهلي يدعون أنهم يتصلون بالجن ويستطيعون الإخبار عن الغيب، ويتكلمون كلاماً سجعاً يسحرون به قلوب سامعيهم، أي كانوا يشبهون الوسطاء الروحيين في أيامنا هذه، وكانوا معروفين بمعارضتهم للقرآن. والقرآن عندما ذكر الشعراء في هذه الآية إنما كان يعني هؤلاء الشعراء الجاهليين. وأن وصف القرآن للتابعين لهؤلاء الشعراء والمتأثرين بهم بأنهم "غاوون" يشير إلى مدى انحراف هؤلاء الشعراء.

من جهة أخرى تخاطب هذه الآية بعض الشعراء في كل عهد وإن لم يكن بدرجة خطابه لشعراء العهد الجاهلي. فإن قومنا آية ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ضمن هذا الإطار نراها تشير إلى الذين أبعدوا الدين وكل ما يتعلق به عن حياتهم، واتخذوا أهواءهم أصناماً واتبعوا أمثال هؤلاء الشعراء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي أنـــهم يهملون المعنى والمحتوى والموضوع ويضعونه جانباً ويهيمون في الأودية المختلفة للنظم وللنثر تحت اسم وشعار الرومانسية مرة والواقعية مرة والفعلية مرة أخرى.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ أي أن الكذب ديدهم، وهم كالصيادين الكذابين الذين يفتخرون بأنهم صيادون جيدون وهم كاذبون. لأنهم يقولون مالا يفعلون. قد يدعون الأدب ويدعون كتابة الروايات، ولكنهم يكذبون على الدوام.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. هؤلاء مؤمنون بجانب كونهم شعراء. لذا فالذين يتبعون هؤلاء يشاركونهم نفس الشعور ونفس الإيمان. ولكون هؤلاء قد اتخذوا الخط القرآني منهاجاً لحياتهم، لذا لا ينحرفون ولا يهيمون في كل واد. ولكونهم يعدون قول ما لم يفعلوه من اكبر الذنوب عند الله تعالى لا يكذبون أبداً، ولا يضحون بالقيم التي يؤمنون بها على مذبح الأدب أو الشعر أو الرواية، لسبب كونهم مؤمنين. أي يمثلون الأمن والأمان في الدنيا، ويوحون بالثقة على الدوام؛ لأن القول والعمل عندهم ضمن إطار واحد ولا تناقض بينهما. ولم يكن ينتظر شيء آخر من هؤلاء الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، والذين إذا ما تعرضوا للظلم هم ينتصرون، ويستعملون حقهم في الدفاع عن أنفسهم.

وكما رأينا فإن من أهم شروط الاستفادة من القرآن قبوله رسالة عالمية لكل العصور، وقراءة كل إنسان له وكأنه يخاطبه. في هذه الحالة فقط يستطيع القرآن التعبير عن نفسه. ونستطيع نحن الاستفادة منه.

والخلاصة إن الشعر والنثر -كغيره من الأعمال ومن المهن الأخرى- يتجلى بشكل مختلف حسب اختلاف من يمثلونه. فبينما يقوم من آمن وعمل صالحاً بعكس أسس إيمانه في شعره ونثره ويهتف بالحق على الدوام، ولا يصرف قابلياته الفنية والأدبية في خيالات "فنطازية"، بل يستعملها

لإقامة الحق ومادة لبنائه، فقد ينتصر وقد يهزم ولكنه لا يتخلى أبداً عن مناصرة الحق. لقد كان الشعر والنثر والخطابة عند الخنساء وكعب بن زهير وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة –من الذين نصروا من قبل روح القدس– أداة مؤثرة، وسحراً حلالاً سحر الكثيرين واثر فيهم اكثر من تأثير السيوف القواطع. وبينما تكون صرخة مطلقة في سبيل الحق، أو مقالة تظهر الحقائق وسيلة من وسائل الانتصار للحق، يمكن أن يكون الشعر والنثر أداة لإلهاب الأهواء والنـــزوات. وأداة من أدوات الانحراف وتضليل الإنسان. فمثلاً قد يقوم يوماً أحد هؤلاء الأدباء بمدح الكرم، وفي اليوم الثاني يصفه بالتبذير، ومن يمدحه اليوم ويعلو به إلى السماء، يهاجمه غداً ويخسف به إلى تحت الأرض. تراهم مرة يصفون خيالاً باهتاً بأنه حقيقة باهرة أو تراهم يديرون ظهرهم للحقائق الساطعة ويصفونها بأنها مجموعة أوهام. عندما يتحدثون عن الجمال يثيرون الغرائز الجسدية، ولا يستطيعون رؤية الحسن المجرد. عندما يتحدثون عن الطبيعة يتحدثون عنها وكأنها خالق ومعبود. يتحدثون عن أمور لم تكن ولا يمكن أن تكون، ويستخدمون الأدب والفن وسيلة للكذب وللمبالغة وللديماغوغية. لذا فكل أحوالهم هذه ليست إلا أحوالاً شيطانية.

سورة النمل

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: ١٩]

هناك أهمية كبيرة للكلمات وللأفعال وللأساليب التي يختارها القرآن لبيان قصده وهدفه. فقد يأتي بمعان يحتاج بيانها إلى صفحات كما هو وارد في هذه الآيات. فمثلا تم استعمالُ فعل "أنعمت" هنا، ويقصد منه "إلهي! لقد وهبت لي نعما عديدة، وطوقت عنقي بإحسانك".

أي: "إلهي!... لم أبق سجيناً، في سجن العدم بل خرجت إلى الوجود... وجدت... لبست قالب الوجود ولباسه، وأصبحت مرآة مجلوة لك.. من يشاهدني، ومن ينظر إليّ يدرك أنني إشارة إليك، وعلامة منك... لقد أنعمت علي إذ رفعتني لهذا المستوى. وعندما وهبت لي الحياة يسرت لي إمكانية أوسع للأفصاح عنك. أصبحت أحياناً نايًا يئن، وأحياناً وتراً صادحاً، أو عوداً يرسل نغماته للإشارة إليك. ثم جعلتني إنساناً... ولم تكتف بهذا بل رفعتني وجعلتني إنساناً مؤمناً. فيسرت لي مشاهدة الوجود ومعرفته من زاوية النظرة الإنسانية، كمن يشاهد معرضاً، أو يقرأ صفحات هذا المعرض كمن يقرأ كتاباً مفتوحاً... لقد كان هذا تشريفاً كبيراً لي. أجل!... إن النظر إلى الكون مثل هذه النظرة لا يمكن أن تتم إلا بالقابليات والاستعدادات الخاصة بالإنسان... ربِّ!.. إن هذه النظرة التي أنعمت بها

عليّ جعلتني لا أتقيد بمكان، بل بتحريك قابلية التفكير أستطيع التجول في ساحات الذات والصفات والأسماء الحسنى، وفي تجولي في هذه الدائرة الواسعة أقف مبهوراً أمامك ومذهولاً".

أجل!.. كان سليمان عليه السلام يقصد كل هذا، "بل أكثر بكثير من هذه المعاني باعتبار مقامه الرفيع والسامي" عندما استعمل كلمة "أنعمت".

والأمر الثاني في هذا الصدد هو استعطاف النبي سليمان عليه السلام بفعل "أنعمت فكأنه يقول: "يا رب! إن ما سأطلبه بعد قليل ليس مغايراً لعادتك السبحانية، فكم من لطف تلطفت به علي دون أن أسألك إياه، لذا أعتقد بأنك ستعطيني ما أطلبه منك الآن لأنك قادر على العطاء وعلى الإجابة". وهو يحاول استدرار رحمته وشفقته. ولو قمنا بالتعبير عن هذا بأسلوب الإمام "آلوارلي أفه" لكان الطلب كما يأتي "ماذا يحدث يا رب لو استجبت؟... ماذا يحدث؟... لن ينقص منك شيء يا رب!". وبتعبير آخر: "لقد أعطيتني حتى الآن على الدوام... الهبة صفة من صفات مجدك. لذا لا أطلب منك شيئا خارج ما أعطيته ووهبته حتى الآن، بل أدعو فقط لإتمام نعمك".

في مثل هذا الدعاء كان نسيان أو إهمال الدعاء للوالدين جحوداً، وغفلة عن رؤية الأشياء التي أنعمها عليه بواسطتهما. أجل! كان النبي داود عليه السلام هو والد النبي سليمان عليه السلام، وكان نبيا وصل إلى الذروة ضمن خط النبي إبراهيم عليه السلام، ومظهرا للمدح الذي ذكره الله في القرآن حول بعض الأنبياء، وهو "إنه أواب". لقد وصل إلى هذا المقام الرفيع. أي كان من عباد الله الأجلاء المتوجهين بكل كيانهم نحو الله. ولو قيل له -من هذه الزاوية- إنه النبي "الأوّاه" لكان هذا في محله. لذا كان من غير المنتظر أبدا من النبي سليمان عليه السلام الذي جاء من صلب مثل هذا النبي ونشأ في حضنه أن ينسى أن لوالديه نصيبا في هذا المقام الذي وصل إليه. وإذا كان لنا أن نعبر بعبارة

أوضح لقلنا بأن سليمان عليه السلام كان يدرك أنه لو لم ينشأ في جو مثل هذه العائلة ولم ير تربية كتربية هذه العائلة لكان سليماناً اعتيادياً وفرداً كأفراد آخرين. لذا لم يهمل الدعاء لوالديه.

ويمكن الاقتراب من الموضوع هكذا أيضاً: إن الوالدين هما أقرب الناس إلى الإنسان، ولهما الأولوية في صلة الرحم. والقرآن الكريم يعلمنا هذا الأدب بالأدعية التي يختارها ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١).

إذن تأتي نفس الإنسان أولا ثم الوالدان. وهذا في الحقيقة شرط من شروط الإنسانية وشرط من شروط التزين بالصفات الإنسانية. والإنسان الحقيقي هو من يتلذذ بتلذذ الآخرين -حسب درجة قربهم منه- ويتألم لألمهم. فهذا شرط من شروط كونه إنسانا. تأملوا مثلا حال النبي إبراهيم عليه السلام فهو -كما ورد في الأحاديث- متألم من حال والده في الدنيا وفي الآخرة.[1] لذا نجد النبي سليمان عليه السلام يتبع جده الأمجد في هذا الأمر ويشرك والديه في دعائه وكأنه يقول: "إن سعادهم من سعادتي".

ونقطة أخرى، وهي كما أن استغفار الشخص لوالديه وارد -مثلما سجلنا في الدعاء أعلاه- كذلك يكون شكره للسعادة التي يصل إليها والداه وارداً. أي أن الإنسان إن لم يستطع إيفاء حق والديه في حياهما، فهناك شيء أخير يستطيع القيام به وهو استعمال لسانه في الخير في حقهما مثل: "اللهم اجعل لوالدي نصيبا من التسبيحات والحمد والاستغفار الذي أقوم به". ونبي مثل سليمان عليه السلام الذي كان يعرف حتى لغة الطير "وعلمنا منطق الطير" كان يستطيع إيفاء هذا الأمر حَقّه على أحسن وجه.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾: يجب أن ننظر إلى هذه الآية من زاوية مدى ثقة الأنبياء العظام بمصيرهم وعاقبتهم. إهم يخشون الله حق خشيته،

(١) البخاري، الأنبياء ٨.

ولكنهم مطمئنون من ناحية صيانتهم بالرحمة الإلهية. أو إنه قال هذا بإلهام من الله تعالى. والنبي سليمان عليه السلام يؤكد هنا بأن الوصول إلى رضا الله يكون بالعمل الصالح، لذا يدعو الله أن يوفقه للعمل الصالح. وهو يعلم بأن العمل الصالح سيولد عملا صالحا آخر في الغالب. ولكن هناك بعض الأعمال التي تبدو صالحة ولكنها لا توصل صاحبها على مقام الرضا الإلهي، ولا تستطيع ذلك أبدا.

والخلاصة أن سليمان عليه السلام عندما مر من وادي النملة وسمع كلام النملة وتبسم منه وشعر بسعة دائرة الإنعام الإلهي المهداة له قال ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فكان مثل النبي يوسف عليه السلام عندما اشتاق إلى لقاء الله وهو في ذروة المقامات المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة. وكذلك النبي سليمان عليه السلام الذي وصل إلى مقام النبوة وسخر له كل شيء من الإنسان إلى النمل... في هذه اللحظة توجه بكيانه كله إلى الله، ووسيلته في هذا التوجه هي الشكر الذي هو التعبير الجامع للعبودية، والعمل الصالح الذي يرضى عنه مولاه الحق ليدخله الله تعالى برحمته في عباده الصالحين. وقد عبر بهذا عن شوقه للقاء ربه.

إذا كان العمل الصالح هو العمل الذي أمر به الحق تعالى، وفي سبيله ومن أجله فقط، ولم يقصد منه سوى الدار الآخرة فهو العمل الذي طلبه يوسف عليه السلام وطلبه كذلك سليمان عليه السلام.

ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى عبادك المخلصين وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين وصلّ وسلم على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]

كلمة الضحك الواردة في الآية الكريمة لا تعني القهقهة بصوت عال، بل تفيد التبسم، أي ظهور خطوط تبسم على شفتيه لبرهة قصيرة من الوقت.

أولاً جرى حوار إعجازي بين النبي سليمان عليه السلام وبين النمل، وذلك بفضل ما وهبه الله تعالى من لطف ومرتبة عالية. لذا نراه يبتسم ابتسامة الشكر، للتعبير عن امتنانه لهذه النعمة. أي قام بالتحدث بنعم الله عليه.

ثانياً قامت النملة بواسطة بعض الإشارات والإشعارات للنبي سليمان عليه السلام ببيان فكرها حول تعيين الحدود النهائية للعدل وللتعامل بالحق فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

أي قالت هذه النملة لرفيقاتها: إن هؤلاء الناس قد يقومون بالإضرار بكم دون قصد أو تفكير منهم حسب الطبيعة المركبة فيهم. وتبسم سليمان عليه السلام بسبب هذا اللطف الإلهي الممنوح له، وفتح مثل هذا الباب أمامه. لأنه كان لطفاً خاصاً لنبوته. وكان هذا يقتضي منه شكراً حالاً وقولاً، وهذا ما قام به بتبسمه وبشكره.

ومثل هذا التبسم المعبر عن الرضا نجده في السيرة السنية لرسولنا ﷺ أيضاً. "عن أنس قال أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطبنا يوم جمعة إذ قام رجل فقال يا رسول الله هلك الكراع هلك الشاءُ فادع الله أن يسقينا، فمد ﷺ يديه ودعا. قال أنس وإن السماء لمثل الزجاجة فهاجت ريح ثم أنشأت سحابة ثم اجتمعت ثم أرسلت السماء عزاليها فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا فلم يزل المطر إلى الجمعة

الأخرى فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال يا رسول الله تهدمت البيوت فادع الله أن يحبسه فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال حوالينا ولا علينا فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل"(١) وفي رواية "رفع رسول الله ﷺ يديه بحذاء وجهه فقال: اللهم اسقنا"(٢) أي تبسم رسول الله ﷺ كعنوان شكر لله تعالى وكتصديق لرسالته وكونه نبيا مستجاب الدعوة.(٣)

وقد عبر عن كلتا الابتسامتين بـــ"الضحك". لم تكن هذه قهقهة من النبي سليمان عليه السلام، بل ابتسامة خفيفة بدت فوق شفتيه، ويجوز أن أحدا ممن كان حواليه لم ينتبه إليها.

ويمكن النظر إلى آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨) من زاوية أخرى وهي أن النملة تسجل وتقول بأن شخصاً في مستوى النبي سليمان عليه السلام ليس مكلفاً بإقامة العدل بين الناس فقط، بل عليه أن يعدل حتى مع النمل. وبينما تبين النملة صعوبة تحقيق الإنسان للعدل التام فيما بينهم تحذر طائفتها فتقول بأن وجودهم على طريق الجنود شيء محفوف بالمخاطر وبالتهلكة. بينما كان الهدهد الطائر فوق الرؤوس يخبر النبي سليمان عليه السلام عن ملكة سبأ وعن قومها وعبادتهم للشمس. ويبدي عجبه ودهشته من قيامهم بهذه العبادة قائلاً ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (النمل: ٢٥){س}، يتعجب من عبادتهم للشمس التي ليست سوى مخلوق من مخلوقات الله تعالى.

والشيء الذي يجلب النظر أن كلا من النملة والملكة بلقيس التي جاء الهدهد بخبرها... كلا منهما أنثى. والأنوثة رمز للخصب. وبجانب كون

(١) البخاري، المناقب ٢٢.

(٢) البخاري، الجمعة ٣٣.

(٣)البخاري، الاستسقاء ١٤؛ أبو داود، الاستسقاء ٢.

النملة إشارة إلى ملكة سبأ، فإن كثرة زوجات النبي سليمان عليه السلام واستهدافه كثرة الأبناء من أجل الجهاد وإعلاء كلمة الله أمر جدير بالوقوف عنده.

وأحسب هنا وجود إشارة إلى أن الإنسان الكامل يهتم بعالم الحيوان أيضاً. وقد يكون هذا مهما من زاوية أخرى. فلو كنا على صلة بعالم الحيوان وقدرنا إدراك بعض الحقائق المتعلقة بهذا العالم، لكان هناك الكثير من الحقائق التي كانت المخلوقات توصلها إلينا بلغتها الخاصة بها. وأنا أعتقد أن تسمية بعض سور القرآن بأسماء الحيوانات "مثل: النمل، النحل" إشارة إلى أهمية وجود العلاقة بين عالم الإنسان وعالم الحيوان. فلا بد أن لأحياء كالنمل والنحل -التي تعيش في نظام جمهوري- بعض الحقائق التي تستطيع إلهامها لنا. غير أن هذه العلاقة الدقيقة لا يمكن تحقيقها وشرحها إلا من قبل شُعُورٍ مُدْرِكٍ لإنسانٍ مؤمنٍ.

لقد بين الله تعالى في القرآن إمكانية تخاطب الإنسان مع حيوان تخاطباً مباشراً وتفاهمه معه بمعجزة نبوية. وأن لغة التخاطب هذه لغة فصيحة وبليغة وإنْ لم يتم استعمال الكلمات فيها، وأنها كافية لتكون وسيلة حوار مفتوح بينهما.

وقد يكون أحد أسباب تبسم النبي سليمان عليه السلام هو أن هذا التسخير بـ"القوة" قابل للانقلاب إلى تسخير بـ"الفعل"، وأنه سيتحقق عندما يأتي أوانه المناسب. الله أعلم بحقيقة الحال والصواب، وإليه المرجع والمآب...

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾

[النمل: ٤١]

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: "سنرى هل ستهتدي الملكة إلى الإيمان أم تبقى ضالة وبعيدة عن الهداية". وأنا أرى أن هذا غير منسجم مع سياق الآية. وتفسير الآية كما أرى هو: غيروا معالم عرشها لنرى هل ستعرف أنه عرشها أم لا".

ولكن كلمة "الهداية" هنا لا تعني مجرد معرفة بسيطة بأن المعروض أمامها هو عرشها. فالسياق لا يلائم هذا. فهل هذا العرش -الذي تعرض للتبديل- هو عرشها، أم عرش جديد؟... كان من الممكن أن يقوم النبي سليمان عليه السلام بقياس فطنتها بهذا الامتحان. ولكن الظاهر أن المسألة لم تكن محصورة في هذا فقط. تأملوا امرأة وثنية أو عابدة للشمس، وقد صنعت لنفسها عرشا وحسب عقيدتها. إذن فلا بد أن مثل هذه المرأة زينت عرشها بصور للشمس ولما تعبد من دون الله من نجوم أو قمر... الخ. وقام النبي سليمان عليه السلام بإجراء تغييرات وتبديلات وتزيينات تهيؤها للهداية وتقربها لها. ولا يذكر القرآن الكريم أن النبي سليمان عليه السلام أجرى زيادات أو نقصانا في عرشها وإنما قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾. فماذا نفهم من هذا؟ أنفهم أنه أمرهم بتغيير شكل عرشها أم تزيينه بإضافة بعض الزينات الإسلامية؟... نرى أن الاحتمال الثاني هو الأقوى، وهو إزالة كل ما يشير إلى الوثنية من صور وزينات. ثم الانتظار ومشاهدة عما إن كانت ستفهم الرسالة والإشارة الموجهة لها عندما ترى عرشها وتهتدي أم لا... وفي النتيجة نرى أن بلقيس عندما ترى عرشها تهتدي لكونها تملك فطرة سليمة وذات ذكاء وفطنة وفكر رحب. لأنها ما أن ترى عرشها لا تملك نفسها من العجب، وتفهم

الرسالة والإيماءة الموجودة هنا وتعلن هدايتها وإسلامها لرب العالمين.

لا شك أنها كانت بفطرة مهيأة لتلقي رسائل الوحدانية الموجودة في هذا الكون. ولكن ملكة سبأ هذه على الرغم من فطرتها السليمة وذكائها وبصيرتها لم تكن قد اهتدت من قبل، لأنها نشأت وترعرعت بين قوم وثنيين وتشربت بالعقائد الباطلة لقومها، مما كان حائل بينها وبين الهداية وتقييم رسائل التوحيد المبثوثة في العالم.

لا شك أن إحضار هذا العرش إلى هناك يعد معجزة لسليمان عليه السلام، وكرامة لفرد من أفراد أمته أوتي علماً لدُنّياً. وكانت هذه كافية لها للإيمان وللتصديق بالنبي سليمان عليه السلام. ولكن كان الأصل في الإيمان هو إعمال العقل واستخدامه والتفكر الآفاقي والأنفسي(*) والمشيئة الإلهية الخاصة. لقد كانت هذه هي وسائل الإيمان حتى ذلك اليوم، وما كان لها أن تتبدل في عهد النبي سليمان عليه السلام ولا من بعده.

اللهم صل وسلم وبارك على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى أصحابه والتابعين أجمعين.

(*) أي التفكر في الآفاق وفي الأنفس حسب ما ورد في القرآن الكريم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) (المترجم)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [النمل: ٤٥]

قيام القرآن بإيراد قصة ثمود بعد قصة سليمان ﷺ مباشرة قد تكون للأسباب الآتية:

١- إن العرب كانوا يعرفون قوم ثمود حق المعرفة.

٢- من المحتمل أنهم كانوا يعرفون مدى قوة قوم ثمود، وهذا جانب آخر له أهميته من حيث التأثير على قوم سليمان ﷺ.

٣- مثلما كان قوم "اورارتو" خلفاً لقوم إرم، فمن المحتمل أن قوم ثمود كانوا خلفاً لقوم سليمان ﷺ. لذا رجح القرآن ذكر أحدهما بعد ذكر الآخر.

٤- قد يكون التشابه بين خلقي القومين وتصرفاتهما وطبيعتهما سبباً في ذكرهما معاً.

ومع أن النـــزاع بين من يستجيبون للرسل عند قيامهم بدعوة الأمة وبين المنكرين لهم نـــزاع متكرر في التاريخ ﴿فَإِذَا هُمَا فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (النمل: ٤٥)، غير أنه يوجد هنا خط جامع بين تيار الضلال الكبير الذي ظهر بين الموسويين بعد سليمان ﷺ، وبين انحراف قوم ثمود وضلالهم. فمقابل نداء صالح ﷺ لقومه وقوله لهم: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ (النمل: ٤٦) كان جواب قومه ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ (النمل: ٤٧).. قالوا له هذا واستمروا في غيهم وفي ضلالهم. وهذا القول أو الزعم سبق وإن قيل للنبي موسى ﷺ في التاريخ الإسرائيلي ثم تكرر ضد العديد من الأنبياء والرسل منهم عيسى ﷺ أن قالوا له أيضاً: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ (يس: ١٨) وعدا هذا فهناك أيضاً وجوه تشابه عديدة ومشتركة بين هذه

الانحرافات المستندة إلى الطغيان والجبروت وإلى انتشار الظلم والتعسف، وطلب الخوارق والمعجزات، بل طلب رؤية الله تعالى عياناً.

والقرآن الكريم يورد ذكر هؤلاء الأقوام، من الذين عصوا رسلهم، قوماً من بعد قوم وبشكل متتالٍ في أكثر الأحيان وهذا الجزء من السورة مثال منه.

سورة القصص

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]

جاء في بعض روايات التفسير -استناداً إلى هذه الآية- أن قارون كان من أقرباء النبي موسى ، فقال بعضهم إنه كان ابن خاله، وقال بعضهم: كان ابن عمته. وقد تكون مثل هذه التفاسير، والبحث عن قرابة مع هذا النبي هو للتأكيد على أنه مع كونه بهذا القرب من النبي موسى فهو لم يستطع الاستفادة منه. والحقيقة أنه لا توجد أي إشارة لمثل هذه القرابة لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية.

إذن يجب البحث عن تفاسير أخرى:

يحتمل أن قارون كان من بني إسرائيل، لذا قال القرآن الكريم ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾. أو كان من بين الأمة التي وجه إليها موسى دعوته. أي كان ضمن من شملتهم دعوة موسى . وقد يكون -مثله مثل السامري- من الأشخاص الذين اهتم بهم النبي موسى ، ورآه ممن يجب بذل عناية خاصة به. ولكن قارون لم يستطع تقييم هذا الاهتمام ولا تقييم الثروة المعطاة له لكي يكسب بهما الجنة.

وتستمر الآية فتقول ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦). ولنقل من البداية بأن تعابير القرآن الكريم منـــزهة عن الكذب، وكذلك عن المبالغة التي تعد كذبا ضمنيا. إذن عندما نقوم بتصور هذه الحقيقة التي يعبر عنها القرآن، أي تصور كنوزه التي تنوء

العصبة أولي القوة من حمل مفاتحه ندرك ماذا تعني مثل هذه الثروة الطائلة.

إن كنوز قارون هذه كانت بمقادير تكفي لملء متاحف عديدة حاليا.

إن قارون تجاه هذه الثروة الطائلة التي وهبت له تجبر وتكبر وطغى واستعلى على قومه، لذا قال له بعضهم: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦). ولكنه لم يعبأ بهذا التنبيه بل استمر على انحرافه،ثم أجابهم متبجحاً: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨).

وليس هذا الوضع خاصا بقارون. فكم من شخص في التاريخ القديم وفي أيامنا الحالية أيضا قد أطغته الثروة والغنى وحرفته عن الطريق القويم، وهم يكررون نفس ما قاله قارون. لذا ليس من الصحيح تضييق إطار خطاب القرآن وحصره بقارون. وقال الذين كانوا يغبطون قارون على ثروته ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص: ٧٩).

ولكن عندما خسف الله بقارون وبداره الأرض:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص: ٨٢).

كان مصير قارون الذي لم يُغَيِّرْ سلوكه وينظمه كما يجب تجاه النعم المهداة له هو أن الله خسف به وبداره الأرض. ويرسم القرآن هذا الأمر بالمشهد الآتي:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١)

والحقيقة أن قارون قد أخطأ في ناحيتين:

الأولى: إنه انحرف إلى الغرور بسبب هذه النعم التي أنعمها الله عليه، واستعلى على الناس وعلى الله، وسقط في هوة الكبرياء والغرور وهو من

الصفات الحائلة بين المرء وبين الجنة. وفي مقابل دعوى الكبرياء والغرور عاقبه الله بخسف الأرض من تحته. وبتعبير آخر بينما كان قارون يعتقد بأنه هو صاحب هذه النعم المقدمة إليه، وأنه سيملكها إلى الأبد، خسف الله به الأرضَ. بينما كان من الأنسب له إبداء التواضع "من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله".(١)

الثانية: إنْ كَثُرَ في أي مجتمع قارون وأمثاله وَمَنْ على شاكلته، وسيطرت ذهنيتهم على المجتمع بدأت بوادر تمزق وتفتت في ذلك المجتمع. أي لو أصبحت ذهنية الذين يربحون ويكسبون الأموال الطائلة ولا يرون لأحد أي حق في هذه الأموال، ولا يحركون ساكنا إن مات غيرهم من الجوع، أي لو سادت فلسفة الأشخاص الأنانيين في المجتمع، وأصبحت هي التي تشكل طراز حياة الناس، ظهرت فروق هائلة بين طبقات المجتمع. ويمكن الوقوف عند الرأسمالية والشيوعية كأمثلة على مثل هذه الهوة الواسعة بين الطبقات. ففي أمثال هذه النظم كانت هناك في السابق وحاليا هوة واسعة بين طبقات الشعب، مما أدى ويؤدي إلى مآسٍ إنسانية كبيرة، وإلى مصائب. لذا فإن الله تعالى لكي يمنع من انتشار هذه العلة وهذا المرض وسريانه بين أفراد الشعب عاقب قارون بالخسف به وبداره الأرض لكي يكون عبرة لمن يأتي من بعده.

كما أن الله تعالى أراد أن ينبه الناس إلى أن الذين يهتمون بزينة هذه الحياة الدنيا وزخرفها يقعون في خطأ كبير، فإن مال الدنيا زائل، والله تعالى الذي وهب هذه الأموال وهذه الزينة يستطيع سحبها متى ما شاء. والخلاصة أن قارون كان يملك أمتعة كثيرة من الذهب والفضة، ولا يهم هنا عن أي طريق حصل عليها.وكانت خزائنه هذه موجودة في غرف عديدة ومتداخلة ولكل منها مفاتيح ومزاليج لجعلها محفوظة ومصانة جيدا. وهذه المفاتيح والمزاليج الكثيرة تشير إلى صفة الحرص والبخل عند قارون. ويجوز أنه حصل

---

(١) المسند للإمام أحمد، ٧٦/٣؛ ابن ماجه، الزهد ١٦.

على هذه الثروة الكبيرة عن طريق التنقيب عن الخزائن المطمورة سابقا والعائدة للملوك السابقين، أو عن طريق الربا. وهذه الثروة الكبيرة والفجائية التي حولها إلى سلطة ونفوذ كبيرين وإلى استخدام العبيد والحراس جعلته يطغى ويتكبر ويتجبر، لذا قال له بعض قومه: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٢٨/٧٩).

والسهولة التي حصل بها على هذه الثروة أو بخله وشحه أعمى بصره فلم ير لأي أحد حقا فيها. وكل التصرفات السلبية التي صدرت منه ترجع في الأساس إلى عمى البصيرة هذه، واعتقاده بأن الدنيا ستسعده وتشبعه وتكفيه. وما يطمئن للدنيا ويركن إليها إلا مَنْ كان قد فقد التوازن القلبي... وكان قارون أحد هؤلاء.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]

فهمت هذه الآية الكريمة من قبل الكثيرين على أنها تشير إلى طلب الدنيا على الدوام. ولكن من يعرف شيئا قليلا من اللغة العربية يعرف خطأ هذا الرأي. فمن يدقق في سياق الآية وبدايتها يرى المعنى الآتي:

تقول الآية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، أي اجعل كل ما أعطاك الله وسيلة للدار الآخرة. وفعل "وابتغ" هنا يعني شيئا أكثر من "واطلب"، لأنه يعني: اطلب واستعمل ما آتاك الله من قلب وحس وشعور وإدراك وصحة ومال وولد... الخ -بل وحتى كل استعداداتك الفعلية والكامنة- واستخدمها في طلب الدار الآخرة. ثم تأتي الآية ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ لموازنة المسألة. أجل علينا أن نضع الغد وما بعد الغد أمام أنظارنا على الدوام، وفي الوقت نفسه لا ننسى ما يعود للدنيا من أمور وأشياء. إذن فتناول الشق الثاني من الآية فقط وتوجيه الأنظار إلى الدنيا فقط وجعلها هي وحدها محور النشاط خطأ فاحش. لأن مثل هذا المعنى يتعارض مع الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (التوبة: ١١١). ومن يقل به يجعل القرآن كتابا ينقض بعضه بعضا والعياذ بالله.

ويمكن النظر إلى هذه الآية من زاوية أخرى: اطلبوا الدنيا حسب قيمتها، واطلبوا الآخرة حسب قيمتها. يمكن أن يكون هذا قاعدة من القواعد. إذن فالقرآن يعطي الإنسان بهذه الآية مقياسا، ويطلب منه استعماله.

أجل!... يجب فهم الآية بهذا المعنى. لأن الدنيا حسب القلوب المطمئنة

كيوم عرفات. والأيام الماضية للدنيا بالنسبة للعيد كيوم عرفات. أما العيد الحقيقي فوراء الأفق بل وراء وراء الأفق. لذا يجب المحافظة على هذا التوازن وصيانته، وعيش يوم عرفة حق عيشه. ومن يفقد يوم عرفة في الحج يستطيع إدراكه بعد عام واحد، ولكن من يفقد يوم عرفة الآخرة -عندما نشبه هذا اليوم بالحياة الدنيا- وفاته ذلك اليوم فلن يستطيع إدراكه مرة أخرى.

يقول رسول الله ﷺ في حديث له: "ما لي وما للدنيا. ما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح فتركها".(١)

ولو تأملنا لرأينا أن ترك الدنيا ونبذها تماما غير مطلوب كما أن اعتبارها كل شيء غير مطلوب كذلك. وفي حديث آخر: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء".(٢)

فما كان لكافر ينكر وجود الله وينكر يوم القيامة أن يتمتع بنعم الله تعالى. فهذا مغاير للعدل الإلهي. ولكن هناك عالم أبدي وراء هذا العالم، ومقابل العقاب الذي سيلاقونه هناك، لا يريد الله تعكير صفو حياتهم في هذه الدنيا ويتجلى برحمته عليهم فلا ينقص من سعادتهم شيئا هنا.

ونظرة الأستاذ سعيد النورسي للموضوع هي: "إن نتيجة الايمان بالله ومحبته سبحانه هي: رؤية جمال مقدس وكمال منـزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى.. هذه الرؤية التي تساوي ساعة منها ألف ألف سنة من نعيم الجنة..(٣) ذلك النعيم الذي ساعة منه تفوق ألف ألف سنة من حياة

---

(١) الترمذي، الزهد ٤٤؛ ابن ماجة، الزهد ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢٠١/١.

(٢) الترمذي، الزهد ١٣؛ ابن ماجة، الزهد ٣.

(٣) "فإن الله إذا صير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ليس ثم ليل ولا نهار قد علم الله عز وجل مقدار تلك الساعات فإذا كان يوم الجمعة في وقت الجمعة التي يخرج أهل الجمعة إلى جمعتهم قال فينادي مناد يا أهل الجنة اخرجوا إلى دار المزيد فيخرجون في كثبان المسك قال حذيفة والله لهو أشد بياضا من دقيقكم فإذا قعدوا وأخذ القوم مجالسهم بعث الله عليهم ريحا تدعى المثيرة فتثير عليهم المسك الأبيض فتدخله في ثيابهم وتخرجه من جيوبهم فالريح أعلم بذلك الطيب من امرأة أحدكم لو دفع إليها طيب أهل الدنيا ويقول الله عز وجل: أين

الدنيـــا الهنيئة، كما هو ثابت لدى أهل العلم والكشف بالاتفاق".[1]

هذه هي الحياة التي نطلبها ونسعى إليها. إذن فما قيمة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة لكي نوازن بينها وبين الآخرة؟. متوسط الحياة الدنيوية هو ستون عاما، يمضي ثلثه في النوم... فما قيمة مثل هذه الحياة؟ لذا فالخروج من هذا الإطار وإعطاء الحياة الدنيوية قيمة أكثر مما تستحق والقول: "هذه هي قيمة الحياة في الدنيا، وهذه هي قيمة الحياة في الآخرة" ليس إلا تعبيراً عن عدم فهمنا للنصوص.

وهناك إلتفاتة من قبل الأستاذ النورسي في هذا الموضوع لم أرها عند أحد غيره. فهو يقول إن للدنيا ثلاثة أوجه: الوجه الأول متوجه للأسماء الإلهية الحسنى، والثاني متوجه نحو أهواء الإنسان وشهواته. والوجه الثالث هو الوجه المتوجه نحو كسب الحياة الآخرة. وهي إلتفاتة عميقة.

إن جانب كون الدنيا مرآة مجلوة لتجلي الأسماء الإلهية يجعل الدنيا شيئا ثمينا جدا، بل يجعلها لا تقدر بثمن، ونحن نحب الدنيا من هذا الجانب، بل نعشقها. ولو لم تكن الدنيا مزرعة للآخرة لما كنا مرشحين للحياة الأخروية، وما كنا من أهلها، ولما كسبناها. والدنيا من هذا الوجه أيضا جنة وبستان. أما وجه الدنيا المطل على أهواء النفس وشهواتها، فهو أقبح من كل قبيح.

عبادي الذين أطاعوني بالغيب وصدقوا رسلي ولم يروني سلوني فهذا يوم المزيد فيجتمعون على كلمة واحدة إنا قد رضينا ويرجع إليهم في قوله لهم يا أهل الجنة لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي فهذا يوم المزيد فسلوني فيجتمعون على كلمة واحدة أرنا وجهك ننظر إليه قال فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب ويتجلى لهم تبارك وتعالى فيغشاهم من نوره لولا أن الله قضى أن لا يموتوا لا حترقوا ثم يقال لهم ارجعوا إلى منازلكم فيرجعون وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى فلا يزال النور يتمكن حتى يرجعوا إلى حالهم أو إلى منازلهم التي كانوا عليها فيقول لهم أزواجهم لقد خرجتم من عندنا بصورة ورجعتم إلينا بغيرها فيقولون تجلى لنا ربنا عز وجل فنظرنا إلى ما خفينا به عليكم قال فهم يتقلبون في مسك الجنة ونعيمها في كل سبعة أيام وهو يوم المزيد" (مسند البزار، ٧/٢٨٩-٢٩٠).

(١) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة الثانية والثلاثون، الإشارة التاسعة.

أي إن الإنسان إن كان متعلقا بأهواء نفسه ورغباتها، ونسي الآخرة لهذا السبب فالدنيا في هذه الحالة مذمومة.

هناك تقييم آخر للأستاذ النورسي حول الدنيا. فهو يقول: يجب ترك هذه الدنيا قلبياً وليس كسبياً. وهذا الذي يقوله النورسي يجعلنا نقترب أكثر لنرى عدم وجود أي خصام لنا مع الدنيا، ولا يمكن أن يكون. أجل إن عمل الإنسان وفق هذا الإطار استطاع أن يربح ويكسب مثل أهل الدنيا وإن كان غنياً مثل قارون... ولكن عندما تقتضي الضرورة عليه أن ينفق كُلَّ ما اكتسبه في سبيل الله، تماماً مثل ما فعل عبد الرحمن بن عوف حيث أنفق سبعمائة بعير مع أحمالها في سبيل الله. ولم يقل له الرسول شيئا ولم يعنفه أو يوبخه لغناه. ولكنه نبهه فقط حول وجوب إعطاء حق هذا الغنى ثم بشره وشوقه. هناك قصة رمزية حول النبي إبراهيم عليه السلام ورد فيها أن الملائكة قالت مستفسرة من رب العزة: يا رب أنت تقول عن إبراهيم عليه السلام إنه خليلك. ونحن نريد أن نعرف أتتلاءم وتتوافق الخلة مع الثروة والغنى؟ فقال لهم ربهم: اذهبوا وامتحنوه. فذهب الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام وهم في هيئة من أتى من سفر بعيد مضنٍ، وبملابس رثة وأخبروه أنهم جياع. فقام إبراهيم عليه السلام وذبح لهم شاة، وعندما قربها إليهم ومد الملائكة أيديهم ذكروا -بدلا من بسم الله- دعاءً خاصاً بالملائكة وهو: "سُبّوحٌ قدّوسٌ، رَبّ الملائكة والرُّوح"، ويسحر هذا التسبيح ذلك القلب المؤيد بالوحي إلى درجة يدفعه للتوسل إليهم: "ليكن ربع أغنامي لكم إن قمتم بتكرار هذا التسبيح". فكرر الملائكة، فقال إبراهيم عليه السلام: "ليكن لكم نصف أغنامي إن كررتم التسبيح"... وهكذا حتى يهب في المرة الرابعة جميع أغنامه لهم. إذن فالنبي إبراهيم عليه السلام -إن صدقت هذه الرواية- لم يكن تاركاً الدنيا كسباً، بل قلباً.

والحقيقة لا يمكن رؤية أي بيان صريح لسيد الأنبياء في ذم الغنى والمال والملك بالمعنى المطلق. صحيح هناك بعض الإستثناءات، ولكنها متعلقة

بالأوضاع الخاصة لبعض الأشخاص. فإن سُئل عن عدم غنى الرسول ﷺ فنقول إن رسول الله ﷺ جاء من عائلة فقيرة. ولو كان غنياً بعد أن أصبح نبياً وممثلاً لدعوة عظيمة وسامية لربما كان غناه هذا يلقي ظلا على دعوته. ويثار سؤال: "من أين لك هذا؟". وقد يؤدي هذا إلى اهتزاز ثقة أصحاب النيات الصافية. لذا رجح الرسول ﷺ -من زاوية دعوته بشكل إرادي، أو بجبر ولطف قدري- الفقر على الدوام... هذه هي زاوية النظر التي يجب أن ننظر من خلالها إلى الرسول ﷺ وإلى العلماء والأولياء والأصفياء الذين جاءوا من بعده.

والخلاصة أنه يجب ترك الدنيا قلبياً وليس كسبياً. يجب ألا تدخل الدنيا إلى قلوبنا وآلا تسكرنا، أو تعكر نظرنا، أو تنسينا الآخرة. فإن حققنا هذا ملكناها وحكمناها. وإلا حكمتنا الدنيا وعشنا حياة خالية من الشعور والإحساس، كل دقيقة فيها هباءٌ في هباء.

هناك أشياء كثيرة تقوي وتغذي إرادتنا للفوز في هذا الامتحان، ومن الضروري تماماً تحريكها وتشغيلها،وجعلها فعالة. فمثلاً معرفة الله عامل مهم جداً في تقوية الإرادة والإيمان. وإذا كان لنا أن نوضح هذا بمثل نقول: لنفرض أنك تريد أن تحيا حياة المترفين، وبدأت بترتيب أمورك على هذا الأساس، ثم دخلت في سعي محموم لرفع مستوى حياتك. في هذه الأثناء تسرع معرفة الله لنجدتك. هنا أود ذكر حادثة وقعت لأحدهم. ومن يدري فقد لا تجدون في ما سأذكره شيئاً موضوعياً. ومع ذلك فسأذكرها. صحب أحدهم هذا الشخص إلى بيته وجلسا في الشرفة المطلة على البحر. في تلك اللحظة وقعت في قلبه رغبة شديدة في العيش في مثل هذا المكان الجميل. ويشهد أصدقاؤه بأنه قام فجأة من مكانه، وغادر المكان عازفاً عن الجلوس في هذه الشرفة. لأن ذلك المنظر الجميل الخلاب غذى شعور طول الأمل عنده، وإلى توهم الأبدية والخلود، لذا تهب معرفة الله لنجدته وتذكره بأن

دقيقة واحدة من تأمل الجمال الإلهي يعادل آلاف السنوات من العيش السعيد في الجنة، وتخلصه من تلك الورطة.

لذا ففهم آية ﴿وَلاَ تَنْسَى نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ كما يريده البعض لا ينسجم مع المفهوم الكلي للقرآن الكريم. وأنا أرى أن الإنسان يجب أن يحس بالشوق للبقاء في الدنيا، ولكن بشرط العيش فيها حياة مليئة كحياة الأستاذ النورسي، وأن يكون مرتبطا بفكر ورغبة إيصال أمة محمد ﷺ إلى الكمالات الإنسانية. يجب امتلاك الدنيا باسم الحق وخدمة الأمة ولكن الحياة يجب أن تكون حول محور الآخرة على الدوام. ومثل هذه الحياة الدائرة حول محور الآخرة تُبقي الفرد ضمن الكسب الحلال على الدوام وضمن اللذة المباحة. ومن المعلوم أن الكسب غير المشروع، واللذة غير المشروعة تجلب معها على الدوام آلافاً من الآلام في الوقت نفسه.

ولنختم هذا الموضوع بحديث خاتم المرسلين ﷺ: "فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت. فوَالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار".(١)

صلى الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى الملائكة المقرَّبِين وعلى عباد الله الصالحين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ١١٦/١٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

[القصص: ٨٥]

هنا يرد توجيهان، أو تفسيران، أحدهما تذكير رسول الله ﷺ بيوم لقاء الرفيق الأعلى، وهو اليوم الذي كان ينتظره بشوق ولهفة، لذا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ مذكرا إيـــاه بيوم فراقه لبيته ووطنه، وللكعبة التي كان يحبها محبة تجل عن الوصف، ولكنه في ضمن هذا التذكير المشوب بهذا الحزن الرقيق يبشره ببشارة كبرى توافق فطرته السامية، بشـــارة بلقاء وبرضوان لا يمكن للعقل تصوره أو إدراك ماهيته، فجاءت الإشارة إليه بتنوين التنكير في كلمة "معادٍ"... معاد هو آخر مستقر ومقام له، ليزيل بذلك كل حزن أو غم عنده.

والآخر هو أن الله تعالى من بداية سورة القصص حتى هذه الآية كان يذكر لمحات مهمة من حيـــاة النبي موسى عليه السلام، وكفاحه مع فرعون، وعلاقته مع قومه وطائفته، وبعد التذكير بأن التاريخ يتكرر، وأن هذه هي سنة الله في الكون كان يشير إلى أن الرســـول ﷺ سيضطر -مثل موسى عليه السلام- إلى ترك بلده ووطنه وبيته، ليستقر ويقيم في بلد آخر. وأن هذا قانون وسنة لا تتغير. وإذا أتينا إلى علاقة هذه المسألة بهذه الآية نقول إن هذه السورة مكية، أما الآية أعلاه فقد نـــزلت في أثناء الهجرة حسب إحدى الروايات. أي أن القرآن بهذه الآية كان يخفف عن النبي المحزون من فراق مكة ويهون عليه الأمر من جهة، ويبشره بأنه سيرجع إلى مكة ويعود إليها من جديد بعد تسع سنوات. وهذا التوجه والتفسير هو الأقوى وهو يتضمن إخبارا عن الغيب ودليلا من دلائل النبوة.

وعندما جاء الميعاد المقدر تم فتح مكة ونكس الأعداء رؤوســـهم من

الذل، أما رسول الله ﷺ فخر الكائنات فقد تحقق له ذلك "المعاد" الذي سبق وأن بُشر به من قبل. لذا فالأصح أن كلمة المعاد هنا تعني هذا الأمر وهذه البشارة بعودة الرسول ﷺ إلى مكة.

الله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سورة العنكبوت

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾

[العنكبوت: ٤٥]

مع أن الصلاة تنهى الشخص الذي يؤديها عن الفحشاء والمنكر، إلا أن وقوع مثل هذا الشخص في بعض الأخطاء شيء مقدر والحديث النبوي الذي يقول "كلّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون"(١) يشير إلى هذه الحقيقة.

إذا أدّى الإنسان صلاته بمعناها الكامل تتوسع عنده فترات النور، وتقلّ عنده فترات الظلام والعتمة. وتنمو عنده حالات البسط، وتكاد تنمحي عنده حالات القبض. تضيق في عالمه الداخلي المنافذ المفتوحة للنفس وللشيطان، وتنفتح الأبواب الروحانية والملائكية على مصاريعها. ولكن كل هذا مرتبط بأداء الصلاة عن وعي، أي مرتبط بالصلاة التي تحرك القلب، وتغذي المشاعر، وتهزّ الإحساس إلى حدّ الارتجاف. أي إن الصلاة الواردة في الآية ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هي الصلاة بمعناها الكامل. أما الذين لا يبلغون في صلاتهم هذا الأفق، فلا مناص من وقوعهم في الأخطاء.

إن نهي الصلاة للشخص عن المنكر وتوجيهه نحو المعالي مسألة تركيز جدي. فمثلاً عندما نصوم رمضان في أشهر الصيف ونمتنع عن الطعام

---

(١) الترمذي، القيامة ٤٩؛ ابن ماجه، الزهد ٣٠؛ الدارمي، الرقاق ١٨.

والشراب ما يقارب ١٦-١٧ ساعة، ثم عندما نفطر ونتناول كوب ماء نحس بـــهذا الماء وهو يتوزع في كل جزء من أجزاء جسدنا. ونظير هذا يجب أن يحس وجداننا بكل كلمة نقولها في أثناء الصلاة وبكل ركن نؤديه من أركانـــها، وأن تـــهز هذه الصلاة قلوبنا وتذكرنا أننا أمام الله تعالى. مثل هذه الصلاة هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. إذن نستطيع هنا أن نقول إننا بدرجة المستوى الذي نبلغه في الصلاة نكون بعيدين عن المنكرات. وبمرور الوقت تكون مثل هذه الصلاة بأبعادها العميقة عاملا مهما في توجيه سلوكنا.

ونستطرد هنا فنقول بأن على الإنسان -شريطة ألا يقع في اليأس- أن يحاسب نفسه على الدوام. عليه أن يكون حذرا وأن يقول لنفسه على الدوام: "ماذا لو ردت علي هذه العبادات، وماذا لو رميت صلاتي بوجهي كخرق بالية". ولكن يقول هذا بالنسبة لنفسه وليس بالنسبة للآخرين، لأن هذا حرام بيّن ويعد سوء ظن. أجل!... لنكرر هنا قولا مأثورا كثيرا ما نكرره وهو: "يجب أن يتصرف الإنسان مثل مدعي عام -أي ممثل اتهام- أمام نفسه، ومحاميا عن الآخرين". أي يرى زلاته الصغيرة ذنوبا كبيرة، ويتصرف بشفقة وبحنان الأم أمام الأخطاء الكبيرة للآخرين. وحتى عندما ينبه المذنب ينبهه بحنان قلبي. والحقيقة إن هذا هو أسلوب القرآن. ولهذا قال الله تعالى ﴿اُتْلُ مَا اُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ (العنكبوت: ٤٥). أي يدعونا إلى إرشاد القرآن في كل أمر من أمورنا وفي كل سلوك أو تصرف.

لنرجع إلى الصدد: إن الصلاة التي تؤدى تنفيذاً لأمره تعالى وابتغاءً لمرضاته، وبتعبير آخر إنّ الصلاة التي تُؤدَّى بإخلاص والهادفة إلى رضـــا الله تستطيع -بمرور الوقت- إبعاد الإنسان عن الفحشاء والمنكر، إن لم يكن اليوم فغدا. أي تكون الصلاة عبادة تعوق الإنسان عن الوقوع في المنكرات،

وأولها الشرك وما يؤدي إليه، أو يقرب منه، ومن الأسباب المؤدية إلى الضلالة. لأن الصلاة عبارة عن عبادة سداها ولحمتها ذكر الله قولاً وفعلاً وحالاً. ومثل هذا الذكر أمر كبير ومتناسب مع عظمة الله، والقرآن الكريم يذكرنا بـــهذا عندما يقول: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

سورة لقمان

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧]

في هذه الآية يسرد القرآن الكريم بالتسلسل أموراً أربعة مهمة: إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، والصبر على المكاره.

الصلاة رأس جميع العبادات، وعمود الدين في الإسلام. والأمر بالمعروف من مؤيدات الدين. وعندما يدخل الشخص في محاولة إصلاح أخطاء المجتمع متجاوزاً استعداداته الشخصية ومسئوليته الفردية فلا بد له من مواجهة العديد من الغوائل والمكاره. وكل من يرى أنه سيضطر على ترك ما تعود عليه منذ سنوات طويلة، وكل فرد أو مؤسسة ترى أن مصالحها ستتعرض للخطر... كل هؤلاء سيقفون في وجهه ويقومون بالضغط عليه. في مثل هذه الظروف على المؤمن أن يصر على المقاومة، وأن يحافظ على خط سيره. وإذا نظرنا إلى التاريخ من هذه الزاوية رأينا أمثلة عديدة على هذا الأمر. وفي مقدمة هذه الأمثلة نرى رسولنا الكريم ﷺ الذي لم يهتز أمام المصاعب التي واجهته وهو يقود نضاله الكبير، حتى عندما كان وحده، واستمر في طريقه بكل ثبات وبكل صبر.

إذن ففي كل مرة يرد أمر تطبيق الإسلام ومعايشته في واقع الحياة بمعناه الحقيقي، ودعوة الآخرين له يرد موضوع الصبر. وهناك آية أخرى تبين هذا الأمر بشكل أوضح وهي ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ (البقرة: ٤٥).

أي استعينوا بكل أنواع الصلوات وبكل أنواع الصبر والتجئوا إليهما واستمروا في طريقكم. وفي الحقيقة فإن الاستمرار كل يوم على الصلوات الخمس، وعلى أداء أربعين ركعة يوميا، والثبات عليها نوع جيد من أنواع الصبر. فهذه العبادة الكبيرة تكون ثقيلة جدا على غير الخاشعين ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥).

والآية هنا تؤكد بأن الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان وارداً ومطلوباً في الأمم الأخرى كذلك، وهذه الحقيقة تقدم هنا بصيغة خطاب لأحد المؤمنين. والظاهر أن لقمان عليه السلام عندما قال في البداية ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣) كان يريد حفظ ابنه وصيانته عن أكبر المنكرات وأكبر الموبقات، ثم ذكّره بأهم ركن من أركان الإسلام، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو جانب من الجهاد المطلوب من كل فرد في كل زمان والغاية من وضع موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجانب أهم عبادة "وهي الصلاة" هو للتنبيه ولجلب الأنظار ولتأسيس التوازن الشرعي المطلوب.

أما إذا أتينا إلى وصية ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧) فهي لبيان مسؤولية شخصية مستقلة من جانب، وتنبيه إلى وجوب اليقظة لما ستجر الوظيفتان السابقتان من متاعب ومن مشاكل.

سورة الأحزاب

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤]

كان سيدنا زيد بن حارث طليق الرسول ﷺ. ومع وجود والده فقد فضل زيد رسول الله ﷺ على والده وبقي معه، فتبناه الرسول ﷺ. وأصبح يدعونه لفترة من الوقت "زيد بن محمد". ومنع القرآن الكريم بهذه الآية إطلاق هذا الاسم عليه، وحذّرَ في الوقت نفسه أن يدعى أحد لغير أبيه وأمه، ودعا إلى أن يُنْسَبَ الابن إلى أبيه إن كان معروفا. ومنع بذلك التبني. وبعد نـــزول هذه الآية بدأوا يطلقون على زيد اسم زيد بن حارثة. كما أطلقوا اسم فلان مولى فلان على الذين اهتدوا على يد المسلمين، مثلاً: سالم مولى حذيفة.

والأمر الآخر الذي تشير إليه الآية الكريمة هو أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون أن الشخص الذكي يحمل في جوفه قلبين وأن زوجـــات الذيـــن يظاهرون نساءهم يكن مثل أمهاتـــهم بـــهذه المظاهرة لذا قامت الآية بضربة واحدة بإزالة هاتين العقيدتين.

والآن لنـــأت إلى عدم حمل الإنسان لقلبين في جوفه. لا شك أن القلب المقصود هنا ليس هذا القلب المادي الذي هو عبارة عن قطعة لحم بالشكل

المعروف للجميع. إنه القلب الذي تناوله أرباب التصوف بالوصف والتقييم. وهذا هو المفهوم من سياق الآية. أجل... إن الإنسان لا يمكن أن يكون له قلبان مفتوحان أحدهما للتوحيد مثلاً والآخر للشرك، أحدهما للإخلاص والآخر للرياء، أحدهما للحقيقة والآخر للكذب. أحدهما للحق والآخر للباطل. الأبيض أبيض، والأسود أسود. أجل... لم يجعل الله أزواجنا اللائي نظاهرهن أمهاتنا، ولا جعل من نتبناه من الأولاد أبناءنا، كما لا يملك الشخص الذكي قلبين. هذا هو قولكم بأفواهكم والله هو الذي يعلم الحق ويهدي للصواب.

إذا نظرنا للموضوع من زاوية أخرى نقول بأن الإنسان قد يبدو في أزمان مختلفة ونتيجة لظروف مختلفة في شخصية مزدوجة. ولكن الإسلام لا يسمح أبدا بهذا الوضع الذي يكون بداية لدائرة مفرغة. لأن هذا يجعل الإنسان أخطر حتى من الكافر. أما عاقبة مثل هذا الشخص -حسب تعبير الآية- فهو في الدرك الأسفل من النار. إن الإنسان إن كان يستطيع الإدعاء بأنه يسير على السبيل القويم الذي رسمه الله تعالى، ويستفيض في ذكر علاقته بالله، مع أنه غارق -من جانب آخر- في الباطل، مثل هذا الشخص يحمل إذن -حسب تعبير الآية- قلبين في جوفه. ولكن الآية ترد هذا وترفضه وتؤكد استحالته. والله تعالى عندما يقول في آية أخرى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩) ألا يقوم برد الازدواجية والأثنينية؟

أجل... عندما يكون الطريق واحداً يكون القلب واحداً. ومن يتبع طرقا مختلفة لن يستطيع الخلاص من الاضطراب والتشوش في عالم الفكر والتصور والقلب. أما ما وراء هذا فهو -كما يذكر القرآن الكريم- مجرد أقوال لا غير. فماذا تقول مثلا في شخص يقول إنه مسلم، ولكن تجده في الوقت نفسه يتصرف كملحد ويقوم بإهانة الدين والكتاب والرسول؟... مثل هذا الشخص ذو وجهين ومثال للنفاق وللشقاق.

والخلاصة ما من شخص يحمل قلبين ولا وجدانين. فالقلب في أعماق عالمه قلب واحد في نقطة استناده، وهو أقوى شاهد أنفسي على وحدانية الله تعالى. وليس كل من تقولون عنهن -من طرف اللسان- أنهن أمهاتكم هُنّ فعلا أمهاتكم، ولا الذين لم يولدوا من أصلابكم يمكن أن يكونوا أولادكم. في هذه المسائل الثلاث هناك تناقض مع الحقائق، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي إلى السبيل القويم، ويدعوكم لكي تنسجموا مع وجدانكم ومع أنفسكم.

سورة سبأ

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]

كان سليمان عليه السلام يسخر الجن لخدمته ببعض الأدعية وببعض أسماء الله الحسنى التي لا نعرفها. وعندما كان يقرأها -في عالم الأسباب هذا- كانوا يدخلون في خدمته. والحقيقة أن الأسماء الحسنى ليست عبارة فقط عن الأسماء المائة التي رواها أبو هريرة رضي الله عنه، فقد ورد في دعاء من أدعية الرسول صلى الله عليه وسلم: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنـــزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...".(١)

ويفهم من هذا أن الله تعالى قد يكون علم كل نبي أسماء مختلفة. ومن المحتمل أن سليمان عليه السلام كان يسخر الجن بقراءة هذه الأسماء. وفي المعنى الحقيقي فالله تعالى هو الذي ســـخر الجن والشياطين في خدمة النبي سليمان عليه السلام. ويتبين هذا الأمر بشكل أوضح في سورة (الأنبياء: ٧٩-٨٢).

وقد ورد في بعض الإسرائيليات -وليس في السنة الصحيحة- أن النبي سليمان عليه السلام خشي من سوء استعمال هذه الأسماء من بعده فأخفاها في جانب من جوانب عرشه. وأن بعض اليهود في زمانه سرقوا هذه الأسماء واستعملوها لحسابـــهم. وهناك بعض الآيات في العهد القديم ملائمة لمثل هذا التفسير.

هناك بعض التيارات الحالية تحاول تحميل هذا الأمر معاني أخرى تتجاوز

---

(١) المسند للإمام أحمد، ٣٩١/١، ٤٥٢.

ماهيته كثيرا، فيقولون مثلا: "لا حاجة لله –حاشا لله– المهم إرضاء قوى الشر لكي تستقيم كل الأمور". أو يقولون: "قدرة القوى الشريرة أكبر من قدرة القوى الخيرة، لذا يجب إرضاء قوى الشر". ومن الممكن إرجاع أصل هذا إلى فكر "كابالا"، أي أن المصدر مصدر ماسوني بحت. ومن الممكن إرجاع العديد من أشكال المراسيم والشعائر الماسونية إلى المصدر نفسه. وترد في أفلام الكارتون للصغار عبارات من أمثال: "باسم قوى الظلام، وباسم قوى الظلال...." مما تؤدي إلى تسميم العقول الغضة للصغار وقلبها رأسا على عقب، وتفتح جروحا لا تندمل في أرواح الشباب وفي عالمهم الميتافيزيقي الماورائي، وهي سفسطة غير موجودة في تعابيرنا ومصطلحاتنا الدارجة. والظاهر أن مثل هذه التشوهات ستستمر حتى قيامنا بتعديل العالم الداخلي والعالم الروحي لأفراد شعبنا، وتنظيمه.

والأمر الآخر الذي يجب الالتفات إليه هنا هو أن النبي داود وسليمان عليهما السلام أعطيا أشكالا مختلفة من تسخير الموجودات، وكرما به. فتسخير الجبال والحديد لداود عليه السلام الذي كان قد تعرض لمشاكل ومصاعب كثيرة حتى أصبح تمثالا لحقيقة ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ انّهُ أوّاب﴾ (ص: ٣٠). وتكريم سليمان عليه السلام بالنبوة وبالقوة –التي ورث قسما منها من والده– وبالملك وبأبهة السلطنة، وتسخير الجن والشياطين والعفاريت الذين يعدون كائنات ميتافيزيقية –أي وراء هذا العالم المشهود–، وكذلك تسخير الرياح له، يبدو وكأنه تمثيل للتوازن الموجود في الحقيقة الأحمدية بين العالم المادي والعالم الميتافيزيقي "غير المادي".

وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن النبي داود عليه السلام يعد نواة للجانب الباطني من الحقيقة المحمدية، والنبي سليمان عليه السلام نواة للجانب الظاهري منها. وعندما آن الأوان اجتمع كلاهما –الظاهر والباطن– في شخص صاحب الجمع ﷺ.

الله أعلم بالصواب.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤]

تريد هذه الآية قبل كل شيء بيان حقيقة معينة وهي أن الجن لا تعلم الغيب. فإذا لم تكن الجن تعلم الغيب، إذن فالذين يأخذون عنها الأخبار لا يعلمون ولا يستطيعون معرفة الغيب كذلك. لذا تقرر بأن مَن يصدق بصحة أخبار الغيب التي يقول بها الكهان يخرج عن الدين والعياذ بالله.

والأمر الثاني هو: هل عمل الجن حقيقة تحت إمرة النبي سليمان عليه السلام؟ فقد ادعى البعض من الكتاب المعاصرين بأن هذه الآيات وأمثالها الواردة في القرآن آيات رمزية ومن قبيل المجاز والاستعارة ولا تقصد معناها الظاهري. وأنا أعتقد بأن جميع الحوادث التي بينها القرآن الكريم وقعت وجرت حقيقة.

وإذا جئنا إلى الدرس المستقى منها فهو يشير إلى موضوع ذي أبعاد عميقة. فمثلاً يمكن القول فيما يتعلق بهذه الآية: إن الكون أسس بإرادة إلهية، ويسير ضمن المشيئة الإلهية وهو عبارة عن نظم متداخلة بعضها مع البعض الآخر. ولا مكان للصادفات في أي حركة في الكون ضمن هذه النظم. وإن تآكل العصا التي كان النبي سليمان عليه السلام يستند إليها حقيقة من جانب، وليس مصادفة من جانب آخر. ومن المحتمل أن الآية تريد أن تقول لنا بأن ملك سليمان عليه السلام سيتشتت في يوم من الأيام. وهو ما حدث بعد سنوات من وفاته، فقد ظهرت انشقاقات كبيرة في المجتمع، وتراجع إلى عهد الفوضى الذي كان موجوداً في الأيام الأولى من عهد النبي داود عليه السلام. وفجأة هوت السلطنة الكبيرة كبر الجبال إلى الأرض وأصبحت جذاذاً، ووجد الناس الذين كانوا في ظلها أنفسهم في وضع آخر تماما.

سورة يس

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: ٢٠]

لنبين أولا بأن تعبير "أصحاب القرية" -أي أهل المدينة- قبل هذه الآية يشير إلى أن المكان الذي قصده المرسلون لتبليغ دين الله لم يكن بادية في الصحراء، بل كان من المدن المتحضرة بمقياس تلك الأيام. كان أهل المدينة قد رفضوا دعوة رسولين، فأرسل الله إليهم ثالثا لتأييدهما وتقويتهما. ولكن أهل هذه القرية الذين أصروا على عنادهم وتمردهم لم يكتفوا فقط بالإعراض عن هؤلاء الرسل، بل حاولوا قتل أحدهم وهو من قريتهم.

وهذه الآية التي نتناولها هنا تتحدث عن رجل رابع لتأييد الرسل الثلاثة السابقين، وتقول عنه إنه جاء إلى هؤلاء القوم من أقصى المدينة.

وقد تناول المفسرون منذ السابق تعبير "أقصى المدينة" بالتحليل والتفسير، وذهبوا فيه مذاهب شتى. وسنقوم بتناول ثلاثة أوجه من هذه التفاسير:

إن "أقصى المدينة" يعني: الطرف الآخر من المدينة، وأن هذا الشخص كان يسكن هناك.

إن "أقصى المدينة" يعني: الطبقة الراقية من المدينة، أي من طبقة أشراف المدينة. وفي دعاء "الصلاة المنجية" يرد تعبير: "أقصى الغايات" بمعنى أرفع الغايات وأسماها. أي أن هذا الشخص كان من علية القوم وكان يسكن في ضاحية المدينة، ومن الطبقة الأرستقراطية التي لا توجد لها علاقة حميمة مع أهالي المدينة.

إن هذا التعبير يشير إلى شخص بعيد من ناحية طراز التفكير والفهم عن أفكار قومه، وإنه كان ذا مستوى أرفع منهم. وكلامه وقوله ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يدل على هذا الفرق في مستوى التفكير.

حسب التفسيرين الثاني والثالث فنحن أمام شخص له تفكير مستقل عن تفكير أهل المدينة، وفلسفة مستقلة، وشخص مخلص يسارع أهل المدينة إلى استشارته كلما حزبهم أمر. ويقول المفسر "أَلْمَاللِي حَمْدي" في تفسيره بأن هذا الشخص عندما حاول أهل المدينة قتله قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ٢٦-٢٧)

وإذا تناولنا هذا القول بالتحليل قلنا بأن هذا الشخص كان على الدوام يطوي بين جوانحه حب قومه وتمني الخير لهم، ولم يحمل ضدهم حقداً أو ضغناً، أو رغبة في الانتقام منهم. على العكس من هذا كان يحمل عاطفة الرحمة حتى لأعدائه، وكان يتمنى أن يصلوا إلى السعادة التي وصل هو إليها، وبأسلوب نبوي أراد أن يشرح وللمرة الأخيرة وضعه لهم.

والحقيقة إن هذا الطراز من التفكير والسلوك هو طراز وتفكير المخلصين في كل عهد وزمان. فها هو سيد المرسلين ﷺ يدعو الله وقد كسرت رباعيته في معركة أحد وبدأت الدماء تسيل منها ويقول: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".(١)

ونستطرد هنا فنقول بأنه مهما بدا أن دعاء نوح عليه السلام على قومه ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ (نوح: ٢٦) يناقض ظاهريا ما قلناه آنفاً، إلا أنه ليس كذلك، لأنه من المحتمل أن نوح عليه السلام قال هذا على اعتبار ما سيكون، وأنه كان يعرف طبيعة ذلك المجتمع الذي قضى فيه كنبي أعواما طويلة، ويحتمل أنه حدس الرغبة الإلهية، أو أنه أوحي إليه هذه الرغبة والمراد

---

(١) البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٤؛ ابن ماجه، الفتن ٢٣.

الإلهي فقال ذلك الدعاء. لأن هذا هو الخلق العام للأنبياء العظام في الغالب.

ثم يجب الوقوف حول عما إذا كنا نحمل هذه القصص محمل الحقيقة أم لا. لأننا نعتقد أن هذه القصص ليست قصصاً رمزية، بل هي حوادث وقعت حقيقة، ونقلها القرآن لنا.

ثانياً إن الله تعالى بقصه علينا هذه القصص يشير إلى بعض الحقائق الكونية الجارية حتى قيام الساعة. أي هي جارية منذ وجود آدم عليه السلام حتى آخر رجل في هذه الدنيا. لأننا عندما ننظر إلى العناصر التي يستعملها القرآن نراها غير مختصة بزمن معلوم أو مكان معلوم. وهذا هو المنتظر أصلا من كتاب كوني. ولكن لكي نستطيع النظر إلى القرآن هذه النظرة يجب متابعة آياته ضمن إطار خاص. بل يمكننا القول إن هذا هو الشرط الوحيد للاستفادة الحقيقية من القرآن. والشيء الآخر إن الآيات سواء كانت في حق الكافر أو المنافق أو اليهود أو النصارى، وكانت أسباب النزول تشير إلى هذا الأمر أو ذاك، فإن كل فرد -وهو يقيم علاقات عقلية ومنطقية وشعورية ووجدانية مع نفسه ومحيطه في زمان أو في مكان معين- يستطيع تلقي رسائل غضة وجديدة من القرآن ويحسها في أعماق نفسه. وبتعبير آخر فعلى الفرد أن يقول لنفسه: "صحيح إنني لست بنبي، ولكني أشعر أن آيات القرآن البالغة ستة آلاف ونيف وكأنها قد نزلت عليّ". وفي نهاية المطاف أليس هذا هو روح القضية وأساسها؟ وهل يمكن حصر الله تعالى -حاشا لله- في زمن أو مكان معين؟ إذن فالقرآن الكريم الذي هو تجلي صفة الكلام عنده تعالى كما خاطب الرسول ﷺ فكأنه يخاطبك ويخاطبني كذلك، ويخاطب كل من يأتي بعدنا. أي هو يخاطب الإنسانية جمعاء. وهذا الأمر مهم من ناحية شمولية القرآن وكونه فوق الزمان والمكان. وإلا فإن الإنسان ينظر إلى هذه الحوادث الواردة في القرآن وكأنها قصص ماضية. ومثل هذه النظرة في قراءة القرآن تقلل نسبة الاستفادة منه كثيراً.

والآن لنرجع إلى الآية الكريمة مرة أخرى: إن الحادثة المبينة هنا جارية

بنظائرها وبأمثالها حتى يوم القيامة. ونستطيع عد أمثال أبطال هذه الحادثة الموجودين في كل عصر، بدءً من مؤمن آل فرعون إلى سيدنا أبي بكر ﵁، ومن حبيب النجار إلى شهود كل عصر، ومنهم إلى شهود عصرنا. منهم شاهد عصرنا الذي أتى إلى اسطنبول من أقصى البلاد حاملاً معه حلولاً ومقترحات متعلقة بمستقبل الإسلام. وهو في هذا لا يبتغي أجراً من أحد ولا شهرة ولا غنيمة، بل نراه مثالا للإخلاص والتضحية والصدق إلى درجة أنه يقول: "لو شاهدت سلامة إيمان أمتي، فإنني أرضى أن أحترق في نار جهنم لأنه بينما يحترق جسدي فإن قلبي سيمتلئ سعادة وحبوراً".[1] وكم من أمثلة أخرى هناك في الداخل وفي الخارج... أمثلة أخرى على نفس النمط وعلى نفس المقياس من الالتزام بالمبادئ والمثل والتضحية في سبيلها.

ويذكر القرآن الكريم حادثة أخرى جرت في عهد موسى ﵇ أيضا. وتحمل تلك الحادثة وهذه الحادثة خطوطاً عامة مشتركة. في تلك الحادثة نرى فرداً من آل فرعون، أي من المنتسبين للقصر الفرعوني ومن الطبقة الأرستقراطية عندما يعرف نيتهم في قتل موسى ﵇ لا يملك نفسه من الصراخ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّٰهُ﴾ (غافر: ٢٨).

ففي ذلك الوسط لم يكن من الممكن لشخص من عامة الشعب الوقوف ضد قتل موسى واغتياله ﵇.

وفي تاريخ السيرة النبوية نرى البطولة نفسها عند أبي بكر الصديق ﵁. ففي أثناء قيام المشركين بتعذيب المسلمين حتى الموت، كان أبو بكر الصديق -وكان من الطبقة الأرستقراطية لمكة- يقول العبارة نفسها: "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله".[2]

إذن فالحوادث التي يبينها القرآن تتكرر على مر الزمن تحت صور مختلفة ولكن بالماهية نفسها.

---

(١) السيرة الذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.

(٢) البخاري، فضائل الصحابة ٥؛ مناقب الأنصار ٢٩؛ تفسير القرآن (٤٠) ١؛ المسند للإمام أحمد، ٢/ ٢٠٤.

سورة ص

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

[ص: ٢٠]

جاءت هذه الآية بعد آية:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ١٧- ١٩)

بعد بيان ما آتى الله تعالى داود من فضائل ومعجزات، أبان القرآن الكريم ثلاثة فضائل أخرى مهمة وهبها الله تعالى لهذا النبي الكريم، ويؤكد على وجوب اتخاذه قدوة لكيفية ترافق الملك مع القرب من الله. وهذه الفضائل الثلاثة الأخيرة هي:

١-وشددنا ملكه: أي ظاهرنا ملكه وساندناه. وقد تعرض النبي داود عليه السلام للعديد من البلايا والدواهي والمصائب، ولكنه خرج منها -بفضل الله- وقد ازداد حكمه رصانة وقوة. كما تشير الآية لرسولنا ﷺ بأن المستقبل سيكون مشرقاً جداً.(*)

٢-وآتيناه الحكمة: والمظهر الكامل لحقيقة هذه الحكمة التي هي عمق مهم وخاص من أعماق النبوة... هذا المظهر الكامل للحكمة تجلى عند نبينا سيد الأنام بأجلى صورة. وهنا تذكير بهذه النعمة المهداة لرسولنا.

(*) جميع القصص الواردة في القرآن الكريم تسلية وبشارة للرسول ﷺ ودروس وعبر. لذا فذكر نعم الله المسبغة على النبي داود عليه السلام تلميح إلى أن الله سيسبغ على نبينا كذلك نعماً عديدة. (المترجم)

٣- وفصل الخطاب: أي قابلية كمال الخطاب. وما أوتي النبي داود عليه السلام من هذا أوتي نبي الإنس والجن وخطيب الكون والمكان وسلطان الكلام والبلاغة ﷺ أضعافه. وإذا كانت الجبال تعكس صدى مزامير داود عليه السلام فإن نغمات كلام عندليب الأنبياء وبلبل القرآن ستنعكس يوما وتتردد أصداؤها في جميع القلوب. وهذا المعنى يظهر من تداعي المعاني.

ولكن ورد في التفاسير الكلاسيكية بأن "فصل الخطاب" يعني قول: "أما بعد!". ولكن لا يمكن أن يذكر القرآن هذا الأمر في معرض المنة وإعطاء النعمة ويقصد منه مثل هذه الكلمة التي يستطيع كل واحد تقريبا ذكرها. أجل إن هذا فضل من الله ونعمة آتاها داود عليه السلام. لذا فالأولى أن نقول بأن فصل الخطاب هنا يعني القابلية على الحديث حسب عقول الناس وقابلية الخطابة المثلى، واستعمال أسلوب حديث مقنع للجميع لا يدع مجالا للاعتراض والنقاش. ونستطيع أيضا القول بأنه قابلية شرح كل مسألة بشكل واضح بجميع تفاصيلها وفروعها.

سورة المؤمن (غافر)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٢٦]

في هذه الآية الكريمة يرد ذكر شخص مؤمن نشأ في عائلة فرعون وهو الذي أطلق عليه اسم "مؤمن آل فرعون" وورد خبره في سورة "المؤمن". وقال فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾. ولكي نستطيع فهم الآية حق الفهم فمن المفيد تذكر الحوادث التي تسلسلت حتى وصلت إلى هذه النقطة.

كما هو معلوم تعرض فرعون للهزيمة في كل محاولاته تجاه موسى عليه السلام، وأخيراً قرر قتله وما يشبه استئذان قومه في هذا القتل. وهذا الشيء الذي نسمعه ونستشفه من روح الآية يظهر لنا عجز فرعون وهزيمته ومغلوبيته وشعوره بأن يديه مغلولتان، فقوله ﴿ذَرُونِي أَقْتُل مُوسَى﴾ دليل هذا العجز. لأن فرعون الذي هزم أمام موسى من الناحية العقلية والمنطقية والاستدلالية بدأ يطلب الإذن من قومه بصوت واهن وضعيف. وليس هذا أسلوب من يثق بنفسه، بل أسلوب من فقد كل عون له بالتدريج. أسلوب المستبد الذي يكون ظالماً عند قوته وذليلا عند ضعفه، أو يبدو ديمقراطياً في الظاهر. وهذا الأسلوب من حاكم مستبد وظالم سخر قومه في بناء الأهرام ليس إلا رياء وذلة ولجوء نفاق إلى الشعب. وكان يريد أن يأخذ معه قوة جماهير الشعب المتعلق بعاداته القديمة ودينه، ويستغل هذا الشعب الذي حطمه وأذله عندما

كان قويا. أجل!... كان مثل جميع المتكبرين والدكتاتوريين السابقين المتحكمين في مقدرات العالم يريد التوسل إلى القوة وإلى تكوين رأي عام في صفه. كان مثل مشركي الجاهلية الذين كانوا يقولون عن الرسول ﷺ بأنه "يفرق بين المرء وزوجه، ويصدنا عما كان يعبد آباؤنا". أما فرعون فكان يقول لهم ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦). يقول هذا وكأن كل شيء كان حتى ذلك الوقت يسير سيراً حسناً، وكأن الشعب كان مرفها وسعيدا وأن موسى هو الذي يريد إفساد كل شيء ويدفع الشعب نحو الفوضى والاضطراب.

في هذه الأثناء يتدخل مؤمن آل فرعون -حسب بعض الروايات كان هذا الشخص شقيق آسيا والقائد العام لجيوش فرعون-. وليس من الممكن ألا يكون النبي موسى عليه السلام -صاحب الفراسة- غير دارٍ به. لقد كان يعرفه وقام بتخطيط لتقييم قوته ونفوذه، ونظم حركته بعد أَخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار. وعندما وصل فرعون إلى هذه النقطة من العجز والوهن والضعف، واضطر إلى الاستنجاد بشعبه الذي كان يعده من قبل هملا لا قيمة له، فقد استفاد موسى عليه السلام من ظهور هذا الشخص استفادة جيدة.

وقد أعطى القرآن الكريم لمؤمن آل فرعون مساحة أكبر من المساحة التي أعطاها لبعض الأنبيــاء. وعندما أظهر فرعون نفسه بمظهر الشـــخص الديمقراطي المتوجه نحو شعبه، واجهه بأسلوب ديمقراطي قائلا له: "أتقتلون رجـــلاً يقول ربي الله؟". أي ألا تحملون أي احترام لعقائد النـــاس وأفكارهم؟... وشيئا فشيئا يقوم بإعلان إيمانه، ويقول "يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا". أمام هذا الخطاب المقنع الموجه للشعب التجأ فرعون إلى الديماغوغية:

"قـــال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا ســـبيل الرشاد" متظاهراً بالحرص على مصلحة الشعب.

وبينما كان فرعون يقترب من الهزيمة النهائية بسرعة كان موسى عليه السلام مطمئناً غاية الاطمئنان، ولم يحرك تهديد فرعون له شعرة واحدة من رأسه. ولم يتأخر جوابه له: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر:٢٧)، مبيناً ثقته بالله تعالى ومؤكداً من جهة أخرى أن الله تعالى وحده هو رب العالمين.

والخلاصة أنه بجانب منظر فرعون وهو يهدد ويتوعد بالموت، وفي أثناء هذا التهديد والوعيد لا يستطيع إخفاء قلقه واضطرابه، وتناقضه العقلي والمنطقي والقلبي، حتى إنه يحاول الحصول على تأييد شعبه الذي طالما أهانه واستحقره، وهو في هذه السبيل لا يتردد عن استغلال العاطفة الدينية لشعبه. بل يقوم بمحاولة إسناد الفساد إلى عدوه لتشويه سمعته ناسياً أنه كان هو مصدر الفساد والإفساد في الأرض. وبينما كان يقوم في كل مناسبة بعداء الدين،كان يتهم المتدينين بأنهم غيروا وسيغيرون روح الدين. ومن جانب آخر نرى موسى عليه السلام وهو في غاية الاطمئنان والثبات، وبدلاً من اللجوء إلى الشعب يلجأ إلى الله، ويقوم ويعمد إلى مصارحة فرعون بغروره وتكبره. وكان هذا فصلا من النزاع بين "حزب الله" وبين "حزب الشيطان" في ذلك العهد.

سورة فصلت

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]

الاستقامة تعني اتباع الطريق المستقيم طوال الحياة واتباع الشيء الصحيح والحق طوال العمر. والقرآن الكريم يقول: "فاستقيموا" آمراً وموصياً إيانا بسلوك الطريق والصراط المستقيم. والآية أعلاه بشارة لمثل هؤلاء السالكين الصراط المستقيم. وأكثر الطرق والسبل استقامة هو الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ الذي أمره ربه بالاستقامة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢، الشعراء: ١٥). لكي تظهر الاستقامة الموجودة بالقوة في فطرته إلى استقامة بالفعل في الواقع. والاستقامة المطلوبة منه بهذا الأمر الإلهي هي الاستقامة المعتبرة عند المقام الإلهي. والحقيقة أنه من الصعب جداً فهم وتطبيق الاستقامة المطلوبة من قبل الله تعالى حق الفهم وحق التطبيق وبالمعنى المقصود من قبله تعالى. لذا جاء الأمر بصيغة مطلقة وتم تنبيهنا أن نكون مستقيمين عند رعاية أوامر الله ونواهيه قدر استطاعتنا. أجل!... هذا هو المطلوب منا. وهناك حديث للرسول ﷺ يشير إلى هذا حيث يقول: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم"(١) والملاحظ هنا هو

---

(١) البخاري، الاعتصام ٤؛ مسلم، الحج ٤١٢؛ الفضائل ١٣٠؛ النسائي، الحج ١.

الإشارة إلى الاستطاعة والقدرة على تجنب المعاصي، والقدرة والاستطاعة على فعل الخير والمعروف.

الاستقامة تكفل سعادة الدنيا والآخرة وهي أساس بشائر مهمة وردت في القرآن الكريم. ولأننا تناولنا هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلا في السابق(١) فإننا نكتفي هنا ببعض النكت الأخرى لهذا الموضوع:

١- الاستقامة بالنسبة لإنسان في بداية الطريق -أو لجماعة أو لأمة أو لدولة إن استطعت تناول الموضوع بالمقياس الكبير- زاد مهم. والذين يخرجون للطريق من غير زاد الاستقامة سيبقون في منتصفه ولن يصلوا إلى هدفهم أبداً. بينما المهم بالنسبة للمؤمن هو الوصول إلى الهدف الذي بينه الله تعالى. قد يكون هذا الهدف شخصياً أو عائلياً أو اجتماعياً...

أجل!... إن الاستقامة ركن لا يمكن الاستغناء عنه في النجاح، سواء النجاح في حياتنا الفردية أو في حياة امتنا. وحتى لو استطاع بعضنا إحراز بعض النجاح بالكذب والتمويه، وجر الجماهير وراءهم، فإن الحقائق ما أن تظهر واضحة وصريحة فإنهم يفقدون كل ما اكتسبوه في السابق شيئاً فشيئاً. كما يفقدون إمكانية وفرصة استعادة ما فقدوه من جديد. إن الاستقامة رصيد إن فقدته قام من عرف ذلك بسحب كل ما كان قد أكسبه لك حتى ذلك اليوم. ولكون توفر الاستقامة يؤدي إلى الكسب بهذه الدرجة، ويؤدي غيابها إلى هذه الدرجة من الخسارة، قال رسول الله ﷺ: "شَيَّبَتني هودٌ وأخَواتُها"(٢)، وكيف لا وهذه السورة تشمل آية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود:١١٢). إذن فحتى النبي لا يزول عنه قلق الوصول إلى الاستقامة التامة. وعندما يسأل أحد الصحابة النبي ﷺ أن يوصيه يقول له النبي ﷺ: "قُل آمنتُ بالله ثم استقم".(٣)

---

(١) ورد هذا في كتاب آخر للمؤلف تحت عنوان "التلال الزمردية" ١/١١٦.

(٢) الترمذي، تفسير السور (٥٦) ٦.

(٣) مسلم، الأيمان ٦٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣/٤١٣، ٤/٣٨٥.

إن بقيت في إطار الاستقامة فلا يضرك التهم التي سيطلقها الأعداء أو الحساد عنك، لأنه سيأتي اليوم الذي تظهر فيه براءتك، وتكسب حينذاك أضعاف ما خسرته في الماضي. المهم أن تبقى على خط الاستقامة على الرغم من كل شيء.

٢- إن لم يكن الشخص مستقيماً فهو يعيش حياته قلقاً، لأنه يخشى في كل آن أن ينكشف غسيله القذر. فإذا كان هناك من شاركه في آثامه وأخطائه أصبح هذا القلق والخوف ملازماً له في حله وترحاله وفي منامه ويقظته لا يدري متى سيطعن من خلفه. يتلوى من هذا الخوف لأنه حسب المثل القائل: "إذا اختلف السراق ظهر المسروق". وهو يضطر لمداهنة ومداراة هؤلاء ويبقى في خوف وفي قلق دائمين.

٣- والآن لنعرض رأياً للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي حول بُعد آخر للاستقامة:

عندما يستعرض النورسي أسباب تخلفنا يقول: "أحياناً يحاولون الوصول إلى هدف وإلى غاية صحيحة عن طريق استعمال أساليب ووسائل خاطئة. بينما يجب الوصول إلى الأهداف الصحيحة عن طريق الأساليب والوسائل الصحيحة". بتعبير آخر: "لا يمكن الوصول إلى هدف صحيح وصالح وحق عن طريق وسائل باطلة". مثلاً: لا يمكن الوصول إلى رضا الله تعالى أو تحقيق منفعة للمسلمين بالألاعيب السياسية. والشيء نفسه وارد بالنسبة لاستغلال عاطفة الجماهير لتحقيق أمر ما، فهذه وسيلة باطلة، والإنسان بهذا يخدع نفسه. كما لا يمكن الوصول إلى الحقيقة عن طريق معالجات مصطنعة. إذ لا نجد هذا لا في حياة الرسول ﷺ ولا في تاريخ الإسلام وأدواره عندما كان الإسلام حياً. إذن يجب اتباع طريق واستعمال طريقة يكون الصدق والاستقامة أساساً لها على الدوام، وإلا ذهبت جميع الجهود المبذولة -غير المستندة إلى الاستقامة- أدراج الرياح، وسيحاسب الله على هذه الخيبة

والفشل. لأنه مع كون النيات صالحة، إلا أن الجماهير وجهت نحو طرق خاطئة، قد تشوه صورة الدين الإسلامي، وأُعْطِيَ بيد أعداء الدين السلاح والتبرير لكي يزيدوا من شراستهم.

بينما مثل هذه المسائل المتعلقة بالمجتمع تتطلب المشورة، وتبادلا للأفكار على صعيد واسع. فإن لم تقم بالمشورة ولم تتبادل الأفكار مع الآخرين، فهذا يعني أنك قمت بجر الجماهير إلى مغامرات غير محسوبة العواقب بأهوائك. والله تعالى سيحاسب على هذا بالتأكيد. ومع الأسف فإن اقتراف مثل هذه الأخطاء هو ما يجري في أنحاء العالم الإسلامي الآن، ونرى الأمثلة البارزة على هذا في بعض البلدان الإسلامية.

والخلاصة إن الاهتمام بالاستقامة في الشعور وفي الفكر وفي العمل يشكل الناحية العملية للإيمان. وقد اهتم السلف الصالح والذين خوطبوا بالقرآن للمرة الأولى بجانب من جوانب الاستقامة، فمنهم من فسر آية ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت: ٣٠؛ الأحقاف: ١٣) بأنها تعني الذين وحّدوا الله تعالى ولم يدخلوا في الإثم؛ وفسرها آخرون بأنها الذين استقاموا في سلوكهم ولم ينحرفوا إلى الحيلة والخديعة؛ وفسرها آخرون بأنهم هم الذين وصلوا إلى العبودية المخلصة لله تعالى؛ وقال آخرون بأنها تشير إلى المؤدين لكامل الفرائض، والتكامل ظاهرياً وباطنياً. ومثل هؤلاء تحفهم الملائكة وتنزل عليهم بالسكينة والاطمئنان. أجل!... فكما تقوم الأرواح الشريرة والخبيثة والشياطين بزيارة من ملئت أرواحهم بالنوازع والمشاعر الشيطانية، كذلك تقوم الأرواح الطيبة بزيارة أصحاب الاستقامة وتسوق لهم البشائر: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

ويرى بعضهم أن تنزل الملائكة وبشارتهم هذه يكون عند الاحتضار والموت، ويرى آخرون بأنه يكون بعد البعث من الموت وما يصاحبه ويعقبه

من زحام الحوادث. وقال البعض الآخر بأنه سيتحقق في أثناء الموت وفي أثناء البعث بعد الموت أيضاً. ومن يدري فربما تقوم الملائكة -بجانب أدوار الموت والبعث- بالتنـــزل على المؤمنين في جميع صفحات حياتهم، وأن هذا هو السبب في كون هؤلاء المؤمنين يعيشون حياة اطمئنان وسكينة. ولكن مثل هذه المشاعر والأفكار التي هي نتيجة لبذرة الإيمان الموجودة في قلوبهم طوال حياتهم، ستتوضح وتلتمع وتتعمق أكثر في أثناء الوفاة، وتنكشف أكثر عند المحشر، وتصل إلى أبعادها الأخروية الحقيقية بمعونة القدرة والرحمة الإلهية.

الله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

[فصلت: ٥٣]

تذكر هذه الآية أولا بأن الآيات الدالة على صدق هذا القرآن وكونه حقاً لا مراءِ فيه ستظهر الواحدة بعد الأخرى في الآفاق وفي الأنفس، وأن التناغم الموجود بين الآفاق والأنفس يشير إلى الله تعالى ويعلن عنه، وتبشر المؤمنين الذين كانوا آنذاك في ضيق شديد بأن قلوب أهل مكة ومن في خارجها ستنفتح، وسينتشر نور الإسلام في الشرق وفي الغرب، وأن الروح المحمدي سيفرش جناحيه على العالم، وتومئ إلى أن الجو خارج مكة سيكون أفضل وأكثر ملائمة لهم.

إن أسلوب هذه الآية يفتح أمامنا أفق تفكير واسع جدا، ويهيئ لنا إمكانية رصد الحقائق. وكما هو معلوم فإن الأدلة المقدمة لإثبات الحقيقة تنقسم إلى مجموعتين: الأدلة الآفاقية المستقاة من الكون وما يتعلق به من حوادث، أي الأدلة من خارج النفس. ثم الأدلة المتعلقة بالعالم الداخلي للإنسان من فكر وحس وحدس، والتقييم الشخصي لها.

سورة الشورى

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩]

تذكر هذه الآية من السابق كدليل على احتمال وجود أشكال من الحياة -في عوالم أخرى غير عالمنا- مشابهة للموجودة في أرضنا أو مختلفة عنه، وهـذا صحيح. كما أن عبـارة ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَـاءُ قَدِير﴾ (الشورى:٢٩) قد يفهم منها أنه من الممكن أننا سنستطيع الذهاب إليهم أو يقومون هم بالمجيء إلينا.

فالدبيب يعني الحركة، والدابة تعني المتحرك. ومع أنه يمكن استعمال هذا التعبير بالنسبة للجن والروح والملائكة، إلا أن العرف في الشرع حتى الآن هو في استعماله للكائنات المادية الموجودة على الأرض. لذا يمكن القول بأنه من المحتمل أن الله تعالى خلق في السماوات مخلوقات مثل الإنسان وغيره من الأحياء الأخرى، وأنه يستطيع إن شاء أن يجمعهم معا. وكما سيجمع كل الناس وكل شيء ويحشرهم في العالم الآخر، كذلك يستطيع جمع المخلوقات الموجودة في أركان الكون معا.

ومع أن بعض المفسرين ذكروا أن الطيور هي المقصودة من تعبير الدابة الموجودة في السماء، ولكن هذا تفسير بارد ولا يستطيع حدس الجانب الإعجازي هنا. والأفضل والأنسب قبول وجود مخلوقات في نظم بعيدة وقريبة مشابهة للمخلوقات الموجودة على الأرض مثلما قال وذهب إليه الإمام مجاهد.

ونحن ندع هذا الموضوع للعلماء والباحثين المؤمنين في المستقبل نرى عدم استبعاد وجود عوالم أخرى في أرجاء الكون مشابهة لعالمنا ووجود مخلوقات وكائنات فيها.

والله أعلم بالصواب.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]

لا يخالف المنطق الشرعي أن نقول بأن كل مصيبة تصيبنا هي عقاب على إثم اجترحناه. ولكن لو عوقبنا على كل ذنب اقترفناه لتزاحمت المصائب على رؤوسنا ولما وجدنا فرصة للراحة. أي لو عوقبنا بالأفعال التي تكون خارجة عن رضاه في كلامنا ومجالسنا وتجولنا لما سنحت لنا فرصة للهدوء. وهذا يعني أن الله تعالى الذي سبقت رحمته عذابه يعفو عن الكثير من ذنوبنا، ومن يدري كم من المرات يعفو عنا في اليوم الواحد، وهذا هو ما تسجله الآية الكريمة ﴿ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

والحقيقة إن معرفة الإنسان بأن المصائب التي تصيبه هي نتيجة أعماله وما اقترفته يداه هي من أمر القرآن. وأي تفكير مخالف لهذا يسوق الإنسان إلى التفتيش عن متهم ومذنب خارجي. ومثل هذا الإنسان لن يجد مثل هذا المذنب، ولا يتخلص عن إثم سوء الظن.

أجل!... يعطينا القرآن مقياسا في البحث عن المذنب: المذنب ليس شخصا آخر، بل هو أنفسنا. لنقل مثلا إننا تعثرنا -نتيجة سهو وعدم انتباه- بقدح وكسرناه وانسكب الشاي الموجود فيه وأحرق قدمنا. في مثل هذه الحالة لا يفيدنا الغضب والبحث عن مذنب والصراخ: "من وضع هذا القدح هنا؟". بل علينا أن نرجع إلى أنفسنا ونقول: "يا رب!... لا وجود للمصادفة في حوادث الكون. يجوز أن يكون هذا عقابا لي على ما اقترفته... فاغفر لي ذنوبي". ولا نقوم بتوبيخ الآخرين. فإن قمنا بالتفتيش عن مذنبين آخرين كنا قد تصرفنا ضد الآية الكريمة ﴿وَلاَ تُزَكُّو أَنْفُسَكُم﴾ (النجم:

٣٢). كما يتضمن أيضا سوء الظن بالآخرين أي مخالفة للآية الكريمة ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ (الحجرات: ١٢).

أجل!... إن اتهام الشخص لنفسه عند وقوع المصيبة يسوق الإنسان إلى مراقبة النفس. ألم يكن رسول الله ﷺ يفزع إلى الصلاة وإلى الدعاء والتوجه إلى الله والاستغفار منه عند كل ملمة تلم به؟.

وكلمة "أيديكم" الواردة في الآية الكريمة لا تعني الذنوب التي تقترفونها بأيديكم فقط، بل تعني كل الذنوب التي تشارك فيها أيديكم وأرجلكم وسمعكم وأبصاركم... الخ. أي جميع الأعمال التي يشارك في أدائها جميع أعضائكم. لذا يمكن النظر إلى جميع الذنوب -بدءً من الغيبة ووصولاً إلى الزنا- من هذا المنظار.

أحياناً يوجد هناك تناسب بين كيفية مجيء المصائب وثقلها وبين الأخطاء والذنوب المرتكبة، وأحياناً لا يوجد. غير أن كل مصيبة تعد بالنسبة للمؤمن حوض تصفية وتطهير، يذهب إليه المؤمن ويتطهر من ذنوبه، فيحافظ على النقاء الموجود في سريرته ويصونه.

في حديث شريف يرويه ابن أبي حاتم يقول رسولنا الطاهر المطهر ﷺ: "لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر".[1] وسواء أغفر الله تعالى تلك الذنوب مباشرة، أو تحويلها إلى مصائب وتطهير الإنسان بها فإن الإنسان لن يبقى متلطخا بالذنوب. فكما قال علي رضي الله عنه فإن الله تعالى أعدل من أن يحاسب عبداً يوم القيامة عن ذنب سبق وأن غفره له، ولا أن يعاقبه يوم القيامة على ذنب سبق وأن عاقبه بسببه في الدنيا.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تفسير الآية أعلاه؛ كنـز العُمّال لعليّ المتقي، ٣٤١/٣، ٧٠٧.

سورة الفتح

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]

إذا أردنا إجراء مقارنة مرتبطة بهذه الآية بين اليهودية والمسيحية والإسلام نقول:

أرسل النبي عيسى عليه السلام إلى مجتمع مادي إلى درجة كبيرة. ولإصلاح مثل هذا المجتمع المادي خرج النبي عيسى عليه السلام بدين روحاني فاصلح أفكارهم وميولهم المادية.

أما المجتمعات التي أقامت الدين على أساس من الوثنية فمن الصعب جدا التخلص من إيحاءات هذا الدين الوثني والوصول إلى فكر ديني جديد. وقد قام السيد المسيح عليه السلام بتعديل الغلواء المادي للمجتمع الذي بعث إليه وفتح أمامه بابا للروحانية. وفي الوقت نفسه أسس توازنا بالوحي السماوي بين الروح والمادة دون إفراط أو تفريط بأحدهما على حساب الآخر. ولكن

الذين جاءوا من بعده من منتسبي هذا الدين لم يستطيعوا الحفاظ على هذا التوازن. لأنهم اتجهوا بمرور الزمن نحو الروحانية إلى درجة إنكار المادة. والقرآن الكريم يذكر أنهم ابتدعوا رهبانية لم يراعوها حق رعايتها[١] وكانوا يظنون أنهم وصلوا إلى قيم سامية فوق جميع القيم الأخرى، بينما لم يكتب الله عليهم هذه الرهبانية. من أجل مرضاة الله ابتدعوا شيئا لم يكن في روح الدين، ثم غُلبوا على أمرهم تحت ثقل ما ابتدعوه، وابتعدوا عن أصل الدين. بينما كانت الطيبات واللذائذ في الإطار المشروع مباحة وكافية من جهة وضرورية من جهة أخرى. فالحياة العائلية والأولاد من ضروريات الحياة وحاجاتها للإنسان. وعندما استنكف البعض منهم من هذه الضروريات الحياتية لوثوا حياتهم بالأشكال غير المشروعة من هذه الحاجات.

نجد في النصرانية أشكالاً أخرى كثيرة أمثال هذا التغيير والتبديل، فنجد في إنجيل يوحنا "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر". وقد يمكن تقييم هذا المعنى وهذا الروح اليوم بالنظر إليه وكأنه شكل آخر من التعبير الآتي الدارج "كن تجاه من يضربك بلا يد وتجاه من يشتمك بلا لسان". غير أن الخطأ البارز هنا أنه يقود الناس إلى التسليم بالظلم وقبوله وهذا شيء خاطئ. لأن الظالم لا يشبع أبدا من الظلم. وقد تعرضت المسيحية في بداية ظهورها إلى أنواع مختلفة من القهر ومن الضغوط، ولم تجد أمامها فرصة سانحة للتعبير عن نفسها. فأمام هذا الظلم تم تلقينهم بعدم مقابلة الاعتداء بالمثل. ثم أصبح هذا سمة خاصة وطبعاً خاصاً بهم فيما بعد. وتبنوا مبدأ عدم الحرب وعدم مجابهة الاعتداء أو الكفاح ضده والعيش في حياة رهبانية. ولكن عندما نتفحص مدى انعكاس هذا الأمر في الحياة الواقعية والعملية نرى منظرا قاتما لا ينسجم مع هذا المبدأ. لأننا نراهم يقومون في مختلف أرجاء العالم بسلوك مخالف تماما لهذا المبدأ مع الأسف ويشبعون الحاجات

---

(١) انظر: الحديد ٢٧.

الفطرية الموجودة لدى الإنسان بطرق غير شرعية، وبالتسبب في حروب لا تزال آثارها تمتد إلى يومنا هذا، وفي القضاء على أنفس بريئة ظلماً ودون وجه حق.

إن الحركة الإصلاحية التي جاء بها السيد المسيح عليه السلام، فتحت الطرق المؤدية إلى مفخرة الإنسانية وخاتم الأنبياء ﷺ الذي كان قد بشر به أيضاً. ولكن الذين جاءوا من بعده قاموا كرد فعل للإفراط اليهودي المادي بالتفريط وأنكروا المادة. والآية الطويلة في آخر سورة الفتح تشير إلى هذا الموضوع وتنيره. ونحب إيضاح بعض الأمور فيما يتعلق بهذه الآية:

تبدأ الآية بـ﴿مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾، أي بدأت بالتأكيد على نبوة ورسالة رسولنا ﷺ. ولأنه تم بيان هذه الحقيقة في أماكن مختلفة من القرآن، فقد ذكرت هنا بشكل مجمل. أما هذه الآية فقد قامت بتسليط الأضواء على الناس الموجودين حواليه من صحابته بمختلف أوصافهم وصفاتهم، وبجوانبهم المختلفة.

حقيقة ﴿مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ حقيقة مهمة وحيوية جدا وقد قال الشاعر سعد الشيرازي وكذلك الأستاذ النورسي عنها في كتابه "المكتوبات": "من المحال وجود أمان أو طريق آمن دون ذكر "محمد رسول الله". وقال المفكر والأديب التركي المعروف "نجيب فاضل" عند بيان هذه الحقيقة بأن الفيلسوف باسكال جرى خلف الحقيقة وأوشك أن يدركها، ولكنه لكونه لم يقل "محمد رسول الله" لم يلحق سفينة النجاة وفاتته مع أنه كان قد بلغ حافة الميناء. أجل!... فمن لم يصل إلى رسولنا ﷺ فمن الصعب عليه بلوغ ساحل السلامة.

والآن لنرجع إلى جهة علاقة الآية مع موضوعنا: كل من بلغ معية النبوة مع النبي بلغ المعية الإلهية. فمن هذه الجهة يجوز أن تكون المعية مع رسولنا ﷺ في العالم المادي وعالم الخلق كمسقط هندسي للمعية الإلهية في عالم

الأمر. وعندما نقول المعية النبوية نقصد ما جاء في آية ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾. أما تكملة الآية فتتحدث عن مزايا وصفات هؤلاء الذين استطاعوا الوصول إلى هذا الأفق.

إحدى هذه المزايا أنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾. أي أنهم أشداء على الذين قاموا بإخماد قابلية الإيمان في نفوسهم، وكذبوا بكل آيات الله المبثوثة في العالم أمام الأنظار، وانحرفوا إلى الإلحاد والإنكار وحاولوا إطفاء نور الله بأفواههم.

المزية الثانية أنهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ لأنهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾، أي أصبحوا في أكثر الأوضاع قربا من الله. وهم في الوقت نفسه يعلمون أن كل شيء هو من فضل الله تعالى. وغايتهم في نهاية المطاف هي إحراز رضوان الله تعالى والحصول عليه، لذا نرى أن ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ﴾ والتوراة هي الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ولكن حرف من بعده، فأخذت الأهواء فيها مكان أوامر الله تعالى، وأخذت المادية مكان الروح. وعندما تتناول التوراة وصف الأمة المحمدية تتناولها من الناحية المعنوية والروحية. ومن جهة أخرى ﴿وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ والزرع شيء مادي يظهر من البذور. والبذرة جسم مادي محمل ببرنامج الحياة مثلها في ذلك مثل البيضة التي تحمل عقدة الحياة أو مثل الحيوان المنوي في الإنسان. ﴿أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾، والشطء أي ورق الزرع أو فراخ النخل شيء مادي أيضا. وفي كلمة "الشطء" تكمن موسيقى كأنها تصور ظهور الزرع. وكل كلمة في هذه الآية مختارة بصورة دقيقة وكاملة، ومشغولة مثل تطريز الدانتيللا.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي نما وكبر، وهنا أيضاً نجد التشبيه مادياً، لأنه ليس من الممكن استغلاظ الروح أو الناحية المعنوية.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ أي قام على ساقه واستوى. وسوق الإنسان هو ساقه، أما في النبات فهو جذعه.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي يفرح به الزارع الذي بذر البذور في الأرض.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾ ولا تكون هـذه الإغاظة إلا بعد ملء عيـون الآخرين بما يدهشهم ويخيفهم. وكل هذه الأمور متعلقة بالمادة.

إذا تأملنا الآية نرى أن التشبيهات الواردة في الإنجيل تعكس فهما مادياً صرفاً، وتجلب الأنظار إلى الجوانب المحسوسة من الأشياء. أما الحقائق المذكورة في التوراة فلا يوجد في أي واحدة منها ما يمكن لمسه أو رؤيته، أو أي شيء متعلق بالمحسوسات، بل كلها حقائق مجردة كأنها متعلقة بعالم الأمر ومن المفاهيم المعنوية. وهذا الأمر الدقيق مهم جـدا من ناحية فهم وضع سيدنا المسيح عليه السلام. فقد كلف السـيد المسيح عليه السلام بمهمة تعديل مادية اليهود. والإنسان الـذي يأتي بمثل هذه المهمة والوظيفة يجب تجهيزه بما يساعده على هذه المهمة. لقد نشأ أول ما جاء إلى الدنيا في أسـرة جيدة. وتولت مريم عليها السلام التي لا يمكن ذكر امرأة أخرى يمكن أن تدانيها من ناحية التربية. ويذكر القرآن في آيـات مختلفة -بانتقاء ممتاز للكلمات- صفاتها ومزاياها. فهذه المرأة العظيمة كانت مهتمة بعفتها إلى درجة أنها وجلت جدا حتى أمام الملك الذي بدا لها.

كانت أم مريم قد نذرت ما في بطنها لله، أي ليكون خادما في المعبد. ولكن عندما ولدت أنثى حزنت وتأثرت ﴿قَالَتْ رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾. ولكن بما أن النذر كان لجعل المولود خادماً في المعبد فقد تركت مريم في المعبد على الرغم من كل شيء. ونشأت مريم في الجو الروحي للمعبد، ثم حملت باليد المسيح عليه السلام -الذي جاء بمهمة متميزة- بشكل خارق وغير اعتيادي.

والخلاصة أن السيد المسيح عليه السلام ولد من أم كانت حياتها مملوءة بالأشياء الخارقة وغير الاعتيادية، ونشأ في عناية الله وصيانته كإنسان اسـتعلى فيه

الجانب الروحي. لأنه أرســـل إلى مجتمع وإلى قوم طغى فيهم الجانب المادي منذ سنوات طويلة، حتى أصبحت المادية عندهم كالدين يصعب جداً هدمه وإزالته أو تغييره وتجديده. مما دفعه إلى النضال مع مثل هذا المجتمع طوال حياته. وعندما أرسل السيد المسيح بهذه المهمة كنبي كان من الضروري أن يكون مجهزا بما يشبع حاجات ومتطلبات مثل هؤلاء الناس، وناضل ضد المفهوم الذي ألّه المادة، وساعده على هذا أنه جاء من غير أب وقام بمعجزات عديدة بإذن الله كإحياء الموتى وإبراء الأمراض المستعصية، وغيرها من المعجزات. وهكذا اســـتطاع تعديل الفكر المادي، وفتح الطريق أمام التفكير المعنوي والروحي، وبذلك مهد الطريق لخاتم الأنبياء والرسل ومفخرة الإنسانية ﷺ.

ولا شك أن النبي العظيم وصاحب مقام الجمع ﷺ الذي جاء بعد هذين النبيين قام بتعديل بعض الأمور المتعلقة بأمتيهما وزمانيهما حسب ما يقتضيه تغير الظروف والزمان، وأن يستخلص من شرعهما -اللذين يبدوان مختلفين عن بعضهما ولكنهما في الأصل أجـــزاء من كل واحد- مشربا ومذاقا جديدين، وصراطاً مستقيماً، ولكن هذه الأشياء المستخلصة هي في الحقيقة لمعات من مزاج هذين النبيين الكريمين وأمزجة الأنبياء الآخرين التي تم التعبير عنها في كتبهم.

الله أعلم بالصواب.

سورة النجم

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: ١٨]

كما هو معلوم فهذه الآية تصف ما جرى عند معراج رسولنا ﷺ. وعلاوة على هذه الجهة من الآية، فهي تفتح الباب على حقائق أخرى خارج هذا الموضوع الخاص.

إن قيام الرسول ﷺ بمشاهدة الأدلة الآفاقية والأنفسية حول وجود الله تعالى بعينيه، وقيامه بتقييم هذه المشاهدة العينية بمشاهدة داخلية عميقة وبحدس يحيط بأبعادها الحقيقية نتيجة لطف من ألطاف الله. أجل!... فمشاهدة هذا الإنسان العظيم يجب أن تكون مشاهدة كلية لأنه يملك نظراً كلياً. وبهذا الاعتبار يستطيع مشاهدة التجليات الإلهية دون مانع ولا حائل ولا ستار ولا عائق. والكلام الذي يقوله ويتفوه به مثل هذا الإنسان المالك لهذا الأفق الواسع الرحب لا يمكن لأي إنسان عادي أن يعارضه أو ينتقده. فلا شك أن نظر من يقف على الأرض ويتأمل السماء، ليس مثل نظر الجالس في بيته ولا يستطيع مشاهدة أبعد من أنفه.

وسواء أنظرنا إلى "الآية" و "الكبرى" هنا على أساس أنهما صفة وموصوف، أم عددنا "من" هنا زائدة وعند ذلك يكون المعنى أنه شاهد آيات ربه الكبرى. إذن فهذا الرسول الجليل القدر في رحلته وراء الزمان والمكان رأى من معجزات ربه، ومن آياته الباهرة، ومن العجائب الموجودة وراء الأستار ما يجل عن الوصف، وتقابل مع العلامات العظمى وجها لوجه، وتسنت له مشاهدة آفاق لم يتسن لأحد مشاهدتها، وما كان بقدرة

أي كلام أو بيان وصف التجليات الإلهية التي شاهدها وهو يتجول في المقامات والمراتب العليا. لقد أحس وحده في الآفاق التي تجول فيها بالأنوار والأســـرار، وهو الذي سمعها فقط. ولم يكن باستطاعة أحد غيره، ولا بمقدوره تحمل هذه المشاهدة الكلية الواسعة المتمثلة في الآية الكبرى. ولم تكن الآية الكبرى هو الله الأحد الصمد. أي أن ما رآه لم يكن ذات الله تعالى، بل آيته الكبرى. فالوجود كله من بدئه إلى منتهاه ليس إلا آيات دالات على الحق تعالى وإشارات إليه وتعبير عنه. وحسب آية ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) فلا يمكن الإحاطة بالله أو إدراكه فهو أمر ستحيل ولا يمكن الحديث عنه. ولكن رؤيته ممكنة. ولكن الآية تصرح بأن المُشاهَد لم يكن هو بل آيته الكبرى الميسرة لرسولنا ﷺ.

واستناداً إلى حقيقة كون الرسول ﷺ حبر كتاب الكون ونواة شجرة الخلق، ونور نوع الإنسان نستطيع أن نقول إن هذه الرؤية والمشاهدة كانت قراءة لكتاب حقيقته ومشاهدة لشجرة وغصن وأوراق وثمرة ماهيته المنكشفة؛ وإن مثل هذه الســـياحة تمت في موضع فوق الزمان والمكان، موضع يسمع فيه صرير قلم القدر الذي قام بتصميم وتخطيط الوجود الأول، في ظل العرش وفي أفق الرضوان والفضل.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

سورة الرحمن

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾ [الرحمن: ١٧]

تبدو هذه الآية في الوهلة الأولى وكأنها تشير إلى حدود المشرقين والمغربين.

فمثلاً يختلف المشرق والمغرب في فصل الصيف عن المشرق والمغرب في فصل الشتاء. فالشمس في الصيف تغرب في أقصى المغرب وتشرق من أقصى المشرق. وفي فصل الشتاء تشرق الشمس من أدنى المشرق وتغرب في أدنى المغرب. إذن فالشمس تشرق كل يوم من مشارق مختلفة وتغرب في مغارب مختلفة. وهذا يعني وجود مشارق ومغارب مختلفة بين أقصى المشرقين وبين أقصى المغربين. لذا قيل هنا ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن: ١٧).

لذا فانطلاقاً من هذه الملاحظة نقول إنه مع وجود مشرق ومغرب مختلف كل يوم، فقد تم تناول مشرقين ومغربين يمثلان الحدود القصوى للشروق والغروب وترجع المشارق والمغارب النسبية بين هذين الحدين كل إلى القطب القريب منه. هذا علما بأن القرآن الكريم عندما تناول جميع الأبعاد بنظر الاعتبار ذكر المشارق والمغارب بصيغة الجمع فقال: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠).

فذكر بجانب بُعد المشرق -الذي هو المبدأ والأصل- بُعد المغرب الذي يعد تابعاً واستمراراً له.

إضافة إلى الشمس والقمر قد تكون جميع الأجرام السماوية التي تشرق

وتغرب بالنسبة لكرتنا الأرضية مقصودة أيضاً بهذه الآية. وقد يكون هذا الأسلوب المستعمل هو للإشـــارة إلى اختلاف مطالع الشروق واختلاف مطالع الغروب الناتجة من دوران الأرض حول محورها.

وقد ينتج عن دوران الأرض حول الشمس، ودوران الشمس حول محور معين ضمن مجرة درب التبانة وهي منطلقة في طريقها مشرقين ومغربين، فيكون هذان الجرمان السماويان -أي الأرض والشمس- إشارتين إلهيتين مباشرتين -أما غيرهما فإشارات غير مباشرة- حول القدرة الإلهية من جهة وتذكيرا بنعم الله تعالى من جهة أخرى.

قلنا إن الشروق والغروب يشير إلى القدرة والنعم الإلهية... أما القدرة فلكونها ضماناً للجنة وللخلود، وأما النعمة فبسبب الاستجابة إلى مطالبنا الروحية والجسدية مما يستدعي الشكر وعدم الوقوع في الجحود ونكران الجميل. نتذكر هذا ونتساءل على الدوام ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾ (الرحمن: ١٣)... نقول هذا ونستغرق في الشكر والحمد.

الله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

سورة الواقعة

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧]

آهٍ من الإنسان القاسي القلب!... إن الله تعالى بعلمه الأزلي يعلم هذا الوضع فيقوم بتعزيز ما يريد بيانه له بالقسم.

على الإنسان أن يستحي من هذا ويخجل، ويتصبب عرقا، وترتجف شفتاه، وأن يهتز وهو يقرأ مثل هذه الآيات. فرب هذا الإنسان لكي يبين ويشرح له بأن القرآن كتاب كريم، ويبرهن على ذلك يحشد الأدلة تلو الأدلة ثم يضيف إليها قسما عظيما.

هناك أمثلة كثيرة في القرآن على هذا القسم. فالله تعالى يقسم أحياناً بالنجوم وأحياناً بالشمس أو بالقمر أو بالسماوات. ويقسم أحيانا بنعمه الأرضية: بالزيتون وبالتين. وقسمه بالطور من هذا النوع أيضاً. ويقسم أحياناً بالنهار وبالليل. ولا شك أن هناك حكماً وأسراراً عديدة وراء أمثال هذا القسم.

وفي آية ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١) قسم بالنجم. ويمكن فهم الآتي من هذا القسم: "قسماً بالنجم الذي يعرج إلى السماء ثم يرجع منها". لذا نجد هنا توافقا من زاوية كون هذه السورة تتناول مسألة معراج النبي ﷺ. فإذا كان هذا هو المقصود فإن أحد الاحتمالات هو أن هذا النجم هو النبي ﷺ نفسه. أجل... فقد ذهب من الخلق إلى الخالق، ثم رجع من عند الخالق إلى الخلق.

أجل!... إن الرسول ﷺ الذي لم يزغ بصره أمام مناظر الجنة وأمام جميع أشكال الجمال والآيات التي أراها له ربه تعالى قفل راجعاً إلى دنيا الفساد هذه ليحدث الآخرين بالنعم التي أنعمها الله عليه وليأخذ بأيدينا ويرشدنا... وهذا الأمر مرتبط بحقيقة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١) وأحد التوجيهات الموجودة فيها. والقسَم هنا بالكرامة وبالشأن السامي لنبينا ﷺ يحمل دلالات ومعانيَ عديدة. أجل!... ذلك النجم هو نبينا ﷺ. وهو علاوة على المزايا والفضائل التي كان يملكها في الأصل، رجع -بعد أن أصبح مظهرا لنعم عديدة في المعراج- محمدا آخر، فكان رجوعه ونـــزوله شيئاً فريداً ومتميزاً لم يحدث في التاريخ لأي شخص آخر، وحادثة متميزة. لذا وبناءً على فضائله الأصلية ثم ما اكتسبه بالمعراج يقسم الله تعالى به. وفي سورة الإسراء يرى بعض المفسرين أن آيـــة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) تشير إلى الرســـول ﷺ، أي أن الله تعالى يسند بعض صفاته إلى رسوله ﷺ. وهنا يقسم الله تعالى به وبمنـــزلته الكبيرة عنده عندما يقول ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١).

وفي آية ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (الشمس: ١) يقسم الله تعالى بالشمس وبالضحى. وفي آية ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَـــجَى﴾ (الضحى: ٢) يقسم تعالى بالليل لكونه وقتا للراحة وبالظلام الذي يغطي الليل. ثم يقسم بالنهار الذي يخرق الليل ويزيله. أي يقسم بالدور الدائم المتكرر الموجود في الكون وبالنعم الإلهية والألطاف المهداة إلى الناس.

وفي موضع آخر نرى القسم الآتي ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِـــينِينَ﴾ (التين: ١-٢) أي القسم بالتين وبالزيتون وبالطور. والطور مكان مقدس كان مظهرا للخطاب الإلهي لموسى عليه السلام. وهذا الفضل الإلهي لموسى عليه السلام كان نقطة البداية لبعث أمة. وكان موسى عليه السلام يأخذ هناك الأوامر ويوقظ بها شعبا للحياة الحقيقية. لذا كان الطور بقعة يستحق القسم بـــها.

وكما قلنا في البداية فهناك العديد من أمثلة القسم هذه في القرآن الكريم. ومن أمثلة هذا القسم هو القسم بمواقع النجوم.

لقد قيل ما يأتي منذ القديم:

١- النجوم مهمة للإنسان في كل عهد وزمان. فقد وجدت علاقة بين النجوم وبين الإنسان على الدوام. وأقل هذه العلاقة اهتداء الإنسان بالنجوم وتعيينه اتجاهه بها. وتشير آية أخرى إلى هذه الحقيقة فتقول ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

وعلاوة على تعيين الجهات والمواقع بالنجوم في البر والبحر، فإن كل نجم وكل مجموعة من النجوم تشير إلى النظام الدقيق الموجود في الكون فتقوم بلسان التناغم والنظام وبلسان الحقائق الموجودة وراء الأستار بهمسات في قلوبنا تحركها فتكون وسيلة للهداية مثل نجمة قرآنية لذا نرى الله تعالى يقول ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. ومن يدري فلعل وجود هذه العلاقة بين النجوم وبين الإنسان هي السبب في قسم الله تعالى بمواقع النجوم. لأن النجوم إن لم تكن موجودة في مواقع معينة ومعلومة ما كان باستطاعة الإنسان الاستفادة منها بهذا الشكل.

٢- لكي تصل الشمس والمجموعة الشمسية لحالها الحاضر، وكذلك لكي تكسب الدنيا شكلها الحالي يجب توفر المئات من الشروط. فمثلا هروب الغازات من الغلاف الجوي سيؤدي إلى تخلخل التوازنات وإلى خلل في بنية الغلاف الجوي، فلا يعود ملائما للحياة.

وعندما ندقق وندرك هذا لا يسعنا إلا الانبهار والإعجاب، ونقوم باستنباط الأدلة منه على وجود الله وعلى وحدانيته. لذا فقسم الله تعالى بهذه النجوم وبمواقعها والتي تشكل دليلاً عليه وعلى وحدانيته شيء معقول وفي محله. وإذا خرجنا خارج المجموعة الشمسية وضمن مجرتنا مجرة درب التبانة نرى مجموعات أخرى عديدة فيها. وكل مجموعة موضوعة في مكانها وفي موقعها الصحيح. إن تصادم ذرتين فقط ببعضهما يؤدي إلى قيام القيامة فما بالك بتصادم هذه الأجسام الهائلة في الفضاء الكوني نتيجة أي

خلل في التوازن. إن الإنسان ليرتعب من مجرد التفكير في هذا. ومع أنه كان من المفروض ظهور خلل في التوازن نتيجة هذا التعقيد الشديد ونتيجة هذه الكثرة في الأجسام في الكون. إلا أن النجوم موجودة ضمن نظام مذهل بقدرة الله تعالى. ومع أننا نحاول تفسير هذا التوازن بقوى الجذب والدفع، إلا أن وراء هذا النظام الدقيق توجد القدرة اللاهائية لله تعالى. والله تعالى ينبهنا إلى هذا بقوله ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النّجُومِ﴾ (الواقعة: ٧٥) ويجلب نظرنا إلى تدبيره وتصريفه للأمور.

٣- يمكن الانتقال من هذه الآية إلى أمر آخر وهو أن النجوم موجودة في أماكنها الصحيحة بشكل دقيق بحيث لو قمت بدراسة حول مجموعة منها حصلت على معلومات صحيحة ومفيدة للنظم الأخرى منها. بل ربما استطعت القيام بتأسيس مدن فيها. أجل فما أن تفهم إحداها حتى تكون قد حصلت على معلومات حول الأخرى بشكل أوتوماتيكي. لأنها منظمة بشكل دقيق، وليس هناك أي عشوائية أو اضطراب أو فوضى فيها. بل هناك نظام وانتظام دقيق جداً. ولو تأملنا لرأينا في سورة الرحمن أن الله تعالى أظهر رحمانيته بهذا التوازن والنظام المذهل. فبعد اسم الله تعالى نرى أن من أوائل الأسماء الحسنى له هو اسم "الرحمن" الذي يأتي بمعنى الرزاق. ففي "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَن" يأتي اسم الرحمن بعد لفظ "الله". وقد وردت صفة الرحمن بعد لفظ الجلالة في ١١٤ مرة في القرآن في البسملة فقط. وهذه الصفة الواردة جنبا إلى جنب مع لفظ الجلالة نراها واردة في مقدمة سورة "الرحمن" مشيرة إلى أنها من أهم النعم المقدمة للإنسان.

في أول سورة "الرحمن" نجد ورود ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (الرحمن: ١)، ثم ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ٢) كتجل من تجليات هذه الرحمة، فهل هناك رحمة أكبر من تعليم القرآن؟ أجل!... لو لم نبصر أنوار القرآن، ولو لم تقم رسائله بتنوير عالمنا لكان الكون بالنسبة إلينا عالم مأتم عام، ولكانت الكائنات

بأجمعها بالنسبة إلينا كالتوابيت فاقدة للحياة ولا تثير عندنا سوى الوحشة والرعب والفزع. لذا فما كان باستطاعتنا رؤية ومعرفة الوجه الحقيقي والمعنى الحقيقي لأي شيء. لقد استطعنا بفضل أنوار القرآن الكريم معرفة معنى وحكمة كل شيء. وأدركنا أننا أهم أنموذج للوجود. والأمور التي لم يدركها الآخرون باسم العلم أدركناها نحن بنور القرآن فنجونا من الحيرة ومن الخوف. وعندما دققنا الوجود بروح القرآن أدركنا أمورا لم يصل الآخرون إلى مثقال خردل منها، ولم يعرفوا حتى اسمها وعنوانها. لقد أبصرنا بنوره أينما حولنا نظرنا كل شيء بوضوح وجلاء.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن:٣-٤) هنا يبين الله تعالى رحمته ورحمانيته بأنه علمنا البيان. فلو كنا بكما، وبتعبير آخر لو لم يكن في استطاعتنا أن نكون ترجمانا لهذا الكون الذي يتكلم بألف لسان، ولو لم يكن باستطاعتنا فهم البيان الرباني وتدريسه لبعضنا البعض، أي لو لم يكن فهم هذا الكون الرائع بالبيان الآتي من صفة الكلام عنده تعالى لما كان بقدرتنا فهم النقوش الدقيقة والمعاني العميقة في الكون.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن:٥) أي إن الشمس والقمر وضعا بحساب دقيق في مواضعهما، وهما يحتلان موقعاً مهماً، وإن الضوء والنور الصادر منهما عندما يصلان إلينا من خلال الغلاف الجوي ويلامسان أعيننا في صورة محببة لمنظر البدر، وتبدو من خلال هذا وجود إرادة مدهشة وضع كل شيء في مخطط محفوظ ومصان. وهذا إظهار لرحمة الله ورحمانيته بمستوى آخر. ولو لم تضع الرحمة الإلهية مثل هذا النظام القائم على حسابات دقيقة لكنا هباءً منثوراً بين الأجسام المتصادمة بعضها مع البعض الآخر. صحيح قد تتساقط أحياناً بعض الأحجار من السماء، ولكنها لا تشكل أي خطر جدي، ولا أي مشكلة حقيقية. فلم تحطم هذه الشهب أو النيازك رأس إنسان ولا قلعت له عينا. إذن فهي تصطدم بدرع الصيانة

الإلهية وتتحطم. وتستطيع أنت البحث عن سبب لتفسير الأمر فتقول بأنها تصطدم بالغازات المكونة للغلاف الجوي وتحترق وتتحطم. ولكن أيا كان السبب فإن مجموعة جميع الأسباب ليست إلا تجسماً للعناية الإلهية. فالله تعالى وضع كل شيء داخل نظام وضمن حساب دقيق. وهكذا يلاحظ هذا المعنى أيضاً في موضوع مواقع النجوم.

٤- إن نجمة القطب وموقعها المتميز بين النجوم وفائدتها لنا في تعيين الاتجاهات، والمجموعة الشمسية وموقعها ضمن مجرة درب التبانة، ومجرة درب التبانة وموقعها المتميز بين عنقود المجرات، وعنقود المجرات التي توجد فيها مجرتنا وموقعها بين عناقيد المجرات الأخرى وتلاؤم بعضها مع البعض الآخر، وكذلك كون كل كوكب في المجموعة الشمسية على بعد معين ومناسب من الشمس... كل هذه الأمور تشير إلى أن كل شيء في هذا الكون منظم بشكل رائع ومذهل وكأنه قصيدة شعرية جميلة، كما تدل على أهمية مواقع النجوم.

٥- يتم تناول مواقع النجوم في الشرق وفي الغرب بشكل مختلف. ففي روسيا مثلا يستعملون تعبير "الأماكن التي حطت فيها النجوم". بينما لا يستعمل هذا التعبير في الغرب إلا حول الثقوب السوداء أو البيضاء. والحقيقة أنه بجانب المسائل التي يحاول العلم حلها هناك العديد من الألغاز التي تنتظر الحل. وعندما يحل العلم مسألة ما تظهر أمامه فجأة مسألتان أو أكثر.

ويقول بعض المفسرين المعاصرين بأن "مواقع النجوم" إنما تشير إلى الكوازارات والنجوم النابضة. والثقوب البيضاء مصدر ومنبع هائل جدا للطاقة، واليوم يمكن مشاهدتها وتثبيت مواقعها. ويقول العلماء اليوم: إن الثقوب البيضاء بمثابة مزرعة للنجوم تنشأ فيها هذه النجوم ومجموعات النجوم وتنمو. أجل!... إن هذه الثقوب البيضاء تملك طاقات هائلة بحيث لو انمحت مجرة درب التبانة مثلا فجأة بقدرة الله تعالى لكان بمقدور ثقب

أبيض واحد تشكيل مجرة مثل مجرة درب التبانة من جديد. لقد وضعت هذه الأجسام السماوية الهائلة في جسد الكون بدقة متناهية لكي تقوم بوظائفها المدهشة والهائلة بتناغم وتلاؤم ودقة. إذن يبدو أن مواقع النجوم لها دور كبير في النظام الساري الظاهر في الكون. ويقول العلماء الروس عن هذه المواقع بأنها الأماكن التي تنشأ فيها النجيمات ثم تكبر. وهذا القول مهم من ناحية وهي تصديق بأن القرآن يعرف الماضي والمستقبل كمعرفته للحاضر، وأنه أشار إلى "مواقع النجوم" في هذا العالم العجيب.

٦- ثم الثقوب السوداء... هذه النجوم المؤلفة من الإلكترونات والنوى "النوى: جمع نواة". فحينما تفقد الإلكترونات طاقتها تنهار، وعندما تنهار النوى ويتراكم بعضها على بعض تتحول النجوم العملاقة إلى نجوم قزمة. فإن كانت هذه النجوم بحجم الشمس أو أصغر منها تحولت إلى نجوم نابضة. ومع أن هذه النجوم لا تفقد شيئاً من كتلتها ووزنها إلا أن حجمها يصغر جداً، ثم تتحول إلى ثقوب سوداء كبيرة. وهذه الثقوب لا ترى ولكن الضوء المار بقربها يختفي، أي يتم امتصاصه من قبل هذه الثقوب. ويتسارع الزمن فيها. وعندما تختفي الأشـــياء في دوامة هذه الثقوب تحدث أمور تحفها الأسرار، فمثلا إن اقتربت مجموعة كالمجموعة الشمسية من هذه الثقوب السوداء أصبحت لقمة سائغة لها وتحطمت واختفت فيها. ويقول بعض علماءِ الفيزياء الفلكية عن هذه الثقوب السوداء بأنها "مواقع النجوم".

٧- كان المقصود حتى الآن من النجوم هـــو الأنبياء العظام. فمثلاً آية ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (الطارق: ٣) تشير إلى النجم الثاقب أي النجم الذي ينفذ ويضيء حتى القلوب القاسية المغلقة. وهذا النجم هو رسولنا ﷺ. وكل نبي يعد في وجه من الوجوه نجما بالنسبة لعصره وبموجب مهمة النبوة التي يحملها. والذين يتبعون هؤلاء الأنبياء يسمون ثم يسمون حتى يكونون على صلة وثيقة بالله تعالى. وعندما يقسم الله تعالى بمواقع النجوم يجلب الأنظار

على المواقع السامية لإبراهيم ولنوح ولموسى عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء العظام وللموقع والمنـــزلة الرفيعة السامية لرسولنا ﷺ. وهذا الأمر مهم خاصة بالنسبة لزاوية التفسير الأشعري.

٨- وأود أن ألفت انتباهكم إلى نقطة أخرى ذات معنى عميق وهي أن كلمة "نجم" تطلق على آيات القرآن الكريم. فالمفسرون يقولون: "إن القرآن نـــزل منجماً"، أي نجماً نجماً. ولآيات القرآن الكريم مواقع أيضاً. وللآيات القرآنية موقع عظيم عند العلم الإلهي لا نستطيع مجرد تصوره. فنحن لا نستطيع رؤية قوة صفة الكلام وقدرتها ووسعتها وإحاطتها بشكل تام وكامل. لذا فعند إيراد القسم بـــ"مواقع النجوم" يقسم الله تعالى بموقع القرآن الكريم الحامل لصفة كلامه. لذا فلا يختلف هذا عن القسم بالقرآن المجيد في آية ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١). كما أن للقرآن موقعاً في اللوح المحفوظ. لأنه كان -حتى نـــزوله ليلة القدر- محفوظاً هناك في اللوح المحفوظ. ولم يكن مطلعاً عليه إلا من كان يستطيع الوصول إلى اللوح المحفوظ. لذا فمواقع النجوم تعني مواقع نجوم القرآن الذي هو شرح كتاب الكون، والذي ظهر بإرادة الله وعلمه وقدرته. وهذا يعني أن القرآن الكريم يعد مجموعة أخرى من عناقيد النجوم. مجموعة نجمية تقوم بشرح وتفسير النجوم الموجودة في الكون. أجل!... هناك مثل هذا الشبه بين الكون وبين القرآن. لذا فالقسم بمواقع النجوم هو قسم بموقع القرآن وبمنـــزلته العالية.

٩- الموقع الآخر للقرآن هو صدر جبريل عليه السلام الذي حاز وحصل على مرتبة "الأمين" بفضل القرآن. لذا فالقسم بمواقع النجوم هو قسم بصدر جبريل الحامل للقرآن وبصدور أمثاله.

١٠- وقد يأتي إلى الخاطر أيضاً صدر رسولنا ﷺ والصدور الطاهرة من أمته أيضا في هذا الصدد.

١١- وقد تكون الصدور الطاهرة للمؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعدون

القرآن كل شيء، والذين يحسون في أرواحهم عند سماع القرآن بأنه يخاطبهم... قد تكون هذه الصدور موضعا من مواضع قسم الله تعالى. نرجو وندعو الله تعالى أن يجعل صدورنا من تلك الصدور الطاهرة التي تكون موضعاً لقسم الله تعالى.

بسبب هذه المعاني، وكذلك بسبب معان لا نعلمها أقسم الله تعالى بمواقع النجوم الذي قال عنه رب العالمين إنه قسم عظيم.

ونحن نؤمن بالمعاني التي لا نعلمها تماماً كما نؤمن بالمعاني التي نعلمها. لذا نؤمن من كل قلوبنا ونصدق بأنه ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٦).

سورة الحشر

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠]

يجب أولاً أن نعلم جيداً بأن الدار الآخرة والجنة هما المكانان الأصليان اللذان يطرح فيهما الغل والشر من القلوب. ولو أخرجت هذه المشاعر -التي هي من أسس الامتحان- من القلوب في الدنيا لانقلب الإنسان فطرة إلى ملك من الملائكة. بينما خلق الله تعالى الإنسان في هذه الدنيا بماهية قابلة للخير وللشر أيضا. ولو فرضنا المستحيل وأخرجت هذه المشاعر من قلب الإنسان في الدنيا لنبتت هذه المشاعر في القلب مرة أخرى في يوم من الأيام كما ينبت الشعر أو الأظافر من جديد، لأنها لصيقة بفطرة الإنسان. لهذا السبب فبدلا من صيغة الدعاء "إنــزع" ورد التوجه لله تعالى الفاعل الحقيقي بصيغة ﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر: ١٠). إذن فالواجب الملقى على عاتق الإنسان هنا هو التوجه بالدعاء القولي والفعلي لله تعالى ومحاولة التخلص من هذه المشاعر التي تعد مثل الأشواك المعنوية المستقرة في القلب. وبهذه الوسيلة يستطيع التطهر من المشاعر السيئة ويكون أهلاً للجنة ويقبله الله تعالى في رضوانه.

ثم كأن هناك رسالة موجهة إلينا في هذه الآية الكريمة تطلب منا أن نعيد نظرتنا بالنسبة للسلف الصالح. أي قبول التابعين للصحابة وقبول تابع التابعين للتابعين. أي تدعونا للتصرف باحترام تجاه أرباب القلم وأرباب

الكلام من رجال الحركة والفكر الذين تركوا في حياتنا الدينية وفي مشاعرنا وأفكارنا وعقيدتنا، بل حتى في التفسير وعلم الكلام والفقه أثراً لا يمحى وميراثاً كبيراً لنا.

والأمر الآخر الذي يراد توضيحه هنا على ما أرى هو أن كل إنسان يلتذ ويسعد -وكذلك يتألم- بنسبة ترقي وسمو مشاعره وبنسبة نمو هذه المشاعر وتوسعها وتطورها. فمثلاً إن كانت قابلية الحدس عند إنسان حساس متطورة، استطاع هذا الإنسان استخراج معان عديدة من تصرفات الشخص الموجود أمامه، وهذا يكون مصدر عذاب له أحياناً ومصدر رحمة أحياناً. ويمكن القول انطلاقاً من هذا إن مقدار السعادة واللذة التي يحس بها الإنسان في الجنة يتناسب مع مقدار توسع وتطور مشاعره في الدنيا. ومن يدري فقد يقول من لم تتطور وتتوسع عنده هذه المشاعر عند دخوله الجنة: "ليتني كنت قد تطورت أكثر قبل دخولي الجنة" أو يدعو ويقول: "يا رب! أرجعني إلى الدنيا لكي أكمل سيرتي الروحية وأنميها"... ومن هذه الزاوية يمكن القول بأن الإنسان لكي ينعم بلذائذ الجنة على وجهها التام فمن المهم أن يتخلص من مشاعر الحقد والغل والحسد وغيرها. لذا يجب النظر إلى هذه الآية من هذه الزاوية أيضاً.

والحقيقة أنه حسب آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ اِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وآية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) فالذين توجد بينهم رابطة الإيمان ورابطة الإسلام عليهم أن يتحابوا ويحترموا أسلافهم، بل ويغضوا النظر عن بعض قصورهم المحتمل، وأن يدعوا بالخير لمن سبقوهم، وألا يحملوا على الإطلاق أي حقد أو غل أو عداء تجاههم. والذين يدعون انتسابهم إلى الرسول ﷺ عليهم ألا يفكروا وألا يتكلموا إلا بخير وألا يتصرفوا إلا بخير تحقيقاً للآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:٢).

كم نحن في حاجة إلى مثل هذا الأمر ولا سيما في مثل أيامنا هذه.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠)..... آمين.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحشر: ١٦]

نفهم من هذه الآية الكريمة أن "الخوف من الله تعالى" موجود حتى في طبيعة الشيطان. وهذا يدل على معرفة الشيطان بالله تعالى وخوفه منه. ولكن مع علمه هذا فهو عاص له. وعندما يذكر القرآن الكريم تمرد الشيطان وعدم إطاعته للأمر يستعمل كلمة "العصيان". والعصيان لا يأتي إلا بعد الطاعة والانقياد أولاً.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا في سورة الكهف عندما يقول:

﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف:٥٠). إذن فالشيطان باعتبار ماهيته كالجن مخلوق من النـــار. وكان بماهيته هذه يعرف الله، بل ويعبده في عهد من العهود لذا صدر إليه الأمر بالسجود. أجل!... كان الشيطان حسب أمره الظاهر من الذيـــن يتوقع منهم السجود. ولكنه -بطبيعته- كان مستعداً وذا قابلية للعصيان وللانحراف أيضاً. وظهرت طبيعته هذه للعيان بشكل واضح عندما أمر بالسجود لآدم ﷺ، وأصبح من الخاسرين.

وقد قمت مرة أو مرتين من قبل بشرح وجهة نظري حول ماهية الشيطان. لذا لو قمنا بشرح مختصر لهذا الرأي لقلنا بأن الشيطان انحرف عن الطريق عندما عصى ولم يرضخ لأمر السجود، وأظهر بذلك ماهيته الحقيقية. والشيء نفسه وارد في كل وقت بالنسبة لبعض الناس. فقد تأتي لحظات ينحرف فيها الإنسان عن الطريق بسبب مشاعر الغضب والحسد والشـــهوة المركوزة في طبيعته من أجل الامتحان. ويدخل في دوامة مخالفة لضميره فينحرف عن سواء السبيل. انظروا مثلا إلى مشـــاعر الحسد لدى بعض أهل الكتاب ضد خاتم الرسل ومفخرة الإنسانية فقد ساقتهم إلى التمرد وإلى الإنكار فلم يستطيعوا

رؤية النور الذي كان يحمله هذا الرسول الكريم ﷺ. لأنهم كانوا يطمحون أن يكون خاتم الرسل من بينهم، ومن قومهم وقبيلتهم. والشيء نفسه وارد بالنسبة إلينا وإن كان بأبعاد مختلفة. هناك مواقف تتغلب فيها المشاعر على المنطق، والإنسان دون أن يشعر يجد نفسه ضمن هذيان وضمن حركة غير منطقية. والشيطان يعيش على الدوام حالة حقد ونفور وحسد وغيظ من الإنسان. وهو يقول -كما جاء في حديث نبوي- "أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فلِيَ النار".[1]

ويجوز أنه يطلق صرخات الألم ويهذي كلما رأى إنساناً يسجد. وعندما يؤذن المؤذن في الجامع ويدوي اسم الله الجليل في الأرض ويهرع المسلمون إلى الجامع في خشوع ووجد، لا يدري الشيطان ماذا يعمل ولا كيف يهرب من سماع هذا الأذان.

والخلاصة إنه يزداد حقداً وغيظاً وحسداً من كل عمل يزيد ارتباط الإنسان وعلاقته بربه. فكما إن قيل لإنسان: "إن العصابة الفلانية قتلت ابنك" يكون في غضب دائم وتوتر وانفعال ضد تلك العصابة. ثم إن قيل له: "إن العصابة نفسها خطفت زوجتك" زاد غضبه وانفعاله. إن الإنسان الذي يتقلب ضمن مشاعر الانتقام هذه قريب من اقتراف كل شر، لأن صفة العفو والسماح تكون قد ذابت عنده تماماً.. والشيطان يتقلب في مشاعر الانتقام ضد الإنسان حتى يوم القيامة، ولا يستطيع الخلاص منها.

والنتيجة التي نخلص إليها هي أن الشيطان يعرف الله تعالى إلى درجة الخوف منه ولكنه بطبيعته القابلة للعصيان انحرف عن الطريق، لذا خسر الخسران الأبدي.

والذين انجرفوا في تيار الإلحاد فأصبح الكفر طبيعة راسخة عندهم وكذلك المنافقون هم مثل الشيطان تماماً. ففي ظروف معينة لا يترددون من ذكر الله

---

(١) مسلم، الإيمان ١٣٣؛ ابن ماجه، الإقامة ٢٠١؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٤٤٣.

والدين على لسانهم يريدون بذلك التقية واستغفال الآخرين. ويبدون في صورة المصلحين والصالحين، ولكنهم يحملون على الدوام حقدا لا ينطفئ ضد المؤمنين، ويبحثون على الدوام عن طرق ينفسون بها عن هذا الحقد والغيظ. وفي الأوقات التي لا يستطيعون فيها تنفيذ ما ينفس عما يعتلج في صدورهم من غل تراهم يخفون حقدهم وراء ابتسامة صفراء أو بيانات وأقوال لينة، ويتظاهرون أنهم ديمقراطيون. وعندما يصلون إلى القوة التي تمكنهم من فعل ما يريدون تراهم يقولون: "إن الحق للقوة". أما الديمقراطية فتصبح آنذاك أمراً خيالياً أو "فنطازياً"، ثم يرتكب من المساوئ ما لا يخطر على البال.

إن الثقة بمثل هؤلاء تعد عدم احترام لشعور الثقة. أما الخوف من هؤلاء فيعد عدم ثقة بالله تعالى. وعلى المؤمن أن يكون دائما مفتوح الصدر بالحب للجميع، ولكنه لا يغفل ولا يدير ظهره لأمثال هؤلاء، وعليه في جميع الأحوال أن يلتجئ إلى الله تعالى من شر هؤلاء.

"اللّهم إني أعوذ بك من الهَمِّ والحزَن وأعوذ بك من العَجْز والكسَل، وأعوذ بك من الجُبْن والبُخل، وأعوذ بك من غَلَبة الدَّين وقَهْر الرِّجال".(١)

---

(١) البخاري، الدعوات ٣٩؛ مسلم، الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٥.

سورة المنافقون

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]

تشرح هذه الآية الكريمة بعض الصفات الأساسية للمنافقين. ندرجها كما يأتي:

لهم مظهر خارجي يجلب النظر، مثلاً قد يكونون فارعي الطول ضخام الجثة، أنيقي الهندام يؤثرون فيمن يراهم.

هم أصحاب بيان وفصاحة يستطيعون التأثير فيما حولهم بكلامهم أو بكتاباتهم ويسحرونهم بأسلوبهم الأدبي. عندما يتحدثون يجذبون الآخرين للاستماع إليهم.

وعلى الرغم من هاتين الصفتين فهم منافقون:

أ- هم -بملابسهم الأنيقة- يشبهون خشبا مسندة على الجدران. أجسادهم فارعة ومظهرهم الخارجي ممتاز، ولكن من الصعب قول الشيء نفسه بالنسبة لقلوبهم. هذه القلوب متحجرة وكالخشب فقد طبع على هذه القلوب حسب سر الآية الكريمة ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ (المنافقون:٣)، فلا يحومون حول الحق وحول الحقيقة، ولا يستطيعون فهمها وإدراكها.

ب- علاوة على هذا فهم يحسبون كل صيحة وكل صوت مرتفع

عليهم. يقضون حياة مذبذبة بين هذه الناحية وتلك. أما في المواضيع التي يعدها المؤمنون مواضيع حساسة فتراهم وكأنهم جثث أو جنائز تمشي، لا يبدون أقل اهتمام بها. ولكنهم يهتمون بأن يظهروا بين المسلمين في السوق وفي الجامع وفي ساحة القتال. وبسبب هذه الازدواجية فهم جبناء غاية الجبن، لأنهم في خشية دائمة من ظهور وجههم الحقيقي. لذا تراهم يحسبون كل صيحة عليهم.

جـ- إذن فهم يعدون الأعداء الحقيقيين للمؤمنين. وهم يشبهون صنف العقرب الذي لا تعرف متى يلدغك.

د- لذا عليكم أن تصونوا أنفسكم منهم وتحموها لأنهم مستعدون للدغكم في كل وقت وحين. وعندما يقومون بهذا يقومون بدعوى صالح المجتمع وصالح النفع العام.

وفي النهاية يصدر الله تعالى حكمه عليهم فيقول ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون:٤).

كان الممثلون الأوائل للنفاق في العهد النبوي من أمثال ابن أبيّ ومغيث بن قيس وجد بن قيس من ذوي المظهر المتصنع الفخم والهندام الأنيق والذين لا يملكون سوى المظهر الخارجي الفارغ من الحقيقة... كان هؤلاء ممثلين جيدين للنفاق بمظهرهم وبكلامهم المنمق ومغرمين بالحديث الرنان. كل منهم معجب بمنطقه، ومعجب بنفسه إلى درجة النرجسية بالمعنى الكلاسيكي. بينما كانوا في الحقيقة أشخاصا سطحيين غارقين في أنواع عديدة من الضعف. كانوا عندما يتحدثون -حتى ولو كان كلاما جزافا- يحاولون لف حديثهم أحيانا بالغموض وبالإبهام، لكي يبدو شيئا جديدا وأصيلا. أي كانوا يرسمون شخصية إنسان مصاب بداء الاضطهاد وبجنون العظمة. ولولا إرشاد الله تعالى وتنبيهه لاستطاعوا اكتساب موقع جيد عند النبي ﷺ وعند أصحابه. وطبعا عندما كانوا يستمعون كانوا يتظاهرون

وكأنهم آذان صاغية. لقد كان كل تصرف من تصرفاتهم عبـــارة عن مظهر خارجي متصنع وخادع... قيامهم وقعودهم... كلامهم وحديثهم... كله كذب في كذب. ولكن معرفة هذا الزيف متوقفة على البصيرة وعلى موهبة ربانية.

ولكونهم كاذبين وذوي وجوه عديدة، ويسلكون ســبيل التقية كانوا يشكون في كل شيء حتى من أكثر التصرفات بـــراءة ومن جميع أنواع الأعمال القائمة على أطهر الأحاسيس والأفكار، ويحسبونها ضدهم، وينظرون إلى الناس بمنظار أحاسيسهم ومشاعرهم العقربية. صدورهم مملوءة بالخيانة لذا فهم في خوف دائم حسب قاعدة "الخائن خائف".

هؤلاء هم الأعـــداء الحقيقيون لأهـــل الإيمان، وعلى المؤمنين -مع احتفاظهم بأسلوبهم الإيماني- ألا يقصروا في صيانة أنفسهم منهم وحمايتها.

قاتلهم الله أنى يؤفكون ووقانـــا الله من شـــرهم ومن مكرهم ومن كيدهم... آمين يا معين.

سورة الطلاق

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]

التقوى حسب رأينا هي اتباع مبادئ الشريعة الغراء بجانب اتباع قوانين الشريعة الفطرية. الأول هو التقوى النفسية "أو الأنفسية" والثاني هو التقوى "الآفاقية". ولا يصح الفصل بينهما أبداً. ولكن ليـــس من الســـهل أيضاً الوصول إلى مثل هذه التقوى.

لنتناول الآية أعلاه: فالقرآن يبدأ بشرح الموضوع بـــ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ﴾ أي يستعمل فعل "الاتقاء". وهذا الفعل من باب "افتعال". ومن اهم ميزات هذا الباب "المطاوعة". أي قبول الفعل وطبيعة المنفعل، أي يصبح هذا الفعل جزءً من طبيعته وعمقاً من أعماق خلقه.

أجل!... إن ما يـــراد شرحه هنا هو أن التقوى بُعدٌ من أبعاد الفطرة، وعمق من أعماق الطبيعة الإنسانية. أي تكون التقوى هاجسها في القيام والقعود، وفي كل حال من الأحوال، يعيشها الإنسان في أعماقه ويتنفس به. ويقول القرآن في حق من استطاع تحقيق هذا الأمر الصعب والوصول إلى مثل هذا الأفق ﴿وَمَنْ يَتّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ وكلمة "المخرج" هنا ترسم الصورة النفسية للإنسان المحصور في مكان ضيق وفي حالة صعبة، ومحاولته الخروج والخلاص منها، ويبذل في هذا قصارى جهده.

وهذا الإنسان المحصور في ذلك الوضع الصعب يستخدم كل شي في عالم الأسباب. ولا يبقى هناك باب لا يطرقه، ولكنه مع كل هذا لا يجد سبيل

الخلاص. وفي هذه الأثناء يلتجئ إلى الله تعالى مسبب الأسباب فينجده في الحال. وعندما يسند الله تعالى في هذه الآية "الخروج والمخرج" إليه إنما يشير إلى مثل هذه العناية المفاجئة. لأن "المخرج" هنا مصدر ميمي، ويعني الإخراج. وهو في الوقت نفسه اسم مكان ويعني مكان الخروج أو مكان الإخراج. إذن فهذا الإخراج ليس من الأمور العادية، بل هو من الخوارق، وعمل يسند إلى الله تعالى فقط. والحقيقة أن كل أمر من الأمور في الكون يعد من الخوارق، ولكن لكون الألفة والتكرار يعمي عيوننا لا نستطيع التطلع إلى الحوادث الجارية حولنا بنظرة صحيحة قائمة على ربط الأسباب بالنتائج ولا نستطيع تقييمها التقييم الصحيح. هناك على الدوام ارتباط دقيق بين السبب وبين النتيجة، ولكن لا يمكن لذلك السبب توليد تلك النتيجة.

وحسب نظرة الأستاذ سعيد النورسي رحمه الله وتقييمه فإنه ليس من الممكن إعطاء الإنسان إلا جزء صغير من الحوادث الجارية لأفعاله الاختيارية كالأكل والشرب. مثلاً لقمة الخبز التي يضعها الإنسان في فمه.... فلو فكر الإنسان في حصته في المراحل التي يصنع فيها الخبز لظهرت الحقيقة من نفسها. صحيح أن الإنسان هـــو الذي زرع الحنطة وهو الذي حصدها وطحنها وخبزها ولكن لو لم يخلق الله الأرض والتراب ولو لم يخلق الشمس ولم يرسل المطر..... الخ أكان بمقدور الإنسان أكل الخبز؟. لنفرض انه تم صنع الخبز؟ ولكن لو لم يُعطِ الله اليد والفم والأسنان أكان بمقدور الإنسان أن يأكله؟ يجب أن ينظر إلى كل حادثة في الكون بهذا المنظار، لكي لا تقوم الألفة والعادة بوضع حجاب أمام عيوننا، ولكي نستطيع أن نرى يد الله وبصمته وختمه في كل حادثة جارية ونتذوق طعم الإيمان في هذه الرؤية والمشاهدة.

والخلاصة أن من يترك الحرام ويؤدي الفرائض، ويتجنب الشبهات ولا يتبعها ويحترز حتى في المباحات ويراعي ســـنة الله والشريعة الفطرية، أي

يراعي دساتير صاحب القدرة والمشيئة، فإن الله تعالى يفرج كل ضيق يقع فيه على اختلاف أنواعه وأبعاده، ويحيطه بألطافه السبحانية التي لا تعد ولا تحصى ويكافئه بها، وينقذه من عيش حياة قذرة، وعند الوفاة يصونه من آلام الموت ووحشته وضيقه، كما يصونه من شدة يوم القيامة.

اللهم اجعل لنا خرجاً ومخرجاً من حيث لا نحتسب. آمين يا معين.

سورة التحريم

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٍ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٍۖ﴾

[التحريم: ١٠]

قد يتساءل أحدهم: لماذا تكلم القرآن عن امرأة لوط وامرأة نوح؟

يظهر أن امرأة لوط عليه السلام لم تؤمن به، والظاهر أنها ساعدت قوم لوط في منكرهم؛ أو في الأقل كانت من المنافقات، وخانت لوطًا عليه السلام. وعاقبة المنافق أشد من عاقبة الكافر.

كما أن لوطاً عليه السلام كان غريبا وأجنبيا عن القوم الذين أرسل إليهم. فهو لم ينشأ بينهم. وآية ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ (هود: ٨٠) تشير إلى هذا. وفي هذا الوضع الذي كان فيه النبي لوط عليه السلام عاجزا من الناحية المادية ومن ناحية القوة عن الوقوف أمام هذا القوم في الخارج فإن الأمر المخيف أن يتعرض للخيانة من الداخل. ومن هنا يتضح سر ذكر القرآن هذا الأمر وسببه؛ ولا سيما إن تذكرنا أن هذه الخيانة كانت صادرة من زوجته التي كانت تضع رأسها كل ليلة على الوسادة بجانبه.

ويمكن ذكر الشيء نفسه بالنسبة للنبي نوح عليه السلام فحسب قاعدة "بحسب المغرم المغنم" فقد كان من المفروض الاستفادة من وضع هذا البيت النبوي المملوء نوراً والمرتبط صباح مساء بعوالم ما وراء السماوات. لقد كانت هاتان المرأتان مثل الخفافيش التي تنــزعج من النور. وحسب مضمون الآيــة ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ (الإسراء: ٨٧) كانت تريان النور

ظلاماً والشفاء مرضاً؛ فعاشتا خسراناً فوق خسران، لذا كان من الضروري أن تكون حالهما مثل شرارة تشعل مشاعر الخوف والرهبة في القلوب والصدور من جهة ونسمة تفتح أبواب الرجاء فيها.

وكم من أشخاص وجدوا -مثل هاتين المرأتين البائستين- فرصة العيش في أجواء نظيفة، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستفادة من نفحات هذه الأجواء، بل عاشوا -حتى في هذه الأجواء الشبيهة بأجواء سفوح الجنة- بمشاعر أهل جهنم، وتنقلوا من الكفر إلى الخيانة وراوحوا بين الجحود والخيانة، وأخذوا أماكنهم في صف الكفار وليس في صف الأنبياء حتى ولو كانوا أزواجهم، وحاولوا إطفاء نور الله بأفواههم. وهكذا لم يعرفوا قيمة النعم التي كانت في متناول أيديهم من ناحية الإمكان والقوة، ففقدوا إمكانية الكسب وحولوا مكاسبهم المنتظرة إلى خسران مبين فأضاعوا بذلك حتى فرصة الشفقة على وضعهم الأليم.

والتعبير الأصح هو أنهم عاشوا ظلام وظلمات "البعد" بينما كانوا في أفق "القرب". وبينما كانوا يعيشون في إقليم الشموس اختاروا ولوج الثقوب السوداء.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار آمين يا معين.

سورة الجن

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١
يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾

[الجن: ١-٢]

لا شك أن الحادثة الغريبة والعجيبة التي تتحدث عنها الآية الكريمة ليست من قبيل الحوادث العجيبة للأساطير. بل يجب فهمها على ما أعتقد على أنها شيء خارق في إطار العلاقات الموجودة بين الإنسان وبين الأشياء المحيطة به وبإسم المنطق الإنساني الذي يضعه القرآن أمام الإنسان.

أجل!... يضع القرآن هذه الحادثة العجيبة أمام الإنسان لكي ينتبه ويلتفت إليها في ضوء أشعة القرآن وأنفاسه التي تهب الحياة. لذا يمكن القول بأنه لولا القرآن لما سمع الإنسان مثل هذه الحقيقة ولما انتبه لها. وفي إطار هذه الملاحظة عندما يستمع هذا النفر من الجن -المطلعين بمقياس معين على بعض أسرار الوجود من وراء الغيب- قالوا: ﴿إِنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ (الجن: ١). ولم يكتفوا بسماع القرآن بل سلموا أنفسهم للجو السحري للقرآن وأعلنوا بكل اعتزاز إيمانهم به ﴿فآمَنَّا بِهِ﴾. أي أن سماع بضع آيات من القرآن كان كافياً لهؤلاء المطلعين على بعض أسرار الوجود لكي يعلنوا إيمانهم بكل صراحة.

وقد تقابل رسولنا ﷺ مع الجن بضع مرات. فكيف تمت هذه المقابلات؟ لا أستطيع التطرق لهذا الموضوع، لأن رسولنا ﷺ كان شخصا تداخل

وامتزج فيه العالم المادي مع العالم الميتافيزيقي، أي كان عالمه يفوق عالمنا المادي هذا ويتجاوزه، لذا كان هذا الأمر يتجاوز مسئوليتنا وحدودنا.

المهم عندنا أمور أخرى مثل كون رسولنا ﷺ مفخرة للإنس وللجن وأن نبوته ورسالته العالمية شملت الإنس والجن، وأنه بلّغ هذا الأمر، أي استماع الجن للقرآن لأصحابه حسب مفهوم الآية ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الجن: ١)، وأن سماع آيات معدودات كان كافيا لكي يعلن الجن إيمانهم على الفور، بخلاف قريش المتمردة على الإيمان على الرغم من المعجزات والآيات البينات، وإن الفئة المؤمنة من الجن والسعيدة بإيمانها هذا أظهروا رغبتهم وقرارهم بالعودة إلى قومهم فورا لدعوتهم إلى الإسلام في الحال دون ضياع دقيقة واحدة.

ربنا أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

سورة الأعلى

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ⁽٩⁾﴾ [الأعلى: ٩]

من لا يضع نصب عينيه أسباب نــزول مثل هذه الآيات قد يفهمها بشكل خاطئ فيقول: "إن نصائحي لم تفد ولم تأت بخير" أو: "لقد ذكّرتهم خمسين مرة فلم تنفعهم الذكرى" أو: "هؤلاء غير مؤهلين للإيمان"... الخ. وهكذا تصاب وظيفة الدعوة والتبليغ بالفتور. بينما الحقيقة التي تشير إليها هذه الآية حقيقة أخرى تماماً ومغايرة لهذا المفهوم ولهذا المعنى لأن هذه الآية الكريمة تقوم بتعليم أصحاب الدعوة وظيفتهم في الإرشاد وفي الدعوة والآية ﴿فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ توصي هؤلاء وتقول لهم إن كان تذكيرك مفيدا فداوم عليه. علماً بأن الرسول ﷺ على الرغم من آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦) فإنه داوم على تذكير قساة القلوب من قريش من أمثــال أبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم. ولا يعلم إلا الله وحده كم من مرة ذهب إليهم وذكّرهم ودعاهم إلى الله. ولو أعطاه الله تعالى فرصة وفسحة أخرى لما توانى عن تذكيرهم ودعوتهم.

أجل!... إن أساس وظيفة التبليغ والإرشاد هو تنفيذ أمر الله بدوام هذا التبليغ والاســتمرار عليه. ولو أخذنا اســتجابة الناس أو عدم استجابتهم بحسباننا لأدى هذا إلى شيء معاكس ومناف لأهدافنا. انظروا ماذا يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنــزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧).

وبجانب تذكير الله تعالى لرسوله بوظيفته ومهمته نجد هنا تنبيهاً لطيفاً وليناً له. فكأنه يقول له: ليس هناك أي احتمال حول تخليك عن مسئوليتك وعن مهمتك في التبليغ فليس هذا من طبعك لأنك مفطور على القيام بالتبليغ ولكن مع هذا يجب تذكيرك، فأنت صاحب الخلق العظيم والسجية السامية والفطرة النورانية الذي يسعى نحو اللامحدود ونحو اللانهاية، لذا كان الشعور بمسؤولية المهمة الكبيرة الملقاة على عاتقك متناسبا مع هذه الفطرة السامية.

وحسب الحقيقة التي تكشفها آية ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦) نعلم أن مهمة الرسول ﷺ ومهمة كل واحد منا هو التبليغ والتبليغ فقط.

وهناك وجه آخر لآية ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ وهو أن بعضهم لا تنفع معهم الإرشادات والنصائح، لذا كان من الضروري معرفة هذه الحقيقة منذ البداية لكي لا يقع أحد في اليأس والقنوط، ولكي لا نتدخل في أمور هي خارج مهمتنا ووظيفتنا. لأنه حسب آية ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ فإن المستفيدين من التذكير والتبليغ هم أهل الخشية فقط.

ولكون الرسول ﷺ مكلفاً بالتذكير والتبليغ دون قيد أو شرط فإن آية ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا تفيد التقييد بل تفيد تأكيد هذه المهمة وهذا التكليف، لأن هذا الكلام البليغ والقوي النازل والموحى به لا بد أن يكون له نفع حتى ولو بالقوة "أي بالاحتمال في المستقبل". أما استفادة السامعين له أو عدم استفادتهم فعلياً فهو موضوع آخر. إذن نستطيع أن نقول استناداً إلى هذه الآية: انصح لأنه لا بد أن تكون هناك فائدة من النصيحة.

اللهم اجعلنا من عبادك الخالصين المخلصين. وصلّ وسلّم على سيد المخلصين.

سورة الضحى

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ [الضحى: ٤]

سورة الضحى سورة مكية نـــزلت في أكثر أيام الرسول ﷺ ضيقاً. فقد جاءت أم جميل -زوجة أبي لهب- إلى الرسول ﷺ في أثناء انقطاع الوحي وقالت له: "ما أرى صاحبك إلا أبطأك". في مثل هذه الأجواء نـــزلت سورة الضحى التي قامت بالتسرية عن رسول الله ﷺ وتطييب خاطره قائلة له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.[1]

عندما نقيّم هذه الآية في ضوء تلك الظروف التي كانت تحيط بالرسول ﷺ علمنا أن معنى هذه الآية تعني أن غدك سيكون أفضل من يومك الحالي، ومستقبلك أفضل من وقتك الحالي.. والتاريخ يشهد بأن هذا هو ما حصل فعلاً. ففي كل يوم كان نجمه يرتفع، ودعوته تتوسع. وكان كل يوم أفضل من سابقه وأكثر بريقا وألواناً. كانت الآيات والسور بعد هذا اليوم تقوم على الدوام بتقديم البشائر له؛ مثلاً ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكْ﴾ (الشرح: ١) و ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ (العاديات: ١-٢). كانت أمثال هذه السور مصدر أمل كبير لرسولنا ﷺ. وكيف لا تكون ونحن حتى في هذه الأيام عندما نقرأ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ تظهر أمام أعيننا صورة الخيول اللاهثة التي تثير الغبار وتنقدح الشرارات من تحت أقدامها، أو صورة الدبابات والطائرات الحديثة وكأن الروح المحمدي قد انتصب أمام أعيننا.

---

(١) البخاري، فضائل القرآن ١.

في سورة الضحى نلمس صورة القلق والضيق الفردي والشخصي، وكذلك صورة المستقبل، والانتصار والغلبة الروحية الآتية في المستقبل على مستوى المجتمع. كما تسري في هذه السورة موسيقى حزينة. أما في سورة "العاديات" ففيها موسيقى كموسيقى طبول الحرب. أي أن الحروف والكلمات في القرآن الكريم مختارة حسب مضامينها ومواضيعها بشكل دقيق يحير أولي الألباب من الباحثين والمدققين في هذا الأمر.

كما أن أسلوب سورة الضحى يعرض خاصية نفسية أيضا فعند القيام بالتسرية عن رسول الله ﷺ نرى البدء بالقسم بالضحى ثم بالليل. أي عندما تقول ﴿وَالضُّحَى﴾ تشعر وكأن أشعة شمس الضحى تنير وجهك وعينيك وتغرقك في الفرح والحبور. فإن كنا نحس بهذه المشاعر عند التلفظ بكلمة ﴿وَالضُّحَى﴾ بعد مرور أربعة عشر قرنا، وبعد كل هذه الألفة مع القرآن الكريم، فما بالك بالمشاعر التي ملأت صدر سيد الأنبياء ﷺ وهو يقرأ هذه الآية لأول مرة!... نفسي له فداء.

كما أن "وللآخرة" تعني الغد بالنسبة لليوم، والحال القادمة بالنسبة للحال الحاضرة، وبشارة بالرحمة الشاملة واللطف الواسع القادم بالنسبة للضيق الحالي واللطف النسبي الحالي. فهذه الآية تذكُرُ له وتعده بأن أيام نبوته الأولى في مكة التي اتسمت بالضيق ستفرج نوعاً ما في المدينة وسيتسع محيطها، وأن المشاكل والصعاب الظاهرية والشكلية ستنقلب إلى نعمة... وهكذا تتم بشارته هو أولاً باعتباره الرسول الفذ والفريد في مستوى الكون والزمان، ثم بشارة أصحابه والمنتسبين إلى دعوته ثانياً.

أجل!... فالبشارة له ولأصحابه وللمنتسبين الأوفياء لدعوته. وعند ذكر ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ (الضحى:٤) فهي بشارة لأمته كذلك بأنها ستنقلب إلى حال أفضل، ومن الخير النسبي إلى الخير الحقيقي، ومن الإيمان إلى العمل، ومن العمل إلى الإحسان، ومن الضيق إلى الفرج، وأخيرا البشارة

بأن الآخرة الحقيقية المتمثلة بالجنة والمنتهية برؤية الله تعالى ستكون أفضل من كل ما عداها.

اللهم إنا نسألك الرضا بعد القضا، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: ٥]

من الممكن فهم كلمة ﴿فَتَرْضَى﴾ في الآية الكريمة على أنها إشارة إلى مقام الرضا على الصورة الآتية: إن الرسول ﷺ جاء إلى الدنيا في البداية كمظهر لمقام الرضا في صورة وماهية النواة. أجل كان هذا المظهر في البداية بمثابة نواة وبمثابة بذرة. فكما تنمو البذرة بعدما تزرعها في التربة فتكون نبتة صغيرة ثم تنمو وتكبر حتى تغطي السماء، كذلك وصل الرسول ﷺ بالإرادة والجهد والعزم الذي أعطاه له ربه مقام الرضا الذي كان في حالة القوة والكمون إلى مقام رضا بالفعل بكفاءة لا يتصورها العقل. إذن فإن أخذنا الرضا المطلق في ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥) بعين الاعتبار يمكن القول بأنه سيصل حتما إلى مقام الرضا. والسبب في قولنا بأنه سيصل هو وجود كلمة "ولسوف".

والحقيقة إن مثل هذه العاقبة الجميلة واردة بحق كل من عاش حياته ضمن إطار أوامر ربه ونواهيه. المهم هنا ألا يقوم الشخص باستعمال القابليات الممنوحة له استعمالاً سيئاً وفي اتجاهات خاطئة.

كما أن اللام الموجودة في "وللآخرة" وكذلك في "ولسوف" هما لام الابتداء ولكن يحتمل أن يكونا لامي القسم أيضاً. فبعد القسم في الجملة الأولى على أن الآخرة ستكون خيرا له من الأولى، تأتي الجملة الثانية وتؤكد أن الله تعالى سيعطيه حتى يرضى. أي أنك نتيجة تقلب أيامك بين اللذة والألم، والحلو والمر، والمساعدات والمضايقات ستنضج وتبلغ أوج مراتب الكمال بحيث ستجد نفسك بين شلالات السعادة المادية والروحية والفكرية. هناك مدة قصيرة وفترة طبيعية وفطرية في هذه الأيام الحالية متعلقة بـــ"سوف". ولما كانت سنوات "الأولى" لا تقاس حتى بثواني "الآخرة"،

إذن فاصبر قليلا فسترى نسائم الرضا الإلهي وهي تهب عليك وتحيط بك.

آنذاك لا يبقى هناك هم ولا حزن ولا كدر لا للمقتدي ولا للمقتدى به، ولا أي ضر أو قلق. سيجد المقتدى به -باسمه وباسم أمته- كل ألوان وأنواع الرضا والسعادة، ويعيش كل مظاهر "النفس الراضية". أما جواب صاحب الأزل والأبد فهو إيصالهم إلى ذرى مراتب "النفس المرضية". حيث تنقلب هنا القطرة إلى بحر والفناء إلى بقاء وخلود، طبعا مع المحافظة على وضع النسب بين الأصل وبين الظل. حيث تتجلى هنا حقيقة ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩).

اللهم اجعلنا من عبادك الحمّادين واحشرنا تحت لواء محمد ﷺ.

سورة الانشراح

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾ [الانشراح: ٧]

تقدم هذه الآية الكريمة للمسلم فلسفة حركية مهمة ودستورا للحياة. أجل يجب أن يكون المؤمن في حركة دائبة في كل حين. في حركة عندما يعمل، وفي حركة أيضاً عندما يرتاح. وبعبارة أخرى عليه أن ينظم نفسه وفق خطة لا يوجد فيها أي فراغ في حياته.صحيح إنه كإنسان يحتاج إلى الراحة، لذا من الطبيعي أن يرتاح. ولكن يجب أن تكون حتى هذه الراحة راحة نشطة وإيجابية فمثلا من يتعب من القراءة والكتابة يستطيع أن يرتاح بالنوم أو بتغيير وتبديل الجو كأن يقرأ القرآن أو يصلي أو يلعب الرياضة أو يتسامر أو يمزح مع الآخرين المزاح المقبول شرعا... الخ. وعندما يتعب من هذا يرجع مرة أخرى إلى القراءة. أي يكون في حركة مستمرة ودائبة يترك مشغلة من المشاغل لمشغلة أخرى. أي يستريح وهو يعمل، ويعمل وهو يستريح.

وإذا قمنا بتقييم هذه المسألة في إطار الخدمة الإيمانية يمكن القول بأننا كمؤمنين نكون -كما قيل على الدوام- ضمن ألطاف قسرية وجبرية. وحسب أسلوب الخدمة الإيمانية المقبول من قبل، والمطبق على الدوام نرى انعكاس هذا الدستور القرآني في حياتنا كمؤمنين دون أن نشعر. وفي السابق قام بعض أغنيائنا الباحثين عن الرضا الإلهي بالتبرع للطلاب الأذكياء من الفقراء وإسكانهم في الأقسام الداخلية خدمة للأمة. وبعد مدة شعروا أنهم قد أدوا مهمتهم وركنوا إلى الدعة وإلى مشاغل الحياة الاعتيادية فإذا بأبواب

خدمات جديدة وواسعة تنفتح أمامهم وتدعوهم لتذوق أذواق أداء هذه الخدمات الرحبة. كانت القلوب المخلصة تتساءل بقلق: "أيمكن أن تنتهي هذه الأنواع من الخدمات الإيمانية؟ ألا توجد هناك ساحات أخرى وساحات أوسع؟" فإذا بساحات خدمات أخرى وفي مناطق جغرافية أوسع تنفتح أمامهم، وإذا بهم يتذوقون لذة أداء هذه الخدمات في سبيل الله، ويتجرعون كؤوسها مترعة. ثم فتح الله أمامهم ساحات خدمات بأبعاد ومناشط أخرى أيضاً. والخلاصة أنه ما من عهد ظهر فيه ظن قاتل بأن الخدمات قد فرغت وأن أبوابها قد قفلت إلا وقيض الله تعالى أشكالا مختلفة من الخدمة في سبيله وفي ساحات مختلفة. لذا فللتعبير عن مثل هذا المعنى أومأت إلى أننا مجتمع "للألطاف الجبرية". إذن فنحن كمؤمنين وإن لم ننتبه إلى معاني ومحتويات الآية ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ إلا أنها تبدو وتظهر في حياتنا بشكل منتظم ومستديم.

وإذا دققنا النظر في أصل المسألة نرى أنه لا يوجد في الحقيقة بديل عن هذا بالنسبة للمؤمن. فأولاً إن كل نعمة من النعم التي أنعمها الله تعالى على المؤمن كبيرة جداً. فكوننا إنسانا نعمة وكوننا في صحة وفي عافية نعمة أخرى. وكوننا نشعر ونحس بهذه النعم -نتيجة إيماننا- نعمة متميزة. أي كل شيء نعمة: أكلنا وشربنا... انتظارنا للحياة الأبدية... انتظارنا للنعم الأبدية نعمة... كل شيء... كل شيء في الحقيقة نعمة. ولكن الإلفة والعادة تنسينا قدر كل هذه النعم وقيمتها. لذا لا نؤدي شكرها كما يجب. كل هذه النعم في كفة هناك نعمة أخرى لا نلتفت إليها وهي: عندما ندير أنظارنا فيما حولنا نجد وجود حروب ساخنة في العديد من الأماكن، ونرى الآلاف من الأشخاص يبكون ويعانون من هذه الفواجع، ونرى المسلمين في العديد من البقاع يتعرضون للظلم، ولقهر واستبداد الحكام الذين لا يكفون عن ظلم المؤمنين. وبينما تجري هذه الحوادث المفزعة حوالينا نستطيع نحن أداء واجباتنا وأداء الفرائض بحرية دون التعرض للظلم والإهانة. هذا طبعا

بالنسبة لحالنا في الماضي وبالنسبة لكثير من البلدان الإسلامية. أليست هذه نعمة كبيرة؟ أوَلاَ يستوجب هذا الشكر؟ إذن يجب أن نسرع من عمل إلى آخر، وأداء واجباتنا -ضمن منظومة الخدمة الجماعية- دون كلل أو ملل، والاستمتاع بتذوق اللذة المعنوية والروحية ونحن نؤدي هذه الخدمات.

أجل ليس من حق المؤمن القول: "لقد أديت ما عليّ و لم يبق أمامي عمل شيء آخر"... لا يجوز له أن يقول هذا وينسحب من الميدان للراحة والدعة. وظيفة المؤمن بعد قيامه بإتمام عمل خيري المبادرة بعمل خيري آخر. عليه أن يرتاح بالعمل، وأن تكون راحته مقدمة لعمل آخر، وأن يعيش اليسر في العسر، وأن يقيم اليسر والعسر على ضوء المشاعر الغيبية والروحية، وأن يتصرف على ضوء أن العالم المادي يكمل العالم اللامادي، وأن العالم اللامادي يكمل العالم المادي، فيعيش كإنسان لم يدع هناك أي فجوة في حياته.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، وصلى الله على سيدنا محمد المرتضى.

فهرس

توطئة.. ٥
فهم خاص للقرآن الكريم ٩
مقدمة المؤلف.. ٢٢
مدخل.. ٣١
سورة الفاتحة.. ٣٥
ســـورة البقرة.. ٣٧
ســـورة آل عمران ٩٦
ســـورة النساء ١١٢
ســـورة المائدة.. ١٢٣
ســـورة الأنعام.. ١٣٣
ســـورة الأعراف.. ١٤٣
ســـورة الأنفال ١٤٨
ســـورة التوبة ١٥٦
ســـورة يونس.. ١٦٢
ســـورة هود ١٧١
ســـورة يوسف ١٧٣
ســـورة الرعد.. ١٨٢

سـورة إبراهيم ١٨٤
سـورة الحجر ١٨٦
سـورة النحل ١٨٨
سـورة الإسراء.. ١٩١
سـورة الكهف.. ١٩٣
سـورة مريم ٢١٣
سـورة طه ٢٢٣
سـورة الأنبياء.. ٢٣١
سـورة الحج.. ٢٣٨
سـورة النور.. ٢٤٠
سـورة الشعراء.. ٢٤٤
سـورة النمل.. ٢٥٥
سـورة القصص ٢٦٦
سـورة العنكبوت ٢٧٨
سـورة لقمان ٢٨١
سـورة الأحزاب ٢٨٣
سـورة سبأ.. ٢٨٦
سـورة يـس ٢٨٩
سـورة ص ٢٩٣
سورة المؤمن "غافر" ٢٩٥
سـورة فصلت ٢٩٨
سـورة الشورى.. ٣٠٤
سـورة الفتح ٣٠٨

سـورة النجم.. ٣١٤
سـورة الرحمن.. ٣١٦
سـورة الواقعة.. ٣١٨
سـورة الحشر ٣٢٧
سـورة المنافقون.. ٣٣٣
سـورة الطلاق ٣٣٦
سـورة التحريم ٣٣٩
سـورة الجن.. ٣٤١
سـورة الأعلى.. ٣٤٣
سـورة الضحى.. ٣٤٥
سـورة الانشراح ٣٥٠
فهرس ٣٥٣

المترجَم للعربية من الفكر الموسوعي لفضيلة الشيخ فتح الله گولن

١-النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية

٢-القدر في ضوء الكتاب والسنة

٣-أسئلة العصر المحيِّرة

٤-روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

٥-طرق الإرشاد في الفكر والحياة

٦-أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٧-الموازين أو أضواء على الطريق

٨-ترانيم روح وأشجان قلب

٩-ونحن نقيم صرح الروح

١٠-حقيقة الخلق ونظرية التطور

١١-التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

www.ar.fgulen.com

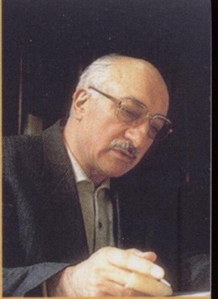

محمد فتح الله كولن

أضواء قرآنية في سماء الوجدان

هذه -أخي القارئ- بعضٌ من أفكار ومشاعر ومعانٍ جاءت على صفحات هذا الكتاب، ومؤلف الكتاب العالم الكبير الأستاذ فتح الله كولن لم يزعم أنه في معرض التفسير لما تناوله من آيات قرآنية، على الرغم من امتلاكه لكل شروط المعرفة التفسيرية وأدواتها. وكُلُّ الذي فعله أنه سجّل في هذا الكتاب ما تلقاه من ومضات والتماعات وإشارات من بعض ما تألّق في سماء وجدانه المرهف من نجوم القرآن، ومع ذلك فإنه لم يغفل تماماً آراء المفسرين في الآيات التي عرض لها، غير أنه توسع بعض الشيء فيها، وانقدحت في خاطره أفكار ومعانٍ جديدة مضافة، تحتملها الآية من حيث تركيبها اللغوي والبلاغي، ولا تشتطّ أبداً في الابتعاد عن أصول التفسير وقواعده المعروفة. ولا شك أن هذه الخطرات أملتها ظروف العصر، وظروف الدعوة الاسلامية المعاصرة، وأوحت بها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية.

أضواء قرآنية
في سماء الوجدان

ISBN 975-315-153-5
9789753151535
دار النيل